



المشروع القومي للترجمة

المركز القومي للترجمة

ترشيح

تأليف: نور الدين عبد الرحمن الطحطاوي
ترجمة وتعليق: عبد العزيز بقرقوش

الطبعة الثانية

2/328

يُوسُفَ وَزُلَيْخَا

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

— العدد: ٣٢٨ / ٢

— يوسف وزليخا

— نور الدين عبد الرحمن الجامي

— عبد العزيز بقوش

— الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

يوسف وزليخا

نور الدين عبد الرحمن الجامي

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلالية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

يوسف وزليخا

تأليف: نور الدين عبد الرحمن الجامي
ترجمة وتعليق: عبد العزيز بقوش



رقم الإيداع: ١١٧٦٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 5 - 402 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	9
بسم الله الرحمن الرحيم	11
افتتاح الكتاب باسم الله الواحد الأحد	13
ترتيب دلائل وجود الله	17
رفع الأيدي بالمناجاة لمساعدة المحتاجين	20
تخصيص المناجاة للناظم دون عون المشارك والمساهم	22
في وصف سيد المخلوقات وإمام الكائنات عليه أفضل الصلاة والسلام..	25
في معراج حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم	29
ارتداء ثياب التضرّع، والمثابرة في اقتباس الشفاعة	36
في التبرك بذكر عبيد الله أحرار شيخ الجامي ومرشده	39
يقول في مدح السلطان حسين	43
في بيان أن الجمال والعشق طائران طارا من عُشّ الوحدة	47
"الشجرة" في بيان فضيلة العشق	52
حكاية على سبيل المثال	54
جنى باقة ورد من بستان فضائل العشق، ولقها بخيط إتمام سبب نظم الكتاب....	56
قصة إضاءة شمع جمال يوسف في خلوة الغيب	61
إحضار عُصْنِ جمال يوسف من مرتع الغيب	65
في وصف ونسب زليخا	72

81 رؤيا زليخا سيف شمس جمال يوسف للمرة الأولى
87 هبوب نسيم السحر على زليخا
92 وقوع عقدة الحيرة فى خيط تفكير الجوارى
101 رؤيا زليخا ليوسف فى المنام للمرة الثانية
109 رؤيا زليخا ليوسف عليه السلام فى المنام للمرة الثالثة
115 مجيء الرسل من كل مدينة - عدا مصر - لخطبة زليخا
121 إرسال والد زليخا رسولاً إلى عزيز مصر
127 هبوب نسيم القبول من جانب مصر
133 معرفة عزيز مصر بأمر قدوم زليخا
137 رؤية زليخا عزيز مصر من فتحة الخيمة
143 قدوم زليخا بصحبة عزيز مصر
149 تمضية زليخا عمرها فى فراق يوسف عليه السلام
158 بداية قصة حسد أخوة يوسف عليه السلام
162 رؤيا يوسف عليه السلام سجود الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا
167 تشاور الإخوة مع بعضهم لتدبير حيلة لإبعاد يوسف
 ذهاب أخوة يوسف عيه السلام إلى أبيهم، وطلبهم أن يرافقهم
171 يوسف فى الذهاب إلى الصحراء
175 أخذ أخوة يوسف أخاهم من أبيهم، والقاؤه عليه السلام فى الجب
183 وصول القافلة إلى حافة الجب، وطلوع يوسف كالقمر
189 بلوغ مالك بيوسف إلى مشارف مصر، ومعرفة ملك مصر
193 ورود يوسف إلى نهر النيل، واغتساله من غيار السفر
198 وصول زليخا إلى بلاط الملك، واستفسارها عن سبب احتشاد الخلائق

202	عرض «مالك» يوسف في معرض البيع
208	قصة فتاة أسماها «بازغة» من نسل عاد
218	تهيئة زليخا أسباب الراحة ليوسف
223	شرح يوسف عليه السلام قصة مشقة الطريق وآلام الجب
227	رغبة يوسف عليه السلام في الرعى
231	طلب زليخا وصال يوسف عليه السلام وتعفّفه عن ذلك
236	استفسار المربية من زليخا عن سبب احتراقها وانصهارها
240	إرسال زليخا إلى يوسف لتطلب إليه تحقيق رغبتها
245	ذهاب زليخا إلى يوسف نفسها وتضرّعها إليه
251	إرسال زليخا يوسف إلى البستان
257	إقبال الليل وعرض الجوارى جمالهن على يوسف
263	تضرع زليخا للمربية، والتعاسها أن تدبر حيلة
268	بناء المربية بيتاً، صورت به جمال يوسف وزليخا (معاً)
273	طلب زليخا يوسف إلى ذلك البيت، ومطالبته بوصالها
282	إدخال زليخا يوسف الحجرة السابعة، وسعيها لتحقيق رغبتها
296	لقاء العزيز يوسف خارج ذلك المنزل
303	حمل الحراس يوسف إلى السجن، وشهادة طفل رضيع ببراءته
309	شروع نسوة مصر في الحديث، وإطلاق ألسنتهن بالطعن على زليخا
321	التعاس نسوة مصر العذر لزليخا بعد مشاهدة جمال يوسف
328	حض نسوة مصر زليخا على إرسال يوسف عليه السلام إلى السجن
336	ندم زليخا على إرسال يوسف عليه السلام إلى السجن
345	عجز زليخا عن تحمل فراق يوسف عليه السلام

مقدمة

لم يكن نور الدين عبد الرحمن الجامي أول من نظم قصة "يوسف وزليخا" بالفارسية، بل سبقه إلى نظمها شاعران آخران أحدهما من "بلخ" اسمه "أبو المؤيد" والآخر من "الأهواز" اسمه "البختياري"، وقد ضاعت منظومتاهما، ثم قام أبو القاسم الفريوسي بنظم هذه القصة، وإن كان هناك كثير من الباحثين يعترضون على نسبة القصة إليه.

وجاء الدور على شاعرنا لينظمها في القرن التاسع الهجري ضمن مجموعته التي أطلق عليها اسم "هفت أوردنك" بمعنى: "العروش السبعة"، وتضم:

سلسلة الذهب، وسلامان وأبسال، وتحفة الأحرار، وسبحة الأبرار، ويوسف وزليخا، وليلي والمجنون، وخرد نامه اسكندري.

وقد أصبحت هذه القصة من أكثر الموضوعات التي يطرقها الشعراء الرومانتيكيون في إيران وتركيا، وإن كانوا قد أضفوا على أصولها كثيرا من الزيادات والإضافات، وأرجو أن تكون ترجمة هذا العمل إضافة جديدة للمكتبة العربية.

المرجم

عبد العزيز بقوش

بسم الله الرحمن الرحيم

- يا إلهي، اجعل بُرعم أملئ يتفتح، وأنبت لى وردة من روضة الخلد،
- واجعل روضتى باسمه من تفتح تلك البرعمة، وعطر أنفى بشذى هذه الوردة،
- واجعلنى عارقاً بنعمك، فى دار الأحزان التى نخلت من المؤاسين،
- واجعل قلبى شاكراً ولسانى ذاكراً،
- ٥ - وهبنى مسعادة الأيام بكتاب العقل، وامنحنى الغلبة على إقليم الشعر،
- فكما أنعمت علىّ بقلبٍ مفعمٍ بالجواهر، اجعل لسانى مبيتاً لكنوز القلب،
- وعطر الدنيا بمسكى من أقصاها إلى أقصاها، مادمتم قد فتحت نافجة طبعى،
- واجعل لسان قلمى حلواً بأشعارى، واجعل صحيفتى معبرةً بعطرى،
- فلم يعد للشعر رونق، ولم يبق من صحفه غير الاسم،

- ١٠ - وما عُدْتُ أنجد نعمةً من تلك الألمان، في حانة هذا
الكون عذب الأساطير،
- فقد شرب السندامى الشراب ثم رحلوا، وأخلوا الحسانات
ومضوا،
- وما عُدْتُ أشاهد ناضجاً ولا فجاً من محفل الشعراء، تحمل
راحته كأساً من ذلك الشراب،
- وقد ضاع الدنّ والكأس والساقى، ولم يعد متبقياً لدينا
سوى الأحران،
- فهيا، اخلع يا جامى الحياء، وقدم ما عندك من صافى
القول وثمانته.

افتتاح الكتاب باسم الله الواحد الأحد

- ١٥ - باسم من اسمه حرز الأرواح، وثناؤه جوهر سيف
الأسنة،
- لقد نال اللسان - فى الحلق - أمنيته بذكر اسمه، فوجد
الرضاب من ينبوع إنعامه،
- وتبدت للعقل منه كل لحظة آلاف الدقائق، التى تشبه
الشعرة،
- ومشط تلك الشعرة باللسان، وجعل من الأسنان مشطاً
لها،
- فتعالى الله القيوم العالم، مانح القدرة لكل عاجز،
٢٠ - فقد زينّ الفلك بالكواكب، وزينّ الأرض بالناس،
- وشيد سقف الفلك الدائر، فوق جدران العناصر الأربعة،
- وربط نافذة الورد وسط برعمها، وجعل من الورد قلادةً
على صدر أغصانها،
- فهو ناسج قصب عرائس الربيع، ومقيم السُّرور على
ضفاف الأنهار،
- رافع كل ذى همة عالية، مذل كل محب لنفسه،

٢٥ - غافر ذنب الماجنين، شاربى الخمر، آخذ الشيوخ المرائين
بالطاغة،

- أنيس خلوة قائمى الليل، رفيق من صهرتهم محن النهار،
- تجود سحائب الربيع بروتقها على الأشواك والياسمين من
بحر لطفه،

- وتملأ ريح الخريف ساحة الخميلة بُفُرشٍ ذهبية من منجم
جوده،

- وهو مالى أفواه الصالحين سكرًا، ومُحِيلُ عيش الجاحدين
ضنكًا بقهره،

٣٠ - من كرم جوده تلك الشمس المضيئة، التى تضىء الدنيا ذرّة
ذرّة،

- فلو أنه حجب وجهه عن الشمس والقمر، لهوت الكرة فى
ساحة فنائهما،

- وقد بثّ فينا مِنّة الوجود، فهو واهب الوجود للوجود
والعدم،

- فلو هبط وهم الإنسان وإدراكه من سقف السماء إلى مركز
الأرض،

- أو أنهما ارتفعا مائة مرة، فلن يخرججا قيد أنملة عن
حكمه،

- ٣٥ - غذاته مبرأة عن الكيف والكم، وأكثر تنزيهاً عن الانخفاض والارتفاع،
- والعظماء أذلاء أمام علو قدره، أكثر كم العلماء وكيفهم أمام تفرده،
- فالعقل مضطرب أمام ذاته، والطلب عاجز عن المضي في طريقه،
- ولو لم يهدنا بلطفه، لآزداد بعدنا عنه لحظة بعد لحظة،
- وعندما يرتفع صوت هبة جلاله، في بلاطه الأبدى،
- - فإن الملائكة تستحي من جهلها، ويحار الفلك من دهشته،
- فخير لنا - نحن الحفنة المليئة بالرغبة - أن نجلو مرآتنا من صدأ الرغبة،
- ونلجأ إلى نسيان وجودنا، ونتخذ من الصمت ملاذاً لنا.

ترتيب دلائل وجود الله سبحانه والترغيب في التأمل فيها

- حَتّام تلهو أيها القلب كالأطفال في هذا القصر الخيالي؟
- إنك من ربّته يد ذلك الطائر الجريء، وكان عشك خارج نطاق ذلك القصر،
- ٤٥ - فلماذا صرت غريباً على ذلك العش، وسكنت الخرائب كأراذل البوم؟
- انفض جناحك وريشك من علائق التراب، وحلق عالياً حتى شرفة إيوان الأفلاك،
- وتأمل (النجوم) ذوات الملابس الحريرية الزرقاء، وهي ترقص وتثر رداء النور على الكون،
- وهي تدور جميعاً، صباح مساء، متوجهةً إلى هدفها، سالكةً طريق التوفيق،
- يد أن لكل واحدة حركة خاصة، فتهتز بصولجان الإرادة مثل الكرة،
- ٥٠ - فواحدة تتجه من الغرب إلى الشرق، وواحدة تغرق سفيتها في الغرب،

- وواحدة تبعث حرارتها في محفل النهار، وأخرى تضيء
محفل الليل،

- وواحدة ترسم حروف السعادة، وأخرى تمزق خيوط السعادة،
- وهي سريعة في قطع المنازل، لا تملك الراحة من هذه الحركة،
- لا يعترينا ومن من وعشاء طريقها، ولا يصيب وسطها
ألم، ولم تسحق أقدامها،

٥٥ - فماذا يعرف الإنسان عن عملها وكثرة ترحالها؟ فقد
صارت أجسامها وجوهًا، فلمن تتوجه؟

- إنها تبدو في كل لحظة بصورة جديدة، ولكنها ليست
جديدة بأن تسمو إلى مرتبة خالقها،

- فحتام تسلم عنانك ليد الشك، وتتجه إلى كل واحدة
منها قائلاً: «هذا ربي»،

- اطرق باب اليقين كالخليل، واعزف لحن: «لا أحب الآفلين» (١)
- واترك ظن كل وهم وكل شك، وتوجه بوجه (وجهت
وجهي) (٢) إلى الواحد،

٦٠ - واعلم أنه واحد، وانظر إلى الواحد، وقل إنه واحد،

[١] إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا جُنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَيْتُمْ كَوْنًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْتَنِي لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ . الأنعام . الآيات: ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ .

[٢] إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ (٧٠)﴾ . الأنعام . آية (٧٩)

- واطلب الواحد، ونادِ الواحد، وابحث عن الواحد،
- فمن كل ذرة وجهة وطريق إليه، شاهدٌ على إثبات وجوده،
 - ومطبوع على قلب كل عالم، أن لكل صورة مصورًا،
 - فلو ظهرت آلاف الصور على أحد الألواح، فإن الألف لا تستقيم (على ذلك اللوح) بدون كاتب،
 - ولن تستطيع أن تعثر في هذه الدار الفانية على لبنة، دون
 - أن يصنعها - قالبُ إنسان طيب السريرة،
- ١٥ -** فقد كتب فوق اللبنة بقلم الأصابع، أنها صنعت بيد أحد العقلاء،
- وحينما تقرأ هذه الكلمة على صفحة اللبنة، فلا تغفل عن أمر صانعها،
 - وكيف لا تشغل خاطرك بخالق كل هذه المخلوقات الظاهرة في الكون؟
 - وإذا رأيت صنيعةً، فتنبّه إلى صانعه، وقس الصانع بصنعه،
 - فإنك لاتعاملُ لك إلا مع الصانع عند النفس الأخير الذي لا مهرب منه للإنسان،
- ٧٠ -** فتوجه إليه - وحده - بوجه المحبة، واطلب منه أن يختم عملك بالسعادة.

رفع الأيدي بالمناجاة لمساعدة المحتاجين

- يا إلهي! لقد كنا طلقاء من صورة الوجود، كما كنا أحراراً من خوف الفناء،
- ففى البداية خلقتنا من العدم، وقيدتنا بقيد الماء والطين،
- وخلصتنا من الضعف والعجز، وأوصلتنا من الجهل إلى العلم،
- وأرسلت إلينا كتاباً مبيناً، خاطبتنا - فيه - بالأمر والنهي،
- ٧٥ - فخلطنا بين الحسن والقبيح، وأفرطنا تارة وفرطنا أخرى،
- ونادراً ما سلكنا سبيل الأوامر، وكنا نغضى فى طريق النواهي،
- ومع ذلك لم تتخلّ عن دستور العناية، ولم تحجب عنا نور الهداية،
- وما جدوى ذلك النور الذى أقتبسه منك - دون حجاب - إذا لم يكن هنا جهادٌ منا؟
- وها نحن فى اضطراب بسبب عدم جهادنا، فامنحنا التوفيق فى السعى لنسعى،
- ٨٠ - وإذا كان العالم غريقاً - فى ذنوبه - مثل الجاهل، فما الفرق إذن بين العلم والجهل؟

- فلا تضيق علينا طريق العمل الصالح، بسبب مكر النفس
الأمارة بالسوء،
- وافتح لنا طريقًا للرحمة في ذلك الضيق، وتلك الأهات
التي نحن فيها،
- وادعنا إلى بلاط حضرتك من ذلك الطريق، وأنخرجنا -
من هذه الدنيا - على الإيمان.

تخصيص المناجاة للمناظم. دون عون المشارك والمساهم

- أنا ذلك الطائر الذى حبوبك شركه، وطلسمك تعويذة
خوفه،

٨٥ - وأنت الذى هيات لى الأسباب، وفتحت أبواب النعمة
أمامى،

- وكرمتنى بسعادة الخدمة، ورفعت رأسى بتوفيق السجود،
- وجعلت جيبى بلون الإثم فى طريق (عبادتك)، وكحلت
عينى المبصرة (بنورك)،

- وأطلقت لسانى بشكرك، ومنحت قلبى لذة ذكرك،
- ووضعت فى فمى لسانى، لقمة سائغة بالحلاوة والدسامة،
٩٠ - فلا هو بالذى تسحقه الأسنان، ولا بالذى يلحقه ألم
الحلق أثناء الطعام،

- فامنحنا الشكر على ذلك الحلو الكلام، وحلّ عملى،
وخلصه من المرارة،

- ولا تعود لسانى سيئ القول، ولا تجعله مصدر خسارتى،
- ولو نذت كلمة خاطئة من قلمى، يقع بسببها الاضطراب،
- فاصفح بعفوك عن خطئى، ولا تلقِ بى فى ابتلاء الإغراء

مثل قلمى،

٩٥ - فإنى نبته تعهدتها يد وفائك، فجعلتها تنمو من الماء
والطين،

- فرأسى تميل كل صوب بسبب الهوى، إلا أن قدمى راسخة
فى ثرى حيك،

- والطين الذى يغوص فيه قدمى فى ساحة حيك، خير
عندى من ذلك الورد الذى لا ينم عن لونك ورائحتك،

- فاجعلنى كبرعم ذى قلب واحد فى هذا البستان، واجعلنى
كالشقائق موسوماً بجرح واحد،

- فلا يتحقق المراد فى هذا الطريق إلا بقلب واحد، أما
وجود القلبين فيؤدى إلى عدم تحقيق المراد،

١٠٠ - فإن الفستقة ذات الفلقة الواحدة لا ترى كثيراً من أذى
السندان مثل اللوزة ذات الفلقتين،

- وعندما تحمل السنبلة مائة حبة فى صدرها، يُشهر سيف
فوق رأس كل حبة،

- وعندما تكون البرعمة واحدة القلب، تنجو من
الأشواك، وتفلت من الأذى مع وجود آلاف الخناجر،

- فلو أن ذنوبى قد تجاوزت الحد، فإن إحسانك يفوقها
آلاف المرات،

- ولو أنها بلغت مائتى كومة، فإنك تستطيع أن تحرقها

ببرق آهتي،

١٠٥ - ولو سودت مائتي دقتر بالعصيان، فإنك تستطيع أن

تمحوها بدموع عيني الغزيرة،

- وهأنذا الآن أسكب الدم من أهدابي، من جرّاء متوردة

الوجه، كنت قد نظرت بعين الطمع إليها،

- وإني أغسل طيف وجهها من عيني، ولهذا السبب

تنساب الدموع قانيةً على وجهي،

- فمع أن النظر قد هوى بي إلى الوضاعة، فإن الدمع قد

أعاد العزة إلى وجه عملي،

- فعيناي نهران من الندم، وهذا هو عزّي وشرفي إلى يوم

القيامة،

١١٠ - علىّ أحقق نفعاً بهذه الوسيلة، فبلغ سلامي إلى الرسول

(صلى الله عليه وسلم).

فى وصف سيّد المخلوقات. وإمام الكائنات، عليه أفضل الصلاة والسلام

- عندما توجّ القلم (الأزلى) اسم محمد (صلى الله عليه وسلم)، جعل من ميمه (الأزلى) حلقة لرقبته، ومن الأخرى حلقة لخصره،
- وبفضل هذا الاسم مُحى لوح العدم، وظهرت الملوك والملائكة من حلقة ميمه،
- وحاشا لله أن يستطيع العقل، بكل ماله من إدراك، أن يقف على سرّ (حائه).
- فقد أضاءت (حاؤه) هذا الدير ذا جهات الدنيا الست، والروضة الثامنة من الجنات الثمانى،
- ١١٥ - وعندما زينَ القدم بخلخال (دّاله)، توالى أسماء بقية الأنبياء فى عقبه،
- فياله من اسم ذلك الذى لم يسبقه اسم آخر فى ديوان الوجود،
- وحينما يترنم لسانى باسمه، يفعم قلبى وروحي باللذة،
- فإن كان هذا هو شأن الاسم، فما بالك بالمسمى، إنه أكثر المخلوقات تعظيما،

- فقد كرم الله بنى آدم على المخلوقات، وجعله - عليه السلام - أكثر الخلق تكريمًا،

١٢٠ - ومنحه الزعامة على الزعماء، وبوّه القيادة على ركب الأنبياء،

- فعندما خطا آدم فى طريق الوجود، تنفّسَ بمحبّة وجه صباحه المزدان،

- ومالم يُفتح الطريق لجوده، فأتى لسفينته نوح أن تصل إلى "الجودى"؟

- وتنسم الخليل منه نسيماً، جعل النار عليه بهيجة كالستان،

- وبشر المسيح بمقدمه، والتمس الكليم قبساً من نوره،

١٢٥ - ووصل جاهه من كنعان إلى مصر، وكان يوسف عبداً يباع فيها،

- وسعد صالح مع ناقته بذكرى محمله فى ذلك الوادى الذى كانت ناقته ترعى فيه،

- فهو سروةٌ بأسقة من بستان الوفاء، و"تدرج" مزدانٌ من حديقة الاصطفاء،

- فَمَدُّهُ عمادُ تُبَختر الفلك، وشفته أساس "يحيى العظام"،

- تعلو قدّه مظلة من السحاب، كأنها القبة الذهبية فوق شمس رأسه،

١٣٠ - فعندما وجّه سهم الإشارة من سبّابته ذات البشارة

المعجزة إلى مجنّ القمر،

- صارت حلقة ميم القمر نونين، وأحال سهمه الأربعين
خمسيتين^(١)،

- حقاً! عندما كان ظهر يده للقلم^(٢)، فإنه خطّ بسبّابته
شقّاً على صفحة القمر،

- فما كان يكتب، ولكنه بادر بالخط بقلم النسخ على
التوراة والإنجيل،

- وقد تحرّر سروه المختال من الظل، فلتستظل الدنيا في
كتف سروه،

١٣٥ - فمتزلته كانت أعلى من الظل، فاستظلت به الأرض
والسماء،

- وكان أصل جسده من الروح الطاهر، وما شاهد أحدٌ
ظلاً للروح على الأرض،

- وصارت السماء مثل الأرض تابعين له، ولهذا خراً على
قدمه كالظل،

[١] يعنى بالأربعين حرف الميم؛ لأنها تساوى أربعين في حساب الجمل، كما يعنى
بالخمسيتين: نونين، لأن النون الواحدة في حساب الجمل تساوى خمسين، ومعنى
الشطر الثانى: أن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام شقّ القمر الشبيه بالميم إلى
هلالين يشبهان النونين

[٢] إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أمياً.

- وقد جرحت شفسته الياقوتية بحجر من الأعداء، فحطم
ظهورهم بحفنة من التراب،
- ومع أنه أصاب عين كل كافر بالعمى، فقد أضاءت به
عين الإسلام، وكأنه الإثم،
- ١٤٠ - وكان فمه علبة مليئة بالدر، فصارت علبة الدر شبيهة
بعلبة المرجان^(١)،
- وكان ديناراً من الحلم والأدب، فجاء ذلك الحجر محكماً
لاختبار ديناره،
- ولما كان ذلك الحجر الثقيل معياراً له، فإنه لم يظهر إلا
كامل العيار،
- ولقد كان عمله تشييد جدار الإيمان، فصار بأربعة جدران
بخلفائه الأربعة،
- فأين ذلك الشخص الذى يكابد الألم فى طريق الدين،
فإنه سيجد لكل داء دواء،
- ١٤٥ - فليكن ذلك الألم علاجاً لروح الجامى، وليكن قلبه
راعياً - على الدوام - لتلك الأحزان.

[١] يشير بعلبة الدر إلى فمه عليه السلام قبل كسر سنّه، أما علبة المرجان فكناية عن فمه صلى الله عليه وسلم بعد أن كسر سنّه.

فى معراج حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم

- فى ليلة هى دىاجة صباح الحظّ، أكثر من ألوان السعادة المتنامية،
- تشبهها ليلة القدر فى منزلتها، وليلة اكتمال البدر مقتبسة من نورها،
- يخجل سواد طرّتها الحور، بياض غرّتها «نور على نور»،
- وقد مشط نسيمها السنبّل المجعد، وأحال هواؤها دموع الندى حبات،
- ١٥٠ - وأغلق الفلك الدوّار أبواب الإدبار على الدنيا بمسار الثوابت،
- واستراح فيها الذئب والشاه، وسكنت المها إلى الأسد وأنست إليه،
- فشَفَّ الطرب باسمه - من تلك الليلة - كالسَّحر، ونهار الشّدة فى فرارٍ منها طوال الليل،
- وفى هذه الليلة، فإن مصباح أهل البصيرة (صلّى الله عليه وسلم)، الجدير بالثناء من الخليفة،

- احتجب عن الكفار مثل السعادة، فى بيت أم هانىء،
- ١٥٥ - وَاَتَكَأْ بِكَتْفِهِ عَلَى سَاحَةِ الْأَرْضِ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْأَرْضِ
مَهْدًا لِرُوحِهِ الرَّقِيقَةِ،
- فقلبه يقظ وعينه فى نوم عذب، وما رأت عين الحظ مثل
هذا النوم فى الرؤيا،
- وفجأة دخل عليه الناموس الأكبر، بسرعة تفوق هذا
الطاووس الأخضر^(١)
- وَرَبَّتْ عَلَيْهِ قَائِلًا: «انهض أيها السيد، فإن نومك الليلة
قد هبأ لك السعادة،
- واحمل إلى الخارج متاع وجودك من هذا المضجع زمنا،
فإنك سعادة الدنيا، ومن الأفضل للسعادة أن تكون
يقظة،
- ١٦٠ - إن مقصدي هو أن أحملك إلى طريق العرش، وقد
أحضرت البراق السريع من أجل ذلك،
- فهو ينساب على الأرض كالجواد السريع، ويسبح فى
الهواء كطائر «الهما» السعيد^(٢)،

[١] إشارة إلى السماء.

[٢] هو طائر البلع: اسم طائر خرافى كل من يظله يصير ملكاً.

المعجم الفارسى الكبير. الدكتور إبراهيم الاسوقى شتا.

ج ٢ ص - ٣١٩٩ - القاهرة.

- ويطوف بالأفلاك كعقل الفيلسوف، ويطوى الدنيا كفكر
المهندس،

- ما امتلكت يدُ إنسانٍ عنانه، وما لامست قدم بشر ركبانه،
- كأنه القلب الخالي من عشق الحسان، لم يكابد فشذه
أذى جرح،

١٦٥ - فلو كان يلزمه مزودًا للطعام، لجعل أمر - الصعود إلى
- السماء شاغله،

- وقد استراح ظهره الرقيق من ألم السَّرج، وما عانى ظهر
سرجه الأذى من أحد،

- ولما اختال عليه السلام من بيته متجها إلى بيت السَّرج،
- سبَّحت ملائكة السماء بقولها: «سبحان الذي أسرى
بعبدته».

- وسكَّ ذلك البراق السريع بحافره العملة الشبيهة
بالدراهم من مكة إلى الأقصى،

١٧٠ - وفي نصف لحظة بل أقل، دقَّ بحلقة حافره حلقة باب
المسجد الأقصى،

- وصار النبي عليه السلام إمامًا للأنبياء في ذلك المسجد،
وأصبح قدوةً للسابقين،

- وصعد من هناك إلى ذلك السرادق الفيروزي^(١)،
فأحاط القمر به وكأنه الهالة حوله،
- فخطّ عليه السلام على جبينه وسم العبودية، ففاز من
تلك اللحظة باسم التمام،
- واشتد سيره من هناك إلى أعلى، ساكبًا الجود على مفرق
رأس عطار،
- ١٧٥ -** وقصد الزهرة من هناك، فتعلقت الزهرة بذيل وفائه،
- وأحضر الفلك الرابع الإبريق، لكي يغسل قدمه من
علائق الأرض،
- وعندما خطا براقه على الفلك الخامس، أخذ المريخ حظه
من ياقوته العذب،
- ونثر الدرّ على المشتري من ياقوت شفته، فامتلات حفته
بالجواهر كالصندوق،
- وعندما وطئت قدماء السماء السابعة، قام زحل بحل كل
مشكلة عنده
- ١٨٠ -** ومن هناك اتخذ من القصر الثامن مسكنًا، فاستضاءت
عيون الثوابت منه،

[١] إشارة إلى السماء.

- وفتحت بنات نعش والثريا أفواهها ومدحته بنظمها
ونثرها،

- وأخذ النسر الطائر يطوف حوله كالفراشة، عشقًا لشمع
وجهه،

- وهوى النسر كالظل تحت قدمه، شوقًا لسروره الجذاب،
- وعندما صعد على كوكب الأطلس، ألقى بأطلسه تحت
قدمه،

١٨٥ - وعندما شق طريقه من هناك إلى سدره المنتهى، وهن
جناح جبريل عن الطيران،

- فوثب إسرافيل من مكمنه، وجعل الرفرف هودجًا
للاحتفاء به،

- وتشرف الرفرف بوجوده، وسرعان ما استقبله العرش من
يد الرفرف،

- وترك الجسد كالحرقه في يد العرش، ورفع علم التجرد
على اللامكان،

- وحملوه يدًا بيد كالوردة من إيوان الدنيا الوضعيع إلى
ذلك البلاط المقدس،

١٩٠ - وخلّص خذعة الجهات من أبوابها الستة، وعبر بمركب
المكان من الضيق،

- فوجد مكاناً خالياً من المكان، غير مسموح لجسد إنسان
أو روحه بالوجود هناك،

- فمحا القدمَ صدىً للحدث عن روحه، ومحا الوجوب
عنه صفة الإمكان،

- وبقي مع الواحد محرراً من قيد العدد، بعيداً عن
الكثرة، مبرأ من القلة،

- ورأى ما هو خارج نطاق الرؤية، فلا تسلنا عن كيفية
ذلك،

١٩٥ - ولا يتسع المجال هناك للكم أو کیف، فأمسك لسانك
عن القلة والزيادة،

- فقد سمع في ذلك الوقت كلاماً بغير صوت، كله معانٍ
في معانٍ، وأسرار في أسرار،

- لا علم به للقم أو اللسان، ولا يصاحبه النطق أو البيان،
- تعجز أذن الروح عن إدراكه، ويقصر إصبع يد القلب
عن بيانه،

- تضيق ثياب الفهم على قوامه الفاره، ويعرج جواد الوهم
في صحرائه،

٢٠٠ - فينبغي كفّ اللسان عن الخوض في هذا الحديث، فإنه
أسمى من القول والسمع،

- فلا تتجاوز حدك يا جامي، واتجُ بنفسك من هذا البحر
المهلك للروح،
- ولا تنسِ بينت شفةٍ في هذا المشهد، واختتم الكلام،
والله أعلم.

ارتداء ثياب التضرع. والثابرة فى اقتباس الشفاعة

- لقد فاضت أرواح الخلائق من فراقك، " فترحم يا نبيّ الله ترحم "،
- ألسـت فى النهاية رحمة للعالمين؟ فلماذا أنت غير آبه بالمحرومين؟
- ٢٠٥ - وانهض - أيها الشقائق النّدية - من الثرى، فحتّام نومك كالنرجس؟
- وأطلّ برأسك من بُردك اليماني، فطلعتك صباح الحياة،
- وأحلّ ليل أحزاننا نهاراً، واجعل نهارنا مباركاً ببركة وجهك،
- وارْتَدِ ثوباً معبراً، وضع على رأسك عمامة كافورية،
- واجعل الجداول تسترسل من رأسك، وألقِ بظلك تحت سروك الباسق،
- ٢١٠ - والبس نعليك من أديم الطائف، واجعل من خيوط أرواحنا أربطة لها،
- فقد جعلت خلائق الدنيا عيونها بساطاً لطريقك، وهم يرغبون فى تقبيل قدمك كبساط السعادة،

- فطأً بقدمك ساحة الحرم من حجرتك، وضع قدمك
على مفارق مقبلى طريقك،

- ومد يد العون للمتعثرين، وكن أنيساً للعاشقين،

- فمع أننا غرقنا فى بحار الذنوب، وسقطنا على تراب
الطريق بشفاه جافة،

٢١٥ - فإنك سحاب الرحمة، ومن الخير أن تلقى نظرة على
الظمأى فى بعض الأحيان،

- فما أطيبه وقتا ذلك الذى وصلنا فيه إليك، وكنسنا
بأعيننا غبار حيك،

- وسجدنا سجود الشكر فى مسجدك، وجعلنا من أرواحنا
فراشاً لمصباحك،

- وسلكنا الطريق إلى منبرك، وذهبتنا قوائمه بصفرة
وجوهنا،

- وحققنا أمانينا بالسجود فى محرابك، وغسلنا موطئ
أقدامك بدموع أعيتنا،

٢٢٠ - ونصبنا هاماتنا أمام كل عمود، وطلبنا - من الله - مقام
الصادقين،

- وأضر منا النار فى قلوبنا بنفوس راضية من جرح الرغبة
إليك لتكون قناديل لك،

- والآن، لو لم يكن جسدى تراباً لذلك الحرم، فإن روحى
- بحمد الله - مقيمة هناك،

- وقد تخلفنا بسبب نفسنا العنيدة، فانظر إلى هؤلاء
العاجزين واشملهم بالرحمة،

- ومالم تشملنا بعون من لطفك، فلن يتأتى منا أى عمل،

٢٢٥ - إن القضاء يلقي بنا إليك من الطريق، فنستحلفك أن
تطلب من الله،

- أن يهبنى حياةً عامرة باليقين، وأن يثبتنى فى أمور الدين،

- وألا يريق ماء وجوهنا بدخول النار، عندما يأتى هول
يوم القيامة،

- وأن يمنحك الإذن بالشفاعة لنا، مع كل مانحن فيه من ضلال،

- فتصير كالصولجان المعوج الرأس، قائلاً فى ساحة
الشفاعة: "أمتى"،

٢٣٠ - وأن يحظى عمل الجامى - المتطفل على الآخرين -
بالكمال، بحسن اهتمامك.

في التبرك بذكر عبيد الله أحرار شيخ الجامي ومرشده

- إن كتاب الفقر هو دياجة الصدق، وهو ماخطه سنٌ قلم مرشدنا،
- ولم يخط أحدٌ من الكتاب خطأ بديعاً على صفحة صدور العظماء مثله،
- وإذا دخل الفقر في رداء الملك، فيكون قد جاء بتدبير من عبيد الله ٥
- فالذي يتعرف عبيد الله بلطفه عليه بالفقر، يرتدى حلة ولو كان من لابسى الخرق،
- ٢٣٥ - ولكل إنسان علامةٌ من فقره؛ إذ يجزّ رداء السيادة بأقدامه،
- والدنيا مزرعةٌ في نظرة، لا يريد منها إلا الزراعة،
- ومن تلك الحبوب التي خرج بها آدم من بستان الجنة إلى هذا الشرك على غير مايهوى،
- قد زرع ألف مزرعة بالأرض، لتكن زاد الرحيل في طريق الجنة،

- فهو يبذر الحبوب فى مزرعة الدنيا، ويجنى فى عالم
الآخرة مخازن (الحسنات)،

٢٤٠ - فالدنيا حفنة تراب أمام همته، وأى خوفٍ من حفنة
ترابٍ فى الطريق؟

- وأنى لذرةٍ من حفنة التراب التى يراها فى الطريق أن
تستقرّ على ثوبه؟

- وحتى قيصر الروم وفغفور الصين، متطفلان حول حصاد
محصوله،

- وحيثما يقيم مشروعًا للزراعة، فإنه يقنع بالآبقار
الحقيقية،

- ولو وافقت همته، لأصبحت بقرة الأرض رفيقة لثور
السما (فى محراثه) بلا مقابل،

٢٤٥ - وأفضال الله عليه لا تُحصى فى حصاد محصوله، فإنه

يأخذ البقرة من برج الثور، ويأخذ من السماء عجلتها،

- وتأمل السماء وما فيها من الكواكب، إنها أشبه ما تكون
بغربال حبوب محصوله،

- وعندما تتأكد من فلاحته، فكأنما هو يشبه الروح
الأعظم،

- وسواء كان التراب مركبًا أو بسيطًا، فإن فيض إحسانه

يغمره كله،

- وأى عشب يحظى بعطائه، يتحول كماله من القوة إلى الفعل،

٢٥٠ - وأين كمال الروح الأعظم من هذا، وهل يعدو هذا المدح أن يكون ذمًا له؟

- فمقام السيد أعلى من التصور، وخارج نطاق التقرير والبيان،

- فقلبه بحر الأسرار الإلهية، وقطرة منه تغمر ما فى الأرض والسماء،

- فالقطرة التى تبدو منه، كالبحر المتلاطم الأمواج الذى يموج بالحركة،

- وعندما يجلس للمراقبة مغمض العينين فإنه يغمض عين القلب عن كلا الدارين،

٢٥٥ - ويشاهد الواحد الذى لا تقيده الأحدية، ولا يدخل فى ضيق القلة،

- فهو الذى بدا فى كل ما هو مرتفع ومنخفض، وإذا كان كثيراً أو قليلاً فإنه هو،

- وأفنى نفسه فى وجوده، وأغلق عين الوهم عن الثنائية،

- فعندما تتلاشى القطرة فى البحر، فكيف يمكن تمييزها من

البحر بعد ذلك؟

- فما أطيب أولئك الذين خرّوا بجباهم على ترابه،
وجعلوا من قلوبهم وأورااحهم رباطاً لأهداب سرجه،
٢٦٠ - فالدنيا عامرةٌ بفيض إحسانه، وجميع أتباعه غرقى نور
الفناء فى ظله،

- فلا ابتعد ظله عن الدنيا، ولا أظلمت عين الأيام
برحيله،

- ولتضاعف سنّى عمر عبيد الله أحرار - ملائكى السيرة
- أكثر من دوران الفلك،

- وبصفة خاصة عمر ابنه المشهورين^(١)، ولتكن أخلاقهما
على نسق أخلاقه الكريمة،

- "فبهم يحيى رسوم الفضل والجود"، فى هذا القصر
الأخضر المكلّل بالذهب^(٢)،

٢٦٥ - ولتكن الدنيا مرآة لمرادهما، وليكن نور القِدَم الإلهى
مشهودهما فيها.

[١] يدعو الجامى فى هذا البيت لابنى عبيد الله أحرار وهما: خواجه محمد، وخواجه يحيى.
[٢] إشارة إلى الدنيا.

يقول في مدح السلطان حسين:

- إن الدنيا بأسرها، أرواحها وأجسامها، بمثابة شخص اسمه العالم،
- وقد تحدّد الإنسان في هذا العالم كالعين المبصرة،
- والذي يشبهه إنسان العين في هذا العالم هو السلطان حسين فتوة الدنيا،
- فعين الإنسانية مبصرة به تحت سقف هذا الطاق المنحنى^(١)،
- ٢٧٠ - فما أسعد العين التي نعمت بالنظر إليه، إنها لم تحظ بمجرد النظر، بل بالقوة،
- فللفلك مائة عين في طريقه، ليجعل من عينه مقاماً له،
- وعين الدنيا مضيئة به، وأصبح تراب آدم روضة من رائحته،
- وكأنه يوسف - في جمال صورته ولطف خلقه دون مناقشة - في هذه المصر التي نيلها السماء،
- والكرم عادة قديمة متوارثة فيه، "فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم"،
- ٢٧٥ - وإنه خليق بأن يجعل الفلك العجوز^(١) يعقوباً له،

[١] يعنى بذلك: الدنيا.

لشدة حسنه(٢)

- وقد جمع بحر العطاء فى راحته، وتدفق نهر من رأس
كل إصبع فيها،

- ومن كل نهر اخضرت مائتا مزرعة بالأمل فى كل
موطن،

- وزمجر السحاب وأزبد البحر من راحة يده؛ لأنها تتفوق
عليهما،

- وبدت ومضة من سيفه بوهج نوره، يجعل الدنيا بأسرها
مضيئة كالشمس،

٢٨٠ - ومع أن البرق لا يدوم أكثر من لحظتين، فإن هذا الدوام
لا ينقطع عن سيفه لحظة،

- فدوامه قناء للظلمات؛ إذ لا يجتمع الضياء مع الظلام،

- ومن جرّاء عدله، فإن الصيد يتخذ من النمر النائم فراشاً
له وقت النوم فى المساء،

- وعندما ينهك الذئب من طواف الليل، فإن الشاة تجعل
من مؤخرتها وسادة له،

- وقد أصبحت مخالب الصقر حلقة للطيور السريعة

[١] إشارة إلى السماء.

[٢] أى يجعل السماء محبة له ولها به، كما أحب يعقوب يوسف.

الطيران، جلبًا للمحبة،

- ٢٨٥ - ولو اشتبكت قرون الوعل فى أغصان أشجار الغابة،
- لقام الأسد الهصور بتخليصها من الأغصان المتشابكة،
ولحررها من قيدها بقبضته،
- وقد تحرر مكنن الأشرار المغامرين من الخوف،
- فلو أن أحد الأشخاص كان يحمل طستًا من الذهب
كالشمس المضيئة من المشرق إلى المغرب،
- ما تجرأ أى عارٍ أن يلقى نظرة عابرة فى طست ذهبه ورعًا
وتقوى،
٢٩٠ - فحيثما تبسم عدله كالصباح، حمل الظلم متاعه من
ذلك المكان ورحل كالظلام،
- وحيثما توهج قهره كالبرق، أحرق دنيا بأكملها بقبسٍ منه،
- فىا إلهى! بحرمة الشيوخ الشرفاء! ومادامت السماء
مظلةً، والأرض عرشًا،
- أن تجعل عرش الملك تحت أقدامه، وتجعل مظلة " ظل
الله " على مفرقه،
- وتجعل السماء تتملق مظلته، والأرض مشغولةً بتقبيل
عرشه،

- ٢٩٥ - وليعبر العالم الخرب بأولاده الكرام حتى نفخة الصور،
 - وبصفة خاصة ذلك الذى أطاعه الفلك، وهو تاج
 (الزمان) وأول اسمه (بديع)،
 - ومادام قد شرف العجم باسمه، فليكن معرفًا بتعريف
 العرب^(١)
 - فلا امحى هذا الاسم الطاهر من صفحة الوجود،
 مادامت فى الدنيا جبالها ووهادها،
 - والآخر هو الأمير المظفر بالخط، والذى أطاعه العرش
 والتاج منذ طفولته،
 ٣٠٠ - الذى حين رأى الفلك جاهه واحترامه، تمنى أن يخط
 اسمه،
 - فى هذا (الميدان) الخالى من الألم، وملا الفلك طبق
 الخالى بالفرح والبهجة،
 - فلتشرب فى (محفله) كأس شراب ذهبية، وليكن قلبه
 مفعماً بالسرور دائماً كاسمه^(٢)

[١] وردت كلمة (زمان) فى الفارسية بدون تعريف، ثم طلب الجامى أن تسبقها أداة
 التعريف العربية، وهى الألف واللام فتكون (الزمان) والمراد بالاسم هنا هو: بديع
 الزمان.

[٢] درين ميدان كه بادا خالى از درد: فلك طاس تهى را بر فرح كرد
 زيزمش خوريكى زرين قدح باد: دلش جون جام دايم بر فرح باد
 وقد ذكر الجامى اسم "مظفر حسين" =

فى بيان أن الجمال والعشق طائران طارا من عُشِّ الوحدة ونسكننا فى أغصان مظاهر الكثرة

- فى تلك الخلوة، التى لم يكن فيها "للوجود" علامة،
وكان العالم محتجباً فى زاوية العدم،
- كان وجوداً منزهاً عن الشريك، بعيداً عن أقاويلنا وأقاويلك،
- ٣٠٥ - فهو جمال مُبرأ من قيد المظاهر، يتجلى بنوره على ذاته،
- كأنه عروس بهيجة فى حلة الغيب، ذاتها طاهرة من
تهمة العيب،
- لم تتجلَّ فى المرآة، ولم تصفَّ أسنان المشط ذوائبها،
- ولم تفصل الصَّبَّ شعرةً من طررها، ولم ترَّ عينها غبار
الكحل،

= فى هذين البيتين على سبيل المثال بالمعنيات التى كان يستخدمها فى كتاباته، فهو يقول:

برين ميدان: يعنى فى كلمة (ميدان)
با (دا) خالى: أى أننا نحذف الدال والالف من كلمة ميدان، فتصبح (مين)
طاس تهى: أى كلمة (طاس) بعد حذف الالف فتصبح: (طس)
بر فرح: أى نملأ الكلمات السابقة بكلمة (فرح) فتصبح: (مطر فرح)
ونعود إلى كلمة (مين) فنضيفها إليها فتصبح: (مطر حسين)
رزين قدح: كناية عن نقطة الظاء، ويذا يصبح الاسم هو: (مظفر حسين).
يوسف وزليخا. جامى. تحشيه نقيب أحمد صاحب.
ص ٢٩ - ٤٠ - بيشاور - ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٢ م.

- ولم يصبح السُّنبل جارًّا لوردتها، ولم تعقد خضرتها
إكليلاً على الورد،

٣١٠ - فخذها مبرًّا من كل خطّ وخال، ولم ترَ أيُّ عين غبارًا
منها،

- فهي تترنم بأنغام المحبة بينها وبين نفسها، وتعشق نفسها
بنفسها،

- وطبقًا لشروط الجمال، فإن الوجه الجميل يملُّ الحجاب،
- فإن الوجه الجميل يضيق ذرعًا بالحجاب، فإن أغلقت
عليه الباب أطلَّ من النافذة برأسه،

- فانظر إلى الشقائق فوق الروابي، كيف تبدو نضرةً وقت
الربيع،

٣١٥ - إنها تشق صفحة الطين تحت الأحجار، لتبدى منها
جمالها،

- وحينما يجول بخاطرك معنى ممأسلك في سلك المعانى
النادرة

- ولا تستطيع التحرر من سيطرته، فإنك تبديه قولاً أو
كتابةً،

- ولما كانت تلك هى طبيعة الجمال حيثما كان، فقد نشأت
هذه الحركة من الجمال الأزلى بدءاً،

- فضرب خيمته خارج ملكوت قدسه، وتجلّى على الآفاق

والأنفس؛

٣٢٠ - فأظهر وجهه في كل مرآة، وانتشر منه في كل مكان
حديث،

- إذ جعل من ذرات الدنيا مرايا، وألقى بوجهه في كل منها،
- وأشرق شعاع منه على الملك والملائكة، فدارت رءوسهم
كالفلك،

- وهلل الملائكة مُسَبِّحِينَ، باحثين عن صبح (خمره)، لما
اعتراهم من انتشاء،

- وعلت صيحة (سبحان ذي الملك) من غواصي هذا
البحر، الذين تُعدّ السماء قاريهم،

٣٢٥ - وسقط من ذلك الشعاع قبسٌ على الورد، فانتفضت منها
روح البلبل ولها،

- وأشعلت وجنته الشمع من تلك النار، فأحرقت مائة
فراشة في كل مسكن،

- وسطع من نوره شعاع على الشمس، فأطل " النيلوفر "
برأسه من الماء،

- وزين وجه " ليلي " من سناه؛ فهام " المجنون " بكل شعرة
فيها،

- وجعل شفة " شيرين " تسكب الكلام سكرًا، فخطفت

قلب "ابرويز" وروح "فرهاد" (١)،

٣٣ - وأطل من قميص "قمر كنعان" (٢)، فأهلك روح:
"زليخا"

- وتجلّى جماله فى كل مكان، وتخفى فى معشوقى
الكون،

- فهو المحتجب وراء كل ستار تراه، وعشقه محرك كل
قلب،

- فالقلب يحيا بعشقه، وتسعد الروح شوقاً إليه،

- فالقلب الذى يعشق الحسان الجميلات عاشقٌ له، عرف
ذلك أم جهله،

٣٣٥ - فحاذر أن تقع فى الخطأ وتقول: إن العشق منا ومنه
الجمال (٣)،

- فلأن حسن العشق أمرٌ مرغوب، فقد أطلّ منه وظهر فيك،

[١] إشارة إلى قصة "خسرو وشيرين".

[٢] يعنى بذلك: "يوسف عليه السلام".

[٣] واضح من ترجمة هذه الأبيات تأثر الشاعر بما يذهب إليه ابن عربى فى القول بوحدة
الوجود، فهى قريبة فى معناها من أبياته التى يقول فيها:

كلما أنكر من طلسل	أوربوع أو مفان كلما
وكذا إن قلت هى أو قلت يا	والا إن جاء فيه أو أما
وكذا إن قلت هى أو قلت هو	أوهمو أو من جمعا أو هما
وكذا إن قلت قد أنجد لى	قدر فى شعرتنا أو أتهما
وكذا السحب إذا قلت بكت	وكذا الزهر إذا ما ابتسما =

- فأنت المرأة وهو المزين للمرأة، وأنت المحتجب وهو الظاهر،
- ولو تأملت جيداً لوجدته المرأة أيضاً فليس هو الكثر فحسب، بل إنه الخزانة كذلك،
- ولو أمنت نظرك الثاقب، لوجدت أن كل ماهو حسن ليس إلا انعكاساً لوجهه،
٣٤. - وليس لى شأن فى هذا المجال، وليست أفكارنا إلا عبثاً،
- فالتزم الصمت، فليست لهذه القصة نهاية، ولا يوجد شخص بليغ ليشرحها،
- فخيرٌ لنا أن نتشَبَّثَ بالعشق، فبغير هذا الحديث نحن هباءٌ وعدم.

بأنة الحاجر أو ورق أنجما	= أو أنسادى بحدادة يعموا
أو شمس أو نبات أنجما	أو بدور فى خسرور أقلت
طالعات كشموس أو دما	أو نساء كاعبيات تهد
نكره أو مثله أن تفهما	كلما أنكره مما جرى
أو علت جاء بهارب السما	منه أسرار وأنوار جلت
مثل مالى من شروط العلما	لفؤادى أو فسؤاد من له
أعلمت أن لصدقى قدما	صفة قدسية علوية
واطلب الباطن حتى تعلمما	فاصرف خاطر عن ظاهرها

نخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق. ابن عربى ص ٥، ٦ القاهرة ١٢٨٨ هـ
١٩٦٨ م.

"الشجرة" فى بيان فضيلة العشق، و "غصين" فيهما يتصل بذلك من أسباب نظم الكتاب

- إن القلب الخالى من ألم العشق ليس قلباً، والجسد الذى لا يورقه القلب ليس إلا ماءً وطينا،
- فحول قلبك من العالم صوب مواجيد العشق، فإن عالم العشق عالم لطيف،
- ٣٤٥ - فلا خلا من أحزان العشق قلب آدمى، ولا كان فى العالم قلب بدونه،
- فكن أسير العشق، فإن الفكرة من ذلك هى أنه حرفة كل الواصلين،
- فلا يدير الفلك إلا جنون العشق، والدنيا تغصّ بالفتنة من ضوضائه،
- فكن أسير العشق تصر حُرّاً، واملأ صدرك بأحزانه تصبح سعيداً،
- إن شراب العشق يمنحك الدفء والنشوة، وما عداه تجمّد وأنانية،
- ٣٥٠ - فقد انتعش العاشق بذكره، وذاع صيته بتذكره،

- فلو لم يجتسِ المجنون من هذه الكأس ، ما تذكره أحدٌ
فى العالمين ،
- وقد مضى آلاف العقلاء والحكماء ، بيد أنهم مضوا غرباء
عن العشق ،
- فلم يبقَ لهم اسمٌ ولا أثر ، ولم تحتفظ يدُ الزمان لهم
بقصة ،
- وما أكثر الطيور الجميلة فى الوجود ، أطبقت الخلائق
الشفاه عن ذكرها ،
- ٣٥٥ - وحين يروى أرباب القلوب قصصاً عن العشق ، فإنهم
يذكرون حديث البلبل والفراشة ،
- فعلى الرغم من أنك تجرّب فى الدنيا مائة عمل ، فإن
العشق وحده هو الذى يمنحك الخلاص من نفسك ،
- فلا تُدر وجهك عن العشق ولو كان مجازاً ، فإنه معبرٌ
إلى الحقيقة ،
- فما لم تقرأ الألف والباء على اللوح منذ البداية ، فأنتى
لك أن تقرأ سورة من القرآن ؟

حكاية على سبيل المثال

- سمعت أن مريداً ذهب إلى أحد الشيوخ ليعينه في سلوكه،

٣٦٠ - فقال له: "إذا لم تكن قدمك قد وطئت بعد طريق العشق، فاذهب واعشق، ثم عد إليّ،

- فإنك لن تستطيع تذوق كأس الحقيقة، دونما ارتشافٍ لكأس خمرٍ ظاهرية،

- ولكن ينبغي ألا تتوقف عند المجاز، بل اعبّر بنفسك هذا الجسر سريعاً،

- فإذا أردت وضع المتاع في المنزل، فلا ينبغي أن تقف على "رأس الجسر"،

- فحمدًا لله، أتى منذ وجدت في هذه الدنيا، كنت خفيف السير في طريق العشق،

٣٦٥ - فحين رأت المريية نافجتى بغير مسك، قطعتها بسيف العشق،

- ومنذ نعومة أظافري، غدتني أمي - مع لبنها - بمعاناة العشق،

- ورغم أن شعري الآن بلون اللبن، فإن مذاقه مازال في أعماقي،

- ومادام العشق غير مرتبط بالشيخوخة أو الشباب، فإن سحره يهبّ علىّ يغير انقطاع،

- قائلاً: "يا جامي، مادمت قد شببت في العشق، فكن خفيف الروح، ومُت عاشقاً،

٣٧٠ - وانظم في ميدان العشق قصة تظل أثراً منك في الدنيا،

- وارسم بقلمك المبدع صورة تحلّ محلّ محلك حينما ترحل"

- وحينما طرق هذا النداء من العشق مسمعى، خرج عقلى مرحباً به،

- وربطت منطقة الطاعة على روحى، ووضعت قاعدة جديدة للسحر،

- فلو وهبنى الله التوفيق، وأثمرت نخلتى فاكهة المراد،

٣٧٥ - فيانى أسوق من الإبداع عن حرقه العشق، بحيث يحرق عقل الحكمة ومتاعها

- وأنشر الدخان فى هذا السقف الفيروزجى، وأجعل عيون الكواكب تندى بالدموع،

- وأرفع منزلة الكلام إلى موضع يجعل السماء تهتف لى بالثناء.

جنى باقة ورد من بستان فضائل العشق،
ولفّها بخيط إتمام سبب نظم الكتاب

- الكلام دياجة ديوان العشق، وهو باكورة بستانه،
- وليس للعقل عمل أو حرفة إلا الكلام، وليس للعالم ذكرى إلا به،
- ٣٨٠ - وهكذا يقول العارف أن كل ما فاض في الدنيا، من الجديد والقديم، فاض عن الكلام،
- فقد تنفس الكلام على القلم من الكاف والنون، فخطّ القلم على صفحة الوجود،
- فلما وجدت قاف القلم من تلك الكاف، أطلق القلم سيل الكرم من ينبوعه،
- فكل ما هو موجود في الدنيا - أعلاها وأسفلها - موجود من حركة ذلك السيل،
- وعندما تسوق الشفة لطيفةً بسبب هذه الحركة، وتوجد وردةٌ من روضة المعانى،
- ٣٨٥ - فإن النفس الذى تطلقه يتعلق بأهدابها، ويخرجها تختال من الرياض،

- وتتخذ طريقها صوب بوابة الأذن، فيخرّ العقل فاقد الصواب لمقدمها،
- ويتجه الخاطر لاستقبالها، ويضمها القلب إلى صدره كأنها برعمته،
- فتارة تحمل للشفة ابتسامة الفرح، وأخرى تمطر - من العين - دموع الأسى،
- وتصبح شفاه المحزونين باسمه منها، ومنها تصبح الشفاه الباسمة باكية،
- ٣٩٠ - ومادمت قد أدركت هذه القدرة منه^(١)، فمعاذ الله أن أسحب أذيالي بعيداً عنه،
- وقد جعلني احتراق هذه الخمر هرمًا، فأنا الآن أشغل رأسي بأعمال الشيوخ،
- وأخرج السرّ الدفين من قلبي، وأضحك الدنيا وأبكيها،
- وأنا أتوّج بحلو الكلام الملك الجديد، فقد قدم العهد بقصة: "شيرين وخسرو"،
- وانقضى عهد "ليلي والمجنون"، وأنا الآن أرفع من شأن شخص آخر،
- ٣٩٥ - وأكون طاعمًا للسكر كالبيّغاء من حُسن "يوسف" وعشق "زليخا"،

[١] أى: من الكلام.

- وما دام الله قد سمّاها "أحسن القصص" فإنى سأذكرها
لهذا بأحسن وجه،
- ولأن شاهدها هو القرآن، فإنه لا مجال لتطرق الكذب
إليها،
- فإن الخاطر لا يستريح إلى الكذب، حتى لو تذكره فى
صورة الصواب،
- فليس للشعر زينة إلا الصدق، ولا يتم للقمر جماله إلا
باكتماله،
- - ولهذا فإن الفجر الأول يكون بغير ضياء؛ لأن ادعاء
الضياء منه كذب،
- فإذا تنفّس الصبح الصادق، رفع من الشمس علماً ذهبياً
فوق قبة السماء،
- ولو زينت الكذب بالتصنع، فإن مصباح القلب لا يأخذ
منه نوراً،
- فلماذا تحيك الديباج على القدّ القبيح، والقبيح لا يحسن
بالديباج؟
- فالقبيح لا يجد الحسن بالديباج، ولكن الديباج هو الذى
يقبح،

- ٤٠٥ - فَضَعَ الزينة على الوجنة الحسناء، تزدد بهاءً بها،
- أما إن وضعتها على وجه أسود، فلن ترى العين منه إلا
السَّواد،
- فما كان أحدٌ من المعشوقين مثل يوسف، فقد فاق جماله
كل جمال،
- فكل من لا يعرف له شبيه في الحسن، يسمى يوسف
الثاني،
- وما كان أحد من العاشقين مثل زليخا، فقد فاقت الجميع
بعشقها،
٤١٠ - إذ مارسته من الطفولة حتى الشيخوخة، وداومت عليه
ملكة وفقيرة،
- وحينما تجدد لها عهدُ الشباب مرةً أخرى، بعد الشيخوخة
والعجز والضعف،
- لم تسلك العشق إلا عن طريق الوفاء، عليه ولدت
وعليه عاشت وعليه مضت،
- وعلى الرغم من أن زليخا كانت محبوبه من الدنيا
بأسرها، فإن يوسف كان يفوقها حسنًا،
- وإنى أسوق الحديث في هذا الكتاب عن كليهما، وأنثر
الجواهر بالقلم عن كلي منهما،

٤١٥ - فأسجل كنزاً جديداً من الحكمة فى كل معنى أتناولها فيه،

- وإننى لأطمع إذا قرأ فاضلاً ذات مرة كلمة من كتاب المحبة هذا،

- ألا يعطينى ظهره كما يفعل بالكتاب، وألا يمرّ إصبعه على كلماتى كالقلم،

- وأن يفضّ طرفه عن خطئى، وألا يحمّلنى وزر ما مضى،

- وأن يجتهد قدر طاقته فى الإصلاح، فإن لم يستطع فليستر.

قصة إضاءة شمع جمال يوسف في خلوة الغيب واحتراق فراشة قلب آدم عليه السلام بمشاهدته

- ٤٢٠ - حينما بدأ مفسرو القرآن، وقارئو صحف السماء،
- تاريخ الدنيا، فإنهم حكوا هذا الأمر عن آدم،
- قائلين: "لما أضاء الله عينيه، جلا عليه صورة أولاده،
- ووقفت صفوف الأنبياء في مكان، أمامًا وخلفًا، كل
صف في منزلته،
- واتخذت صفوف الأولياء مكانًا آخر، فوطئت بأقدامها
في مقام التبعية،
٤٢٥ - ومن خلفهم مجموعة يتباهون بتاج عظمة الملك،
- ووقفت بقية الخلائق صفًا صفًا، بالترتيب الحسن والنظام
اللائق
- وحينما نظر آدم إلى ذلك الحشد، وأعاد النظر مرة أخرى
في كل مجموعة،
- بدا يوسف أمام عينيه بدرًا، لا، بل شمس العزة والجاء
في أوجها،

- فهو يتناز عن ذاك الحشد كشمع المجالس، شامخٌ برأسه
بين الجميع،

٤٣٠ - يتلاشى أمام حسنه جمال الحسان، كما يتلاشى ضوء
النجم أمام ضوء الشمس،

- وقد ألقى على كتفيه رداء المحبة، فأضحت مشات
الجماليات فداءً لتراب قدميه،

- فكمال حسنه خارج نطاق الفكر، وأبعد من حدود العقل
المفكر،

- وعلى كتفيه خلعة اللطف الإلهي، وعلى مفرقه تاج
العظمة الملكية،

- وجبينه مطلع صباح السعادة، ومن نور وجته يتحول
مساء الغيب صباح شهادة^(١)،

٤٣٥ - فكل الأنبياء أمامه وخلفه قد تحرروا من ظلام الأجساد،
ورفعت كل الأرواح القدسية الأعلام من كل صوب،
- مسبحة مهللة في ذلك المحراب الذي تعد الشمس
مصباحه،

[١] أي أن شدة ضياء وجهه تجعل عالم الأرواح صوراً مرئية. يقول الثعلبي في قصص
الأنبياء:

قال كعب الأحبار إن الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة (الذرة) فأراه الأنبياء عليهم
السلام نبيا نبيا، وأراه في الحليقة السادسة يوسف متوجاً بتاج الوقار، منتزراً بحلة
الشرف، مرتباً رداء الكرامة، مقمصاً بقميص البهاء ص ١٢١.

- فتعجب آدم من ذلك الجلال والجاه، وقال متعجباً:
- "من ذو حة مَن هذا الغصن يا إلهي؟ وأى عين مضيئة
تحظى بمشاهدته؟
- ٤٤ - ولم أشرق عليه نور السعادة هذا؟ ومن أين له هذا
الجمال والجاه الزائد؟"
- فأتاه الرد: "إنه نور عينيك، ومدخل السرور على قلبك
الحزين،
- فهو غصنٌ من روضة يعقوب، وغزال في صحراء خليل
الله،
- يتجاوز إيوان جاهه السماء، ويكون له عرش مصر،
- كما يكون مثار غيرة حسان الدنيا من شدة الحسن البادي
على وجهه،
- ٤٥ - ويتخذ من وجهك مرآة، فهبه ما في خزانتك"
- قال: "هأنذا قد فتحت باب الإحسان، ومنحت جماله
أربعة دوانق من دوانق الجمال الستة،
- وخصصته بثلاثي حسن هؤلاء الحسان^(١)، وتركت الثلث
الآخر لهم،
- فلو أنه يفتح صحيفة حسنه لتحددى الحسان، لرجحت
كنته على الثلث المخصص لهم جميعاً،

[١] يريد الشاعر أن يقول إن يوسف قد شارك الحسان في الثلث المخصص لهم.

- ثم ضمّه إلى صدره، وباركه من قلبه الخالي من
الأحقاد،

٤٥٠ - وأخبره بحبه له، وطبع قبلةً أبويةً على جبينه،
- فتفتح كالوردة ابتهاجاً بينوته، وترنم كالبلبل لورد
طلعته.

**إحضار عُصْنِ جمال يوسف من مرتع الغيب إلى
رياض الشهادة، ورعايته بماء عين يعقوب
وهوى قلب زليخا**

- يدق كل شخص طبول الوجود بالتناوب فى هذه الدنيا،
- وللحقيقة ظهور فى كل دور من أدوارها، فيمتلئ سمع الكون بصدى أحد الأسماء،
- فلو ظلت الدنيا على نسق واحد، لاحتجبت أنوار كثيرة عنا،
- ٤٥٥ - ولو لم يتوار نور الشمس من السماء، ما تألقت مجموعة النجوم،
- ولو لم يحزم الشتاء متاعه ويرحل عن الخميعة، ما ازدهرت الورود بثوب الربيع،
- ولما شدّ "آدم" رحاله عن هذا المحراب، جلس "شيث" مكانه فيه،
- وحينما رحل، شرع "إدريس" فى تلقين دروس التقديس، فى دار الخداع هذه،
- ولما انتقل "إدريس" إلى السماء، عهد برعاية الدين إلى "نوح"،

٤٦٠ - وحين غرق "نوح" فى طوفان الفناء، فتح هذا الباب
"خليل الله"،

- ولما طعمت الخلائق من مائدة دعوته من كل الآفاق،
عهد إلى "إسحاق" بعد ذلك بذلك الإنفاق،

- وحينما دق باب العدم من هذا الوادى، كبر "يعقوب"
من فوق جبل الهداية،

- ولما اختص "يعقوب" بعده بهذا الأمر، نشر أعلامه من
حدود الشام إلى كنعان،

- ألقى بحمل الإقامة فى كنعان، فكثر ماله وعباله،

٤٦٥ - وأضحت قطعانه من الماعز والخراف أكثر من النمل
والجراد فى ذلك الوادى،

- وظهرت النبوة تلو النبوة، وكأنها المشاعل لتوضيح الرسالة،

- وظهر يوسف فى الصلب الثامن^(١)، فأبقى جماله دنيا
بأسرها فى حسرة منه،

[١] يقول القرطبى فى تفسيره عن إخوة يوسف:

"... روبييل وهو شمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت
خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر هم دان ونفتالى وجاد وأشر، ثم توفيت ليا
فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثنى عشر
رجلا... وقيل فى اسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا،
وكانتا قد وهبتهما ليعقوب وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده، لقول الله
تعالى: "وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ".

تفسير القرطبى، ص ٢٢٥٩. طبعة دار الشعب.

- وقد كان ليعقوب أحد عشر ابناً، عدا يوسف، ولكن يوسف سكن شغاف قلبه،
- فمئذ ولدته أمه، ووجهه يضارع قمر السماء،
- ٤٧٠ -** فهو غصنٌ نبت في روضة القلب، وهلالٌ بزغ في سماء الروح،
- وهو وردة نمت في روضة خليل الله، يليق بها الحسن والرقّة،
- ونجم ارتفع من برج إسحاق، فأضاءت طلعتة وجه الدنيا،
- وواحدة من الشقائق أطلت برأسها من حديقة يعقوب، فكان منها جرحه وبلسمه،
- وأضحى غزالاً عبق الرائحة في كنعان، ويسببه أصبحت صحراء كنعان مثار غيرة «خُتن»،
- ٤٧٥ -** وطالما كانت أمه تنعم بالحياة، فإنها كانت تغسل سكر شفته بلبنها،
- وحين رأت الأيام أن أمه قد احتضته عامين، نفثت سُمّها في طعامها،
- فأضحى درّة يتيمة من بحر الكرم، حرم من عطف أمه، ولازمته دموع اليتم،

- وحينما رأى أبوه حال جوهرة، جعل من صدر أخته
صدقة لهذا الجواهر،

- ووجد طائر روحه الرعاية من عمته، فبنت ريشه وجناحه
بحديقة الحُسن،

٤٨٠ - فهو يمضى بقامته حلو الخطى، تنضح شفته سكر القول،
- وهكذا تعلق قلب عمته به، فلم تقدر على فراقه لحظة
واحدة،

- فكان ينام كل مساء فى حضنها كأنه الروح، وكان شمس
نظرها كل نهار،

- وكان أبوه - هو الآخر - متلهفًا للنظر إلى طلعتة، وكانت
الرغبة للتطلع إلى طلعتة تحيط به من كل صوب،

- ولم يكن بقلبه المهموم شىء سواه، ولم تكن رؤيته لمامًا
لتسكن ما به من ألم،

٤٨٥ - وهكذا فإنه كان يتمنى أن يكون هذا القمر البهيج أمامه
ليلاً ونهاراً،

.. - فقال لأخته: يا من تهتزين على مفرقى، شفقةً وحنانًا،
كأنك شجرة الصفصاف،

- إبنى لم أعد قادرًا على فراق يوسف، فخلصينى من
هجره،

- وابعثني به إلى مكان خلوتي، وأرسله إلى محراب
تضرعي.

- فلما سمعت أخته ما قاله، تظاهرت بتلبية رجائه،

٤٩٠ - ولكنها أعدت حيلة بينها وبين نفسها كي تسترده من
يعقوب مرة أخرى،

- وكان عندها منطقة لإسحاق، قد بليت من تأدية فروض
الله،

- وهي منطقة كانت تنجي كل يد كانت تتمنطق بها من
آفات الدنيا،

- وحينما أدارت وجه يوسف صوب أبيه، ربطت تلك
المنطقة سرًا على وسطه،

- وهكذا، فإنها شددت تلك المنطقة على خصره، دون أن
يشعر بذلك إطلاقًا،

٤٩٥ - وأرسلته إلى يعقوب متمنطقًا بها، ثم صاحت بين
الجميع بأعلى صوتها،

- قائلة: «لقد فقدت تلك المنطقة من بيتنا»، وكانت تتهم
كل شخص بتلك التهمة،

- وكانت تفتش تحت الثوب وتدير وجهها صوب كل
شخص آخر،

- حتى جاء الدور أخيراً على يوسف ففكت المنطقة من فوقٍ خصره سريعاً،

- وفي تلك الأيام فإن كل ذى دين، كان حكم الشرع عليه هو:

٥٠٠ - «كل من يضبط لصاً، يسترقه صاحب المتاع المسروق»^(١)،

- ومرة أخرى، حملته إلى منزلها بالخداع والحيل التي أعدتها،

- وجلست سعيدة مضيئة العين بوجهه، ثم أغمض الأجل عينيها، بعد فترة،

- فسعد خاطر يعقوب به، فما كان يغمض عينيه عن رؤيته،
- وحينما اتخذ يعقوب من يوسف قبلةً له، أشاح بوجهه عن بقية أبنائه

٥٠٥ - فكانت روحه مرتاحة إليه، وعينه مضيئة به،

- وكان كل أمر يشغله بسبب يوسف، وبه كان انتعاشه،

- حقاً! أينما يضيء القمر بهذه الصورة، فلا مجال لسواه،
ولو كانت شمس الضحى،

- فماذا أقول عما كان له من الحُسْن والجمال، فقد فاق

[١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. سورة يوسف، آية (٧٥)

الخور والملائكة!

- لقد كان قمرًا من سماء المعرفة، أضواء الكون والمكان،
- ٥١٠ - وهيئات! فهو ليس بقمر، إنه شمس مضيئة، انعكس شعاع منها على السماء،
- وماذا أقول؟ فأى مجال للشمس؟ إن عينها المضيئة هنا ليست إلا سرابًا،
- فهو نورٌ مقدّس، منزّه عن قيد السبب (ماذا) وكيف، أطلّ برأسه من جلاباب الصورة،
- وما إن استقر ذلك الذى لا شبيه له، على تلك الكيفية، حتى أطلق عليه اسم يوسف تسترًا،
- ومع أن حبه كان مكتونًا بقلب يعقوب، فلو جعل الروح له مقرًا لكان مصيبًا،
- ٥١٥ - أما زُلَيْخَا التى كانت مثار غيرة حور العين، وكانت محتجبة خلف ستار العصمة فى بلاد المغرب،
- فإنها أصبحت أسيرة طيفه فى نومها، دون أن ترى شعاعًا من نور طلعتة،
- ومادامت أحزان العشق تشتد على الغرباء، فإنه لا يكون بعيدًا عن الأقربين.

فى وصف ونسب زليخا التى كان يتحول المغرب
بشروق شمس جمالها مشرقاً. بل كان
يفوقه بألف درجة

- هكذا قال عارف الكلام ووازنه، الذى كان بخزائنه من
الكلام الكنوز،

- إنه : «كان ببلاد المغرب ملك مشهور، دقّ طول الملك
واسمه "طيموس"،

٥٢٠ - وقد اكتملت له كل أسباب الملك، ولم يتبق بقلبه أمنية
لم تتحقق،

- وظلّ الحظ متوجّهاً بمفرقه، وارتفع العرش منزلةً بقدمه،

- وتمنطق الفلك فى خيله بالجوزاء، وربط النصر بقبضة سيفه،

- وكانت له ابنة جميلة تدعى "زليخا"^(١)، كانت سميرته
من بين كل الخلائق،

- لم تكن ابنة، بل كانت نجمة من البرج الملكى، وجوهرًا
مضيئًا من الصندوق الملكى،

[١] لم يرد هذا الاسم فى التوراة أو القرآن، ولكن كتب التفسير ذكرته "راعىل" تارة،
و"زليخا" تارة أخرى، ويبدو أن الشاعر قد اقتبس هذا الاسم من تلك الكتب. تفسير
القرطبي، ص ٤٤٧٨ طبعة دار الشعب.

٥٢٥ - يجلّ وصفها عن مقدرة البيان، وأجرّب الطبع مع خيالها،

- وإني لأهبط من رأسها إلى أخمص قدمها كشعرها،
وأصبح مضاء الضمير من مرآة وجهها،

- وأطلب العون من شفيتها الحلوتين، وأصف ذلك الذى
تحتويه،

- فقامتها نخلة خلقت من الحنان، أطلت برأسها من بستان
الظرف،

- ارتوت من النهر الملكى، واكتسبت نضرتها من سرو
الأنهار،

٥٣٠ - وشعرة فى مفرقها شرك العقلاء، وليس بينها وبين المسك
كبير فرق،

- وقد مشط المشط شعرها بخفة زائدة، وصنع فرقاً لطيفاً
فى منتصفه،

- ينفطر قلب النافجة من هذا المفرق، ويصعب أمر المسك
فى النافجة بسببها،

- وتتدلى طرتها التى تفوح بعير الياسمين، فتلقى بغصن
الورد ظلاً على القدم،

- وكان صغيرتيها هنديان من صانعي الحبال يتأرجحان في
"شمشادها" الباسق^(١)

٥٣٥ - وقد صنع الفلك من جبينها لوحة فضية، ليشرح عليها
درس جمالها،

- فأظهر من جانب لوحها الفضية «نونين»^(٢) مقلوبتين من
المسك الخالص،

- وتحت هاتين «النونين»، «صادان»^(٣) عجبتان خطهما قلم
الأستاذ الماهر،

- وما بين حدّ «نونها» إلى حلقة ميمها^(٤) رسمت أنف
فضية مستقيمة «كالألف»،

- ثم زاد «صفر» الفم على الألف، فضاعف فتنة الدنيا
عشر مرات،

٥٤ - فإذا فكّت عُقدة «ميمها» بأسنانها، بدت «سينها»^(٥)
للعيان من ياقوتها الباسم،

- وقد تفتحت الورود العديدة الألوان في وجهها، فبدأ
شبيهاً بيستان إرم،

[١] شمشاد: اسم شجرة فارسية بأسقة الطول، يستخدمها الشعراء عادة في وصف قوام
المحبوب، وترجمتها العربية: (السُّمسق - المردقوش - العترة).

[٢] يعنى بالنون: حاجبها.

[٣] الصاد: كناية عن عينها، ويعنى بالأستاذ الماهر: الخالق سبحانه وتعالى.

[٤] حلقة الميم: دائرة فمها.

[٥] السين: كناية عن أسنانها.

- وعلى كل جانب من وجهها أثر خال، كأنه أطفال
الزنوج فى إحدى الرياض،
- أما ذقنها ففضة بغير زكاة، بها بثر ملئ بماء الحياة،
- ولو يتجول العاقل بنظره أسفل ذقنها، لوجد قطرة من
ذلك البثر قد التفت حولها،
- ٥٤٥** - ولن يجد هناك راحة قلبه، فإلى جانب البثر سيجد
دوامة،
- أما بياض رقبتها فأشدّ صفاءً من العاج، مما يجعل
الغزلان تحمل فوق رقابها الخراج إليها،
- ويسخر صدرها وكتفها من الياسمين، ويجعلان الورد
يتخذ من الجيب قميصاً،
- وثدياها قبتان من نور، أو كأنهما فقاعتان فى عين
كافور،
- وكأنهما رمانتان نضرتان، نبتتا من غصن واحد، لم
تجرؤ يدُ الأمل على لمسهما،
- ٥٥٠** - وفى أحضانها كثر فضى من ساعديها، يتضاءل عيار
الفضة أمامه،
- وقد ملئت قلوب الصالحين بالدعاء - ليكون تعويذا لتلك
الصافية صفاء الدرّ،

- وجعلت ملائكيات الوجوه من أرواحهن سذاباً لها، ومن
حبل أرواحهن رباطاً لتعويذتها،

- وقد ملأت أكمام ساعديها بالفضة، وأباحتها على عادة
الملوك المتوجين،

- ففى راحتها راحة كل مبتلى؛ لأنها بلسم لمن جرح منه
الفؤاد،

٥٥٥ - واتخذت من أصابع يدها أقلاماً، كتبت بها كلمة الحب
على صفحات القلوب،

- ومن ينظر إلى أظافرها، يُخَيَّلُ إليه أنهم زادوا على كل
بدر هلالاً،

- وقد أطبقت على القمر بأصابعها، وألحقت به الأذى
بقبضتها القوية،

- وخصرها كالشعرة، بل إنه أقل من الشعرة، ويخشى
على هذا الخصر من الشعرة لنحالته،

- فهي لاتستطيع أن تتمنطق بالشعرة، خشية أن يتمزق
خصرها منها،

٥٦٠ - وبطنها تشبه صفحة القاقم^(١)، قطعت المربية نافجتها
بالرقة،

[٢] القاقم: حيوان يتميز بجودة قرانه الشديد البياض.

- وكفلها جبل ولكنه من الفضة الخالصة، وكأنه الجبل الذي سقط أسفل خصرها،
- ورغم تلك النعومة، فلو أن قبضة ضغطت عليها لعادت إلى الارتفاع،
- فالتزم الصمت، ولا تتحدث عن الذهب المعصور، وأقبل لتستمع إلى الفضة المعصورة،
- وإنى لن أمضى فى وصفها من أسفل نافجتها إلى أعلى ركبته،

٥٦٥ - فلن تسمح قلعة عصمتها للفكر أن يتجول فى حرمة حرمتها،
 - وإنى أمضى بالكلام عن ساقها، فهى عمود فضى لنمط الجمال،

- فهى، بسم الله، باقة ورد عجيبة، إلا أنها محتجة عن عين كل من حرم من النور،
- وقد أبدت جمالها للمرأة، فدخلت أمامها جاثية على ركبها تأدباً،

- ومن ثم فقد صارت المرأة قرينة لها، لتحظى بقبسٍ من نور وجهها،

٥٧٠ - فكل من يجلس قريناً لها، يرى وجنة السعادة فى تلك المرأة،

- كما أن قدمها ليست أقل من ساقها فى اللطف، وليس هناك من هو ثابت القدم فى اللطف مثلها،
- وهكذا فإنها عندما تمضى مسرعة، فإن قدمها - من عقبها إلى أصابعها - كانت تفيض رقة،
- بحيث إنها لو استقرت على عين العاشق، لامتلاً بطن قدمها بالبثور من دموعه،
- ولا أعرف ما أقوله عن ذهبها وجواهرها، فإن كل ما أقوله فى هذا المجال سيكون قاصراً عن التعبير
- ٥٧٥ - فمن الذى يستطيع أن يصف ذلك الملاك من كثرة ما عليه من الزينة؟ فجمالها زينة للزينة نفسها،
- فعلى رأسها إكليل ملئء بالجواهر، كل جوهرة فيه تعادل دخل إقليم،
- والدرّ والياقوت المتدلّى من أذنّها، كان يتزع برقته الوعى من القلب والروح،
- ولو أنها كانت تفك الجواهر من عنقها، لأصبح ثوبها وحجرها كنزاً مليئاً بالجواهر،
- أما رباط شعرها المرصع الذى كان يربط شعرها من الخلف، فكان يساوى فى قيمته آلاف العقود من الجواهر،
- ٥٨٠ - ومالم تمنح رقتها العون للسّوار، فمن كان يستطيع أن يربطه على يدها بالحيلة؟

- ولا أستطيع أن أحكى أكثر من ذلك عن الذهب، فقد صار خلخالاً ووقع على أقدامها،
- فتارة كانت تجلس متدلة على العرش، متشحة بالديباج الرومى والصينى،
- وتتبختر تارة أخرى فى ساحة القصر، فى ثياب مصرية وشامية مزركشة،
- فما كان يشرق صباح يوم جديد إلا وعلى جسدها ملابس جديدة،
- ٥٨٥ - وما كانت تطل برأسها من فتحة ثوب واحد مرتين، بل كانت تظهر كالقمر كل يوم من برج،
- وكانت قد سحبت أذيالها بعيداً عن تقبيل العظماء لأقدامها، وما كان يحظى بهذه السعادة أحد غير ذيلها،
- وما كانت تأذن لأحد إلا لقمصها، فكانت ترى جسده فى أحضانها،
- فتملك هواها ممن قامتهم كشجر السرو، ووقع فى عشقها أصحاب الوجوه الملائكية،
- وقد وقف أمامها للخدمة - ليلاً ونهاراً - آلاف ممن فى عمرها من بنات الخور،

٥٩٠ - ما جثم على صدرها عبء البتة، ولا وخزت قدميها أبداً
شوكة،

- ولا عَشَقْتُ ولا عُشَقْتُ، وما منحت قلبها ميلاً لتلك
الرغبة، فكانت تنام الليل كترجسة ندية، وتزدهر في
السَّحر كبرعمة باسمه،

- وكانت - تلعب - في صحن منزلها مع فضيات الرقاب
من الصغيرات وكأنهن الغزلان الجميلة،

- فقلبها خال من تقلبات الفلك، وما كان يشغلها من أمور
الدنيا إلا اللعب،

٥٩٥ - وهكذا كانت سعيدة مبتهجة، وكان قلبها بمنأى عن
أحزان العشق،

- فماذا سيصيبها من الدهر، وأى شيء ستلده لها الأيام
الحوامل؟!!

رؤيا زليخا بسيف شمس جمال يوسف للمرة الأولى في غمد المنام، وقتلها بسيف عشقه

- في ليلة بهيجة، كأنها صباح الحياة، حافلة بالسعادة كأيام الشباب،
- وقد سكنت الطيور والأسماء عن الحركة، وجرت الحوادث قدمها في ذيل ثوبها،
- ولم يبق مفتوحاً في هذا البستان الملىء بالمشاهد إلا أعين النجوم،
- ١٠٠ - واختطف سارق الليل عقل العسس، وربط محرك الجرس لسان (جرسه)،
- وأضحت حلقات أذيال الكلاب أطواقاً لها، فضل نباها طريقه في تلك الحلقات،
- وسلّ طائر الليل من ريشه الطويل خنجراً وقطع نايه عن استغاثة الصباح،
- وحينما أبصر الحارس صورة الخشخاش في شرفة القصر الملكي،
- لم تعد عنده قدرة - هو الآخر - على السهر، وأسلمته خواص الخشخاش للنوم،

- ١٠٥ - وتوقف ضارب الطبل عن ضربه، فقد ربطت هجمة
النوم يده على العصا،
- ولم يهلل المؤذن بقوله: (ياحى)، فقد طوى بساط الغفلة
ليل النائمين،
- كانت وليخا، ذات الشفة السكرية الخالصة، قد ملأت
عينها بسكر النوم اللذيذ،
- وقد سحق رأسها جدائل السنبل على الوسادة، ووهب
جسدها لسريرها بيدر الورد،
- واضطرب سنبلها من الوسادة، فرسمت خيوطاً حريرية
على جسمها (الشبيه بالورد)،
- ١١٠ - وكان النوم قد أغمض عينها المبصرة، بيد أنها كانت قد
فتحت من قلبها عينا أخرى،
- وفجأة دخل شاب من بابها، ماذا أقول؟ لا، ليس شاباً،
ولكنه الروح،
- فهو صورة مباركة من عالم النور، أغار على الحور فى
جنة الخلد،
- واختطف منهن كل الحسن والجمال، وجردهن واحدة
واحدة من غنجهن ودلالهن،

- قامته بإسقة كأنها "الشمشاد" النضر^(١)، حتى إن السّرو المعتدل يصبح عبداً له، لشدة اعتداله،
- ١١٥ - وقد دلى طرة كسلسلة ربط بها يد تدبير العقل وقدمه،
- يتوهج بريق النور من جبينه، ويخر الشمس والقمر أمامه ساجدين،
- وحاجبه المقوَّس محراب الطاهرين، وكأنه مظلة معبرة تظلل الوسنانين،
- ووجنته قمر من قمة برج الفردوس، سكن برج القوس من حاجبه،
- وقد تكحلت عيناه بكحل الدلال، وصارت أهدابه ضاربة بالسهم في الأكباد،
- ١٢٠ - وشفته مبتسمتان تنضحان سكرأ، وفمه يمزج السكر بالكلام،
- وبريق درّه من بين شفتيه، كأنه برق يلمع من الشفق الملون،
- وهو يسكب النور من الثريا بابتسامته، ويسيل فمه الملىء بالفتنة سدوية،
- وذقنه تفاحة محاطة بلهأة كأنها قطرة من الماء، متدلية من التفاحة،

[١] سبق الحديث عن شجرة الشمشاد .

- قد ازدانت حديقة وجته بشامة من المسك، بدت كغراب
عشش في حديقة،

١٢٥ - فعضده غنى من فضة ساعده، أمّا خصره فكالشعرة
النحيلة افتقاراً إلى الفضة،

- وحينما فتحت زليخا عينها على وجهه، حدث لها ما
حدث من نظرة واحدة،

- إذ رأت جمالاً أبعد ما يكون عن حدّ البشر، لم يشاهد
بين الملائكة ولم يسمع عنه بين الحور،

- فأصبحت أسيرة لحسن صورته ورقة شمائله، بمائة قلب
لا بقلب واحد،

- وقد رآته في النوم وهى فى عامها السابع، فربطت قلبها
بحبله،

١٣٠ - ورسمت لقامته صورة فى فؤادها، وغرست فى قلبها
غصناً لمحبه،

- وأضرمت ناراً فى صدرها بسبب طلعتة فأحرقت بها
متاع صبرها ودينها،

- وعلقت بكل خيط من خيوط تلك الطرة المعنبرة البهيجة
حبل روحها،

وأمسست قرينة الآهات بسبب انحناء حاجبيه، ونامت
غارقة فى الدماء بسبب عينه الوسنانة،

- وضاق قلبها من رؤية شفّتيه السكريتين الضيّقتين،
وجعلت من أهدابها عقداً لجواهر الدموع بسبب رؤية
أسنانه،

١٣٥ - وغسلت يدها من العقل بسبب ساعده الفضى،
وتمنطقت بمنطقة العبودية،

- ورأت خاله المسكى الجذاب على وجهه، فجلست على
النار بسببه، وكأنها السّداب^(١)،

- وذاقت ألم الروح بسبب تفاحة رقبتيه، ومن ذا الذى
يستطيع أن يقطع مثل تلك التفاحة بسهولة،

- فيا لله!! أية صورة جميلة كانت، تلك التى قللت
الصورة، وضاعفت المعنى،

- فهربت زليخا من وجودها، وسكنت إلى المعنى بدلاً من
الصورة،

١٤٠ - فلو أنها كانت بذلك المعنى، لكانت واحدة من
الواصلات على الطريق،

- ولكن بما أنها كانت أسيرة الصورة، فإنها لم تكن عارفة
فى البداية بالمعنى،

[١] بذرة نبات طيب الرائحة، توضع على النار ليترد دخانها عين السوء.

- فقد بقينا جميعاً في إसार التصورات، وظللنا أسرى
المظاهر،

- فكيف يميل قلبٌ إلى صورة لا توصل إلى المعنى؟

- فالظمان يدرك يقيناً أن بالجرة قطرات من الماء، ومن ثم
يمدّ يده إلى رقبتها،

٦٤٥ - وحينما يغرق في زلال بحرهما، لا يذكر شيئاً عن خزفها
المبلل.

هبوب نسيم السحر على زليخا ، وتفتح نرجسها الوسنان

- عندما طار غراب الليل فى السّحر ، وأذن ديك الصباح ،
- وعزفت العنادل لحنًا جذابًا ، فمزقت حجاب البرعم عن
الورد ،
- وغسل الياسمين وجهه بقطرات الندى ، كما غسل
البنفسج جدائله العنبرية ،
- وكانت زليخا لا تزال غارقة فى نومها اللذيذ ، وقد يّمت
وجه قلبها صوب محراب البارحة ،
- ١٥٠ - وما كان ذلك نومًا لذيذًا ، بل كان فقدًا للوعى ، فقد
كانت فى حيرة من فكر ليلها ،
- ووضعت الجوارى وجوههن عند قدميها ، وقبل الخدم يدها
- وكشفت النقاب عن شقائقها النّدية^(١) ، وفتحت عينها
الوسنانة من النوم ،
- فجعلت طوقها مطلقًا للشمس والقمر ، وأطلت برأسها
ونظرت كل صوب ،

[١] يعنى بالشقائق: وجهها .

- فلم تر أثراً لمتورد الوجنة الذي رآته فى البارحة،
فتداخلت فى نفسها كالبرعمة،

١٥٥ - واستقر رأيها على أن تشق قميصها على جسدها
كالوردة، حزناً على ذلك السرو المدلل،

- ولكن خجلها من الناس منعها عن ذلك، وربط قدمها
بأذيال الصبر،

- فكانت تخفى سرّها فى قلبها الضيق، كأنها منجم
الياقوت، والياقوت فى قلب الصخر،

- وكانت تبتلع - كالوردة - دمها فى قلبها، ولم تخرج من
قلبها قطرة واحدة،

- فشفتها مع جواربها تقص حكايتها، وقلبها من جرائها
يثن بالشكوى،

١١٠ - وقمها فى ابتسامة حلوة مع رفيقاتها، وقلبها به مائة
عقدة كأنه قصب السكر،

- ولسانها يلوك الأساطير مع صاحباتها، وقلبها مائة
وسمة من جرح العشق،

- فعينها تنظر إلى صورة الخلائق، وقلبها دائماً مع الحبيب،
- وأنى يكون عنان القلب بيدها، وهو مع ذلك الساحر
الذى خطفه حيثما حلت،

- فالقلب الذى يكون فى فم التماسح بسبب الحب، تقصر
قدم التمنى عن البحث عنه،

١٦٥ - فلا أمنية لها غير الحبيب، ولا راحة لقلبها سواه،

- فلو تحدثت، فمع الحبيب الحديث، ولو طلبت تحقيق
رغبة، فممنه تطلبها،

- وقد فاضت روحها على شفيتها آلاف المرات، لينقضى
يوم محتتها هذا،

- فقد خلق الليل على هوى العاشقين، أميناً على أسرارهم،
- ومن ثم فإنهم يؤثرونه على النهار، فهذا يمزق الأستار،
وذاك أمينٌ عليها،

١٧٠ - وحينما أقبل الليل أدارت وجهها صوب حائط الحزن،
وحنّت ظهرها باكية، وكأنها القيثارة،

- وجعلت من خيوط الدموع أوتاراً على القيثارة، وعزفت
ما يشغلها على أوتار قلبها،

- ورفعت من الشجن نغمة حزينة، وأخذت تنوح وتتأوه
فى ارتفاع وانخفاض،

- وقد أجلس صورة الحبيب أمام عينها، وأخذت تنثر
الجواهر من كل من عينها وفمها^(١)،

[١] يعنى ذلك أنها كانت تسكب الدموع وهى تتأجى طيف الحبيب.

- قائلة: «أيها الجواهر الطاهر!! من أى منجم أنت؟ فإنى
أثر هذه الجواهر بسبك،

١٧٥ - وقد اختطفت قلبى دون أن تخبرنى عن اسمك، أو
تذكر لى علامة عن مكان إقامتك،

- ولست أدرى ما هو اسمك حتى أجعله ورداً لى، ولا
أعرف مقامك حتى أطوف حوله،

- ولا أدرى ممن أستفسر عن اسمك، ولا أين أتى حتى
أسأل عن مقامك،

- فلو كنت ملكاً، فخبرنى عن اسمك، ولو كنت قمرًا
فأين منزلك؟

- فلا كان أحدٌ أسيراً مثلى، فقد خلت يداى من القلب
ومالكه،

١٨٠ - لقد رأيت طيفك، فاختطف النوم منى، وأجرى الدم
الصافى من عيني وقلبي،

- وما أنذا أملك الآن جسداً مؤرقاً، وقلباً مضطرباً بنارك،

- فماذا يحدث لو سكبت الماء على النار، ولم تكن كالنار
محرقاً متمرداً؟

- فلقد كنت وردة من روضة الشباب، نضرة طازجة كماء
الحياة،

- لم تهب ريحٌ على رأسى أبداً، ولم تخز شوكة قدمى
على الإطلاق،
- ٦٨٥ - فأسلمتني بدلا لك إلى التَّلف، وغرست آلاف الأشواك
على مخدعى،
- وأتت لجسدٍ أرقٍّ من ورق الورد مئات المرات أن ينام على
فراشٍ شائكٍ؟
- وكان هذا شغلها طول الليل حتى السحر، إذ كانت هذه
شكواها لطيف الحبيب،
- فإذا انقضى الليل غسلت بالدموع المنهمرة عينها، رجماً
لكل الظنون،
- فكانت شفتاها نديتين من شرب دم الليل، فحكتهما
بحجر - لسانها - اليابس،
- ٦٩٠ - ومنحت النّضرة للوسادة من ورق الورد النّدى^(١)،
والروح للفراش من سرّوها الفضى،
- وكانت تمضى ليلها ونهارها على هذا النّسق، دون أن
تتحوّل عنه قيد شعرة.

[١] يعنى بورق الندى: وجه وزليخا.

وقوع عقدة الخيرة في خيط تفكير الجوارى من جرّاء
رؤية تغيير حال زليخا، وحلّ المربية تلك العقدة
من ذلك الخيط بطرف إصبع الاستفسار

- أينما يطلق قوس العشق سهمه، فإن إحكام التدابير لا يفيد،
- فحين يعمل قوس العشق متخفياً داخل بيت السهام،
فإن عليه من الخارج مائة دليل ودليل،
- وما أطيب قول هذه الطرفة من الحكماء: «لا يمكن إخفاء
العشق والمسك».
- ٦٩٥ - فلو أن المرء يحجب المسك بمائة طية، فإن رائحته تشي
عليه داخلها،
- وكانت زليخا تكتُم أمر عشقها، وتزرع بذرة الأحزان في
صدرها في الخفاء،
- إلا أنه كان يطل برأسه كل لحظة من موضع، وكان ينمو
ويترعّرع داخلها،
- إذ كانت عينها تنهمر بالدموع أحياناً، وأى موضع
للموع!! بل هي تسكب الدم الصافي،

- وفى كل قطرة تسكبها من أهدايها، كانت تنفث سرها الدفين،
- ٧٠٠ - وكانت تتأوه أحياناً أخرى، من لظى قلبها، فكان دخان
أهتها يشق طريقه إلى السماء،
- وفى كل آهة كانت تخرجها من قلبها كانت الخلائق تشم
رائحة شواء قلبها،
- ولما كانت بغير نوم أو طعام، ليل نهار، فقد بدت وردتها
الحمراء صفراء كالشقائق الصفراء،
- وكان الجميع يدركون أن الشقائق لا تنمو فى بستان وهى
خالية من الجراح،
- فلما رأّت الجوارى هذه الدلائل، رسمن عليها خط
الاضطراب^(١)،
- ٧٠٥ - إلا أن سبب ذلك لم يتضح، ولا من هو محرك هذه
الحالة العجيبة،
- فقالت واحدة منهن: «إن أحداً لم ير مثلها، وربما
أصابتها عين إنسان».
- وقالت أخرى: «بل هو من أعمال ساحر، علق صوراً
من سحره على أذيالها».

[١] ربما يقصد الشاعر بهذا حيرة جوارى زليخا فى أمرها، وتخيلهن أن مسأ من الجنون
قد أصابها.

- واستحسنت أخرى الرأى القائل بأن ذلك «قد أصابها من
«شيطان أو جنى».

- وقالت رابعة: «إن كل هذا من آثار العشق، وقلبها دون
ما شك مشغل تحت وطأة العشق،

٧١٠ - بيد أنها لم تشاهد أحداً فى يقظتها، لكأن هذه الآفة قد
أصابتها فى نومها».

- وكانت كل واحدة منهن تذهب بها الظنون مذهباً، وكنّ
يتناولن أمرها معاً بالقليل والقال،

- بيد أن سرّ قلبها ما كان يتضح لأحد، وما كان الكلام
لينتهى إلى شىء من الأشياء،

- وكان لزيخا من بينهن مربية ساحرة، على قدر كبير من
الإلمام بالسحر،

- خبيرة بطرق العشق، إذ كانت عاشقة تارة، ومعشوقة
أخرى،

٧١٥ - فهى تصل المعشوق بالعاشق، وتجعل الحبيب العنيد يوافق،

- ذات ليلة أقبلت، وقبّلت الأرض بين يديها، وذكرتها
بخدماتها،

- وقالت لها: «يا برعم البستان الملكى!! يا من يتباهى
الحسان بجمالك!!

- ليكن قلبك سعيداً، وفمك باسماء، وليكن حظنا مبتهجاً
بطلعتك،

- فأنت ذلك السُّرو النضر فى حديقة الجمال، وأنت عشيقه
طائر روى^(١)،

٧٢٠ - وما أنا إلا جدول من بحر وفائك، وقد رعيتك فى
أحضانى زمناً،

- وكنت أول من رأى طلعتك منذ البداية، وقطعت
نافجتك بسيف الحنان،

- وغسلت قوامك بالمسك وماء الورد، وخاطبتك باسم
(ماء الورد المسكى)،

- وصنعت قماطك من شغاف القلب، ولففتُ منطقته
بحبل الروح برقّة،

- وأطعمت سكر^(٢) اللبن، ورعيت جسدك الذى يحمى
روحك،

٧٢٥ - فإذا أقبل الليل، كنت أنام لخدمتك، وإذا أقبل السَّحر
زيّنت وجهك الجميل،

[١] الترجمة الحرفية لهذا الشطر:

«الذى جعل بيغاء روى حجلأ له»

[٢] المقصود بالسكر: فمها.

- وإذا ذهبت، كنت زينة كتفى، وإذا نمت، ضمك حضنى،
- وحينما أصبح غصن وردك سرواً باسقاً، فإنى إلى الآن
لم أنفض يدى من أطراف ثوبك،
- فأنا خادمك فى كل عمل، ومشغولة دائماً بشئونك،
- فأينما ذهب سروك الجذاب، تبعك كظلك،
- ٧٣٠ - وإذا جلست، وقفت أنا للخدمة، وإذا اضطجعت،
وضعت رأسى على قدميك،
- وما زلت إلى الآن فى نفس العمل الذى كنت فيه دائماً،
أسيرة تلك الصدقة التى تعودتها،
- فلماذا تحجيين عنى سرّ قلبك؟ ولماذا تبعديننى عنك بهذه
الصورة كالغرباء؟
- وخبرينى أخيراً، من ذا الذى زجّ بك فى هذا المجال؟
ومن هو الذى سرق حمارك، وألقى بمتاعك؟
- ولماذا أنت مضطربة وغير مستقرة هكذا؟ ولماذا التالم
ومخالفة الأسبى إلى هذا الحد؟
- ٧٣٥ - ولماذا اصفرّ ورد وجنتك الأحمر بهذه الصورة؟ ولماذا
بردت أنفاسك الحارة إلى هذه الدرجة؟
- وأنت شمس، فما سبب خسوفك كالقمر؟ وما سبب
رغبتك فى الزوال وقت الضحى؟

- أنا أعرف يقيناً أن قمراً قطع عليك سبيلك، فصارحيني
من يكون ذلك القمر؟
- فلو كان ملاكاً في السماء، سُبكت ذاته من نور
القديسين،
- فإنني أسبِّح وأدعو إلى أن أحضره من السماء إلى
الأرض،
- ٧٤٠ - ولو كان شيطاناً هائماً في الجبال والغابات، فإنني أجعل
قراءة العزائم عملي وحرقتي،
- وأتلو التعاويذ لتسخيره، وأضعه في زجاجة وأجلسه
أمامك،
- ولو كان من جنس الأدميين، فإنني أريح خاطرك به في الحال،
- فمن يكون ذلك الذي لا يرغب في وصالك؟ إنه لن
يطلبك جارية، بل سيدهاً له.
- وحينما رأت رليخا ذلك الحنان، واطلعت على سحرها
وأقاصيصها،
- ٧٤٥ - لم تَرَ بُدأً من قول الحقيقة، ونثرت بالبكاء النجوم على
صفحة القمر،
- قائلة: «إن كثر أملى محتجب كلية، وباب ذلك الكثر
مفقود مفتاحه،

- فكيف أرشدك إلى طائر يشارك العنقاء عشها،
- بل إن العنقاء ذات اسم عند الناس، أما طائري فمفقود اسمه أيضاً،
- فكم تطيب الحياة المرة لمن يعرف اسم من يهواه،
- ٧٥٠ - فعلى الرغم من أنه يتجرع المرارة بسبب البعاد، فإنه يحلّى لسانه بذكر اسمه
- وحلت عقدة لسانها فى ذلك الوقت أمام مربيتها،
- فرفعت من شأنها بمشاركتها أسرارها،
- فأيقظتها برؤياها، وأكسبتها من فقدان الوعي صوابها،
- ولما قرأت المربية كلمة من دفترها، أطرقت حائرة فى علاجها،
- حقاً! إن هذه الحكمة مطبوعة فى كل خيال، وهى: «من المحال طلب المجهول»،
- ٧٥٥ - فما لم تكن تعرف مرادك منذ البداية، فكيف يمكنك البحث عنه فى النهاية؟
- ولما لم تستطع أن تفك قيود قلبها، فكّت القيد عن لسانها لنصحها،
- فقالت لها فى البداية: (إن هذا من عمل الشيطان، وعمل الشياطين دائماً هو المكر والخداع،

- فهم يبدوون للخلائق بصورة جميلة، ليفتحوا أمامهم باب الوله»،
- فقالت زليخا: «أى قدرة للشيطان فى أن يبدو فى مثل هذا الشكل الجذاب؟
- ٧٦٠ - فمعاذ الله أن يتولد ملاكٌ من الجسد الذى خلقت طبيته من الفتنة والشر»،
- فقالت لها ثانية: «إنها أضغاث أحلام، فكيف نهلك الروح فى سبيل الكذب؟»،
- فقالت: «لو كانت هذه الرؤيا كاذبة، فكيف اختطفت الصادقين بهذه الصورة؟
- ويعد أهل القلب هذه الحكمة صادقة، وهى أن: (الطيور على أشكالها تقع»^(١)،
- فقالت لها: «إنك عاقلة، فأبعدى هذه الهواجس عن خاطرك»،
- ٧٦٥ - فأجابتهما: «لو كان الأمر بيدى، لما حطمتنى هذا العبء الثقيل،
- لقد أفلت زمام التدبير من يدى، وأفلت زمام الاختيار أيضا،

[١] الترجمة الحرفية للشطر الثانى:
«المعوجَّ يعيل إلى المعوجَّ، والمستقيم يعيل إلى المستقيم».

- وقد رسخت بقلبي صورة له، أشدَّ إحكامًا من النقش .
على الحجر،
- فلو هبت الريح، أو انهمر المطر، فلن يزيلا تلك الصورة
عن الحجر» .
- وحين أدركت المربية رسوخ قدميها في العشق، حبست
الأنفاس من إسداء النصيحة،
- ٧٧٠ - وذهبت في الخفاء، وأخبرت والدها، فاضطرب الوالد
من تلك القصة المؤلمة،
- ولما كانت يد التدبير عاجزة، فقد أسلم أمره ليد المقادير .

رؤيا زليخا ليوسف فى المنام للمرة الثانية،
وتحريك سلسلة عشقها، وجربها
إلى ورطة الجنون

- ما أسعد ذلك القلب الذى يسكنه العشق، فيلهيه عن
أمر دنياه،
- ويتوهج فيه برق مضى، يحرق متاع الصبر والعقل،
- ولا يتبقى به أحزان الخوف على السلامة، ويصبح جبل
اللوم عليه قشّة،
- ٧٧٥ - وتتعود روحه على اللوم، ويزيد اللوم عشقه،
- وكانت زليخا تدخل النقصان كالقمر طيلة سنة، بعدها
أمسى بدرها هلالاً،
- وذات ليلة جلست مقوسة الظهر كالهلال، غارقة فى
شفق عينيها،
- وكانت تقول: «أيها الفلك! ماذا صنعت بى؟ لقد
أوصلت شمسى إلى درجة الشحوب،
- وجعلت قامتى المعتدلة كالقوس، وصيرتنى هدفاً لسهم
الملام،

٧٨٠ - وأسلمت عناني في يد متمرّد، لم أعرف عنه سوى
العناد،

- وألقى في قلبي شعاعاً من المحبة، وضمنّ عليّ حتى في
الأحلام،

- فلا هو يُجالسني في اليقظة، ولا يُمتّعني برؤياه في
المنام،

- إن الرؤيا التي أرى فيها ذلك القمر المنير، هي علامة
سعادة الحظ،

- إن عيني لا تستريح في النوم، وأنا أستعير نومها من
حظّي النائم،

٧٨٥ - فلعل حظّي يستيقظ في النوم، فيبدي لي الحبيب طلعه،
- قالت ذلك الكلام هزيعاً من الليل، وفاضت روحها على
شفتيها الماء،

- وفجأة اختطفها النوم من بين هذه الأفكار، وما كان ذلك
نوماً بل كان فقدان وعي،

- وما كاد جسدها يستريح على الفراش، حتى دخل أمنية
روحها من الباب،

- ودخلت نفس الصورة التي قطعت عليها طريقها منذ
البداية، بطلعةٍ أشد بهاءً من القمر،

- ٧٩٠ - ولم تكبد تلقى بنظرها على طلعتة الجميلة، حتى وثبت
من مكانها، وألقت برأسها تحت قدمه،
- وقبلت الأرض قائلة: «يا شجرة السرو الوردية القوام!!
يا من نزعت الصبر والراحة من قلبي!!
- بحق من سواك من النور، مترها عن كل خبث،
- وتوَجَّك على طائفة الحسان، ومنحك الفضل بالرقّة على
ماء الحياة،
- وجعل قامتك غصن ورد بستان الروح، وجعل شفّيتك
منبع قوتها،
٧٩٥ - وأضاء من وجّيتك البهيجتين شمعة أحرق بها طائر
روحي كالفراشة
- ووهبك أنشودة من الجداول المسكية، كل شعرة فيها تعدّ
قيداً لى،
- وبحق من جعل جسدى نحيلاً كخصرك الشبيه بالشعرة،
وقلبي ضيقاً كميم فمك،
- أن ترحم روحي الولهانة، وتفتح شفّيتك الجميلتين
بالإجابة،
- وخبرنى: من أى أسرة فى الأصل أنت؟ بمالك من
الحسن والجازبية؟

٨٠٠ - وأنت جواهر متألئ، فأين منجمك؟ وملك عزيز، فأين

إيوانك؟»

- فقال لها: «إننى من سلالة آدم، خلقت من الماء

والتراب،

- وأنت تدعين أنك تعشقينى، فلو أنك صادقة بما تقولين،

- فارعى حق حبنى ووفائى، واهتمى برضائى بالأ

تزوجى،

- ولا تجعلى سكر شفئك مورداً لأسنان أحد، ولا تبيحى

عفتك لأى إنسان،

٨٠٥ - فلو كان بصدرك جرح منى، فلا تظنى أنى خالٍ من

الجراح،

- فقلبى بدوره أسير شراكك، وصرت هدفاً لجراح

عشقك».

- وحينما رأت زليخا العطف، وسمعت من ياقوت شفتيه

تلك الأسرار،

- جنّ جنونها من جديد، واضطرم الجحيم فى أعماق

الفراشة،

- ونهضت فى السّحر ورأسها ثمل من طيف الحلم،

وكبدها حرّى، وقلبها محترق،

- ٨١٠ - وازداد الحزن فى قلبها، حتى وصل دخانه السماء،
- وتولد عن ولها الواحد مئات أخرى، وفاق اضطرابها
من أجله كل حدّ،
- وأفلت منها زمام العقل، وتحرّرت من قيد النصيحة
والمشورة،
- فكانت تمزّق ثياب الروح كالبرعم، وتصبّ دم القلب
على الأرض شقائق،
- فتارة كانت تمزّق وجهها من فرط حبها لوجهه، وأخرى
تقتلع شعرها حين تذكر طرته،
٨١٥ - وقد التفت الجوارى حولها، ضاريات حلقة وكأنهن
الهالة حول القمر،
- ولو كانت تحدث فجوة فى تلك الحلقة، فإنها كانت
تنطلق منها كأنها السهم،
- وما لم تمسك تلك الحلقة بشبابها، لهام سروها الباسق
على وجهه فى السهول،
- وما لم يضق الحصار عليها كالبرعم، لولّت وجهها
كالوردة شطر السوق غير مُحجّبة،
- ولما أحيط والدها علماً بذلك طلب العلاج من علماء
البلاط،

٨٢٠ - فطرقوا لعلاجها كل الأبواب، فلم يجدوا حيلة أنجع من السلاسل،

- فأمرُوا بإحضار ثعبانٍ ملتبسٍ من الذهب، يكون طلاؤه بالياقوت والجواهر،

- ويلف ذلك الثعبان المطلق بالجواهر حول ساقها الفضية، كأنه الحية فوق الكنز،

- حقًا!! إن زليخا كثر الجمال، ولا مفرّ من أن يكون لكل كنز حية،

- ولما نام الثعبان الذهبى تحت ذيلها، كانت تمطر اللآلى من عينها قائلة:

٨٢٥ - «إن قلبى مكبل بقيود العشق، وهى عندى أفضل من هذه الحياة،

- فلماذا تشغل قدرة الفلك - التى تسحق العمر - قدمى بهذه القيود؟

- فلم أعد أستطيع السير، ولم يبق عندى تفكير فى ذهاب أو إياب،

- فما جدوى تكبيل قدمى إذن بتلك القيود الثقيلة؟ وما سرّ جرح قلبى بسيف الظلم هذا؟

- لقد غاصت جذر السرو فى الطين، وتعرّست عليه الحركة،

٨٣٠ - فما حكمة البستاني في أن يصبّ على هاتين القدمين

سلاسل الماء؟

- كان أجدى أن تكبل قدم المحبوب، الذي اختطف قلبي

منى في لحظة،

- حتى لا يغيب عن ناظري، وأتملاً برؤية وجهه الوردى،

فإنه يمرّ مرور البرق المتوهج، فيثير الدخان من قلبي

المتهب،

- فلو أن حظى السعيد بحالفنى، لربطت قدميه بهذه

السلسلة الذهبية،

٨٣٥ - فأشاهد وجهه وقتما أشتبى، ويبيض به سواد نهارى،

- ماذا أقول؟ إن دمية صاغها الدلال، لو استقرت ذرة من

الغبار على ظهر قدمها،

- فإن ركامًا من الأسى يجثم على روحى، وأطوى بساط

السرور،

- وكيف يسرّنى أن يقع على كاهله عبء، أو أن يمسّ

ساقه الفضية أذى القيد؟

- أهونُ علىّ أن أطعن بمائة سيف فى قلبى، ولا تلمس

شوكة ذيل ثوبه،

- ٨٤٠ - وفجأة، أصابت واحدةٌ من هذه الأمنيات مرماها،
- فتمزق صدرها من جرائها، وسقطت على الأرض
كالصيد الجريح،
- وحالفها فقدان الوعي زمنًا، ثم عاد لها الصواب ثانية،
- وشرعت فى قصتها من جديد، لتسرى عن قلبها المدله،
- فتارة تبكى، وأخرى تضحك، ومرة تموت، وأخرى
تعود إلى الحياة،
٨٤٥ - كان حالها يتبدل كل لحظة، وظلت على هذا المنوال
عامًا كاملاً.

رؤيا زليخا ليوسف عليه السلام في المنام
للمرة الثالثة، واستفسارها عن اسمه
ومقامه، وعودتها إلى عقلها وصوابها

- تعال أيها العشق الساحر الخدّاع، الذى شأنه السلام تارة
والحرب أخرى،
- تارة تظهر العاقل مجنوناً، والمجنون حكيماً تارة
أخرى،
- وحين تضع على جبين الحسان سلاسل الطور، فإنك
توقع العقلاء فى سلاسل الجنون،
- ولو فككت من هذه الطور خصلة، لأضاء لها مصباح
العقل،

- ٨٥٠ - وذات ليلة، شربت زليخا الثمالة من كأس الألم،
- وكانت حرقرة الأسى ترعدها، لنفاد صبرها وضياح
عقلها، ومحالفتها الأحزان، واحتضان المحن^(١)،
- وحسرت رأسها، وحشت التراب عليها من نار قلبها،

[١] اقتضت الترجمة إدخالها جزءاً من البيت السابق فى هذا البيت.

- وانحنى - من السجود - ظهر السروة المدللة، فجعلت الأرض مثار غيرة إرم^(١)

- وصبت قانى الدمع من نرجس عيتها، وتهيات بلسان عذب كأنه السوسة،

٨٥٥ - وباحت بشجى قلبها الحزين، وشرعت فى سرد القصة على حبيبها،

- قائلة: «يا من أسلمت للضياع عقلى وراحتى، وبعثرت فى أيامى القلق،

- لقد منحتنى الحزن دون أن تزيله، وسلبت قلبى دون أن تعوضنى عنه حبا،

- إننى لا أعرف اسمك حتى أجعله لى وردًا، ولا أدرى مكانك حتى أجعله مطافى^(٢)،

- لقد كنت قاعة بحالى، سكرية الابتسامة، أما الآن فبى عقد منك وكأنى قصب السكر،

٨٦٠ - وما أكثر ما شربت من الدم - من فرط حزنى عليك - كالبرعم، وقد سقطت كالوردة خارج الكيم،

[١] دليل على شدة جمال وجه زليخا.

[٢] سبق أن ورد هذا البيت تحت رقم (٦٨١)، وربما كان هذا التكرار من إضافة النساخ، وفى رأينا أن ذكره فى الموضع السابق لا يتمشى مع سياق الأحداث فى القصة.

- وإننى لا أقول إننى عزيزة فى نظرك، ولكننى أقل جارية
فى جواريك،

- فماذا يحدث لو دلت جارية لك، وحررتها من قيد
محتتها؟

- فلا تضح أحدٌ بالدم مثلى، ولا عرت الفضيحة أحداً
من بين الخلائق مثلى،

- لقد ضاق قلب أمى من سوء قرابتى، وأوغرت بنوتى
قلب أبى،

٨٦٥ - وهجرتنى خادماى وتركتنى يطحننى الغم فى وحدتى،

- وأضرمت النار فى روحى وكأنتى حزمة من الأشواك،
ولا يحرق أحدٌ إنساناً وحيداً بهذه الصورة،

- وظلت تناجى أمنية روحها وقلبها على هذا النحو، إلى
أن اختطفها النوم،

- وحينما انتشت عينها بكأس النوم، أقبل إلى نومها سالب
النوم هذا،

- بهيئة أحلى من كل ما أقول، ولا أدرى ماذا أقول بعد
هذا،

٨٧٠ - فتعلقت فى ذيله نائحة، وسكبت دم القلب من أهدابها
على قدمه،

- قبائلة: «يا من ولّت من قلبى الراحة، وطار من عيني النوم بسبب آلام عشقك!

- بحق الطاهر الذى خلّقت طاهراً، واصطفاك من حسان كلا العالمين،

- أن تقصر أمد حزنى وتخبرنى عن اسمك ومديتك».

- فقال لها: «لو أن أمرّك يستقيم بذلك فأنا عزيز مصر، ومصر مقامى،

٨٧٥ - وأنا من المقرّبين إلى ملك مصر، وقد منحنى العزيز^(١)، العزة والجاه فيها».

- فلما وجدت زليخا تلك العلاقة من الحبيب، صارت كميت من مائة عام عادت إليه الروح،

- وعادت - بعد هذا الحديث الحلو حلاوة الشراب - إلى جسدها القوة، وإلى قلبها الصبر، وإلى كيائها العقل،

- وبسبب تلك الرؤيا التى رأتها، من حظها السعيد، نهضت عاقلة، وكانت قد نامت مجنونة،

- فقد أعادها ذلك الخير - من ذلك القمر الذى أثار الاضطراب فى قلبها - إلى عقلها وصوابها،

[١] يعنى بالعزيز هنا: الخالق سبحانه وتعالى.

٨٨٠ - فنادت على جواربها من كل صوب، قائلة «يا رفيقاتي
في حزني!»

- بشرن والدي بالسعادة، وخلّصن قلبه من نار المحنة،
- فقد عاد إلى عقلي ووعي مرة أخرى، وعاد الماء يجري
في نهري الذي جف ماؤه،
- فتعالين، وارفعن القيد الذهبي عن فضتي، فلم يعد هناك
خوف عليّ من الجنون بعد،
- وافككن القيد عن ساقي بأيديكن، ولا تدعنه - كما
يفعل البخيل - في فضته»

٨٨٥ - وحينما طرقت تلك البشري مسامع أبيها، طار عقله
لاستقبالها،

- وفقد وعيه لأول وهلة، كما يفعل العاشق، ثم ولى
وجهه شطر تلك السّروّة،
- وفتح فم تلك الأفعى ذات الرأسين، وخلّص فضة الجسد
من قيد الحزن،
- فطأطأ الجوارى رؤوسهن عند قدميها، ووضعن عرش
الذهب تحت قدميها،
- وأجلسنها على عرش الدلال، وتوجّنها بالتاج الذهبي،

٨٩٠ - واحتشدت ملائكيات الوجه من كل مكان، وصِرْنَ
فراشات يحمن حول شموعها،

- وكلما كانت تجلس مع رفيقاتها في المجلس، كانت تثر
الكلام من فمها الياقوتى كالبيغاء،

- فكانت تفتح غطاء صندوق الحكايات، وتبدأ الحديث عن
كل مدينة،

- فتُثير الحديث عن الروم والشام، وكان حديثها يفيض
عذوبة كلما تعرّضت للحديث عن مصر،

- وكانت تُنهي حديثها عن المصريين، لتذكر اسم عزيز
مصر،

٨٩٥ - فإذا جرى اسمه على لسانها، خرّت ساقطة على
الأرض،

- وكانت تثر سيل الدماء من سحب عينيها، وكانت أُناتها
تجاوز عنان السماء،

- وكان هذا شأنها دائماً، ليلاً ونهارها، إذ كانت تسوق
الكلام عن الحبيب وعن دياره،

- وكانت تجتهد في هذا الكلام الجميل، أو تكفّ عن
الكلام (تماماً).

مجيء الرّيسل من كل مدينة - عدا مصر -
لخطبة زليخا، وعودتهم إلى ديارهم
يائسين

- رغم اضطراب حال زليخا، فقد طبقت شهرة جمالها الآفاق،
- ٩٠٠ - وأينما وصلت قصة حسنّها، فُتِنَ بها كل من سمع عنها،
- وأسر الحكام عشقُها، ووصلت شهرتها إلى محافل الملوك،
- فكان يقدم إليها رسول كل لحظة، من قبل ملك من الملوك، أملاً في الزواج منها،
- وذلك بعد أن نجت من الجنون، وجلست عاقلةً على عرش المحبة،
- فأقبل الرسل من قِبَلِ ملوك كل الأقاليم والأوطان؛ فهذا رسول ملك مملكة الشام، وذاك عن الروم،
- ٩٠٥ - وأقبل مايزيد عن عشرة أشخاص، واستراحوا في بلاط جلالتها،

- ويقبضة أحدهم قائمة ملكه وماله، ويأصبع الآخر خاتم سليمان،

- فكل هدية لملك منهم هي علامة منه على طلب الزواج بها،

- بحيث إن أى موضع تضع فيه قدميها - تلك التى تثير غيرة الشمس - يكون عاصمتها التى تتوج فيها،

- ويكون تاج الملك ترى تسير عليه فى كل إقليم يصبح مجتلى لها،

٩١٠ - فلو أنها استقرت - كالقمر - فى بلاد الشام، فإنهم يدعون لها من الصباح حتى المساء،

- ولو اتجهت صوب الروم، لأضحى الجميع عبيداً لها من الصباح حتى المساء،

- وعلى هذا فإن كل رسول كان يعبر عن رسالة على لسان ملك مشهور،

- وحينما وقفت زليخا على هذا الأمر، اضطرب قلبها من الحيرة،

- وقالت: هل بينهم رسول من مصر؟ فإن عشق المصريين قد قصم ظهري،

٩١٥ - وإن قلبي لينجذب نحو المصريين، وإذا لم يكن بينهم

رسول من مصر فلست أدري ما سيحدث؟

- إذ إن النسيم الذى يهبّ من مصر، ويكحل عيني
بغبارها،

- خير لى مائة مرة من تلك الريح التى تحمل المسك من
صحراء التار»

- وبينما هى فى هذا التفكير، استدعاها والدها، وأجلسها
أمامه بحنان،

- وقال لها: يا نور العين وبهجة القلب! ومن حرّر قلبي
من قيود الحزن!

٩٢٠ - إن الملوك فى عواصم الدنيا، والمتوجين على عرش العظمة،

- قد حملوا فى قلوبهم جرح الرغبة فيك، وزرعوا فى
صدورهم بذرة الوله بك،

- وقد أقبل إلينا رسول من كل ملك منهم، طمعاً فى
القبول،

- وإننى أسرد عليك حكاية كل منهم، لأرى على من يقع
اختيارك،

- لأجعلك فى الحال حاكمة لشعب أى إقليم يميل إليه
قلبك

- ٩٢٥ - وكان والدها يتكلم بينما هي صامتة، وكانت مصغية
أملأ في سماع ذكر من تحب،
- فما أطيب الاستماع إلى الكلام من مصدر يأمل الإنسان
فيه أن يسمع شيئاً عن الحبيب،
- وسرد القصص عن الملوك واحداً تلو الآخر، بيد أنه لم
يتعرض للحديث عن المصريين،
- وأدركت زليخا أنه لم يأت رسولٌ من مصر إلى ديارها،
يبغى الزواج منها،
- فنهضت من أمامه يائسة مرتجفة من الغم كشجرة
الصفصاف،
- ٩٢٥ - وكانت تثقب اللآلئ بأهداب عينيها، وتمطر الدموع
منها، وهي تقول:
- ليت أُمى لم تلدننى، ولت أحداً ما أرضعنى بعد أن
ولدتنى،
- فلست أدري على أى طالع ولدت، وأين هوى بى هذا
الطالع!!
- إذ لو ارتفع سحاب يمطر ماءه على شفتى كل ظمآن،
- فإنه حينما يتجه إلىّ وأنا جافة الشفتين، لا يمطر غير
اللهيب،

- ٩٣٥ - ولست أدري، أيها الفلك، ماذا تكن لي؟ وماذا تبغى
من إغراق ذيلي بالدماء كذيلك؟
- فما دمت لم تهين لي فرصة الطيران إلى الحبيب، فلا
تقذف بي بعيداً عنه هكذا، ولو مرة،
- ولو أنك تتمنى لي الموت، فهأنذا قد متّ، وأسلمت
الروح من حيفك،
- ولو تتمنى لي الألم والحزن، فقد أثقلت قلبي بمائة لوعة
كالجبال،
- فإلام تثبت قشة تحت الجبل؟ وحتام تصارع نبته أمواج
الأسى؟
- ٩٤٠ - إن بقلبي مائة موضع لجراح قسوتك، فلو ترحمني،
فهذا مجال الرحمة،
- فماذا يضيرك إن كنت سعيدة أو حزينة؟ مرة أو حلوة؟
- فمن أنا؟ وماذا أفاد مولدي؟ وما جدوى وجودي أو
فنائي؟
- فلو عصفت الريح بمحصول وجودي فقل لها اعصفي،
فإن مائتي كومة منه لا تساوي فتيلاً عندك،
- إذ أسلمت للريح آلاف الورود النضرة، وكويتها بالنار
بجرح الفناء،

- ٩٤٥ - فَأَنَّى يُؤرِّقُ خَاطِرُكَ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِّنْ أَفْنِيَتْ؟
- وَأَمَضْتَ يَوْمَهَا حَتَّى الْمَسَاءِ، وَسَطَ النَّوَاحِ وَالْأَلَمِ، وَقَدْ
طَفَحَ قَلْبُهَا بِالدَّمِ مِثْلَ الْبِرْعَمَةِ،
- وَكَانَتْ تَسْكِبُ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهَا الْمَبْلَلَتَيْنِ، وَتَهِيلُ التَّرَابَ
عَلَى رَأْسِهَا بِيَدِ الْمَرَارَةِ،
- وَحِينَمَا رَأَى وَالِدَهَا وَلَهْفَهَا وَاضْطِرَابَهَا، وَعَوِيلَهَا عَشَقًا
لِعَزِيزِ مِصْرَ،
- أَذِنَ لِلرَّسْلِ بِالرَّحِيلِ، حَامِلِينَ هَدَايَا مَلُوكِهِمْ، مُتَحَلِّينَ
لَهُمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْذَارِ الْمُخْتَلِفَةِ،
- ٩٥٠ - (قَائِلًا): إِنَّ لِسَانِي مُرْتَبَطٌ مَعَ عَزِيزِ مِصْرَ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ
الْابْنَةِ الْغَالِيَةِ،
- وَوَضَحَ لِأَوَّلَى الرَّأْيِ أَنَّ الْفَضْلَ دَائِمًا يَكُونُ لِلْسَّابِقِينَ،
- وَلَيْسَ هُنَاكَ أَفْضَلُ مِمَّا يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُ الْوُجُودِ أَنْ: «لَا
بَدِيلَ لِلْيَدِ الْمُتَقَدِّمَةِ»
- فَتَخَلَّى الرَّسْلُ عَنْ هَذِهِ الْأُمْنِيَةِ، وَعَادُوا تَعَصِّفَ عَلَى
أَكْفِهِمْ رِيَّاحَ الْيَأْسِ.

**إرسال والد زليخا رسولاً إلى عزيز مصر، لعرض
زواج زليخا عليه،
وقبوله هذا الأمر**

- أصاب كبد زليخا جرح العشق، وزادها اليأس جرحاً
فوق جرح،
- ٩٥٥ - فكل يوم يبدو وجهه متألّقا في البياض، اللهم إلا نهار
اليأس الأسود،
- ولما رأى والدها اعتلال روحها من أجل مصر، أدرك أن
علاج سقمها يكون في ذلك،
- أن يسلك حكيم طريق مصر، ويطلب دواءها من عزيزها،
- ويحمل معه عدة رسائل منه، ويعقد له عليها،
- فاختار حكيمًا من المقربين إليه، وأثنى عليه كثيرًا لما له
من حكمة،
- ٩٦٠ - وحمله مائة نوح من الهدايا النفيسة، واستقر الرأي على
ذهابه إلى العزيز،
- وحمله رسالة يقول فيها: يا من يقبل الدهر تراب
أعتابه!!

- لتزدك أَلطاف الفلك كل يوم عزة فوق عزة،
- إنَّ لى شمساً فى برج العصمة، أصابت كبد القمر حرقَةً منها،
- وهى أعلى من القمر منزلة، ولم تر عينُ الشمس ظلّها،
- ٩٦٥ - فجسدها أشد صفاءً من الجوهر المكنون، وأكثر تلالؤاً فى شرفها من النّجم،
- وهى تنظر إلى القمر مُخفيةً وجهها، خشية أن تراها عين النجوم،
- لم تر طلعتها إلا المرأة، ولم يحلل شعرها سوى المشط،
- ليس ميسراً لأحد أن يلقي برأسه على قدميها، إلا طرّتها فى بعض الأحيان،
- ولا يجرو أحد على تقبيل قدميها وهى تتبختر فى صحن بيتها إلا ذيل ثوبها،
- ٩٧٠ - لم تمسّ الماشطة ذقنها بيديها، ولم يداعب إصبع آدمى شفّتها،
- سحب جمالها عن الورد أذياله، لأنه مزق قميصه بسوء السمعة،
- وأغمضت عن النرجس عينيها، لأنه ثمل قليل الحياء،
- ولا تمشى فى ضوء الشمس أو القمر، حتى لا يرافقها ظلّها فى طريقها،
- ولا تمرّ على ينبوع أو جدول، كيلا تقع عين صورتها فى

الماء على وجهها،

٩٧٥ - وقد اتخذت لها من داخل الأستار منزلاً، ورغم هذا

فقد أثارت خارجها كل الاضطراب،

- فكل الملوك عشاق هواها، ضحايا رقتها التي تأسر
الألباب فجأةً،

- وقد ارتشف العظماء جميعاً - من حدود الروم حتى
الشام - دماء قلوبهم شوقاً إليها،

- بيد أنها لم تستجب لأى منهم، وليس فى قلبها إلا
عشق مصر فحسب،

- فلا يستريح خاطرها لبلاد الروم، ولا تتفائل بماء الشام
وترابه،

٩٨٠ - فعيونها سبيل على طريق مصر، ودموعها من أجل مصر
نهر نيل،

- ولست أدري سرّ هذا الشغف بمصر، ولا من أثار هواها
إلى ذلك المكان؟

- لكأنما عجنوا هناك ترابها، أو عندهم خطأ براءة رزقها!!

- فلو أن سامى رأيكم يقبل، فإنى أرسلها إلى تلك البلاد
الجدابة،

- فإن لم تكن زينة فى صدر قصركم، كانت جارية تكس

تراب أعتابكم

٩٨٥ - فلما سمع عزيز مصر هذه البشرى، تسامى فخراً حتى

لمس بقلنسوته عنان السماء،

- وتواضع قائلاً: «من أنا حتى أزرع فى قلبى بذرة هذا التفكير؟

- ولكن ما دام الملك قد رفعنى من الأرض، فمن حقى أن

تتجاوز رأسى الأفلاك،

- فما أنا إلا ذلك التراب الذى تمطر عليه سحب الربيع

قطرات من اللطف،

- فلو ينبت من جسدى مائة لسان - كما تنمو الخضرة -

فلست بمستطيع شكر أطافك ،

٩٩٠ - وبهذا اللطف الذى أظهره الملك، فإن من الواجب - لو

يحالفنى الحظ - .

- أن أجعل من رأسى قدماً، ومن عينيّ حذاءً، وأتجه بهما

صوبه،

- ولكنى سألزم خدمة ملك مصر ينبوع الحكمة،

- فلو أبتعد عنه ساعة، لتعذبت بسيف سطوته،

- فليتعفنى والدها من المثل بين يديه، وليبعد عن خاطره

تهمة تكبرى،

٩٩٥ - فلو أنه يأذن لسيّرت إليه مائتي هودج ذهبي، عرفاناً بالجميل،

- وآلافاً من الجوارى المتبخترات، والعبيد الطوال القامة كالصنوبر،

- وغلماناً أشدّ صفاءً من حور الجنة، لفرط جمالهم،
- وثغورهم حلوة التّبسّم، وقد تمنطقوا بمناطق مطرزة بالياقوت والدرّ على خصور نحيلة،

- وقد تزينوا وأمالوا قلنسواتهم، وامتطوا سروجهم في منازلها الذهبية،

١٠٠٠ - أما الجوارى فقد اتّشحن بحلل من النور، فصرن كأنهن الحور المبرأة من نقائص الماء والطين،

- وتناثرت طررهن المعنبرة على وجوههن الوردية، واتخذن من حواجبهن قباباً مقوّسة فوق الأقمار،

- وتحلّين بالجواهر، وجلسن متجليات في هودجهنّ الذهبي،

- وكل من هو ملائم من أرباب الكياسة، أو لائق من أصحاب الفراسة،

- أرسلهم ليحضروها بكل إعزاز، إلى قصر خلوة الدلال.

١٠٠٥ - فلما سمع الرسول الحكيم هذا الكلام، طأطأ الرأس
إعجاباً، وقبل التراب،

- (وقال له): يا من عزّت بك مصر، واستعاد بك
الكرم نصرته،

- إن ما يتمناه سلطاننا ليس هو الخيل والحشم، فكل ما
وهبت ليس بذى قيمة أمامه،

- فما يمتلكه من العبيد والجواري، لا يدخل تحت
حصر،

- وما يخلعه على المحظوظين فى محفله، أكثر من
أوراق الشجر،

١٠١٠ - والجواهر التى تغدقها يداه، أكثر من رمال الصحراء،

- وليس له من أمل سوى قبولك فما أسعد ذلك
الشخص الذى يحنو عليه خاطرك،

- وما دامت تلك الفاكهة قد لقيت منك
قبولاً، فسيرسلها إليك سريعاً.

هَبوب نسيم القبول من جانب مصر، وثَدَّ
رجالَ محمِل زليخا كأنه كَمَّ الورد
إلى مصر

- وحينما عاد ذلك الحكيم من مصر، ليفك عن روح
زليخا القيد،
- وأتى لها من العزيز بأخبار سعيدة، فإنه أنساها
وجودها، وملأها بوجود العزيز،
- ١٠١٥ - تفتحت أزهار حظها، وحلّق طائر سعادتها،
- فقد عقدت الرؤيا أمرها، ثم أقبل طيف (يوسف)
فحرّرها من تلك القيود،
- حقًا! إن مصدر التعاسة أو المسرة في الدنيا إما
الأحلام وإما الخيال،
- فطوبى لمن تحرّر منهما، ونجا من مثل تلك الدوامة،
- فلما رآها والدها مسرورة، أطلق العنان لترتيب جهازها،
- ١٠٢٠ - فأعدّ امتلك العروس آلاف الدمى، صينية وروسية،
- أفواه الجميع كالفسق، ونهودهن كالرمان، وخذودهن
بسّاتين ورود تعلوها بسّاتين،
- وقد علّقن في آذانهن عقوداً من الجواهر، وقد

- كحلن، الأقواس المسكية من الأذن إلى الأذن،
- نضرات كسأوراق الورد فى الصباح، بريشات من عار
المساحيق والحمرة المصطنعة،
- وكان خصلات شعورهن المجددة فوق رؤوسهن
خصلات عنبر فوق الشقائق، وقد تعلق بأذانهن لؤلؤ ندى،
- ١٠٢٥ - وألف غلام أمرد مشير للفتنة، يسلب بدلاله الأرواح،
ويسيل دم العيون بغمزاته،
- وقد أمالوا القلنسوات الحمراء فوق رؤوسهم، وفكوا
ثنيات خصلهم المسكية،
- وبدت أطراف الشعرات من تحت القلنسوة، مثلما تبدو
أغصان السنبل تحت الشقائق،
- وقد اتشحوا بحرير مقصب، فبدت الثياب عليهم
لطيفة كالبرعم، متوائمة كقصب السكر،
- وتمنطقوا بمناطق مرصعة فوق خصورهم النحيلة كالشعرة،
وقد تعلق بشعرة كل منهم - من كل جانب - مائة قلب،
- ١٠٣٠ - وألف حصان جميل المنظر، مستناسق الأعضاء، سريعة
وقت السير طيعة تحت السرج،
- وهى أسرع فى عدوها من الكرة أمام الصولجان،

- وأنعم في لطفها من الندى على وجه الخضرة،
 - فلو أن السَّوط يلقي بظله عليها، لوثَّبت خارج إطار الزَّمان،
 - وكأنها حُمُر الوحش المستنفرة في الصحراء، أو فقاعات الماء السابحة على سطح البحر،
 - تحطم الصَّخر الصَّلد بحوافرها، وتخجل شجر الخيزران من نعومة ذيلها،
 ١٠٣٥ - يستوى أمام سيرها البهل والحزن، ولا تخرج عن إحكام عنانها،
 - وألف بعير كلها أصيلة، ظهورها كالتلال، وكأنها كُتبان في صحراء،
 - فهي كالجبال أجساماً، بيد أنها ذات أعمدة، ولا تقل سرعةً عن الريح،
 - وكأنها الزَّهاد قناعةً بقلة الزاد، وقدرةً على تحمل الأعباء،
 - وتقطع الصحارى دون ملل، وتطعم الشوك وكأنه في قمها السنبل والورد،
 ١٠٤٠ - وهى تسهر وتجويع حبا في السَّفر، وتقطع الصحراء على أنغام الحدا،

- ومائة بعير محملة بأنواع النفائس، حمل بعير منها يعادل دخل إقليم،
- ومائتا بساطٍ من الديباج الثمين، بعضها مصرى، وبعضها رومى، وبعضها شامى،
- ومائتا صندوق ملئ بالمسك الثرى، وأخرى بالعنبر والعود القمارى،
- ومائتا صندوق من الجواهر اللامعة، من الياقوت والدرّ، والياقوت البدخشى،
- ١٠٤٥ - فحيثما استقرت القافلة، أضحى وجه الأرض كصحراء الصين، طيبة الرائحة،
- وأعد لزيخا هودجاً رائعاً، كما لو كان محفل زفاف عروس،
- فقد كانت أوصال هودجها من الصندل والعود، وقد طليت لوحاته بالذهب،
- وسقفه مرصع وكأنه تاج جمشيد، وقبته مزركشة وكأنها كرة الشمس،
- فهو من خارجه وداخله ملئ بمسامير الذهب، والدرّ المعلقة،
- ١٠٥٠ - وقد علقت ستائر حريرية مزركشة، جذابة الألوان، جميلة المنظر،

- وانساب الهودج على ظهور جمال ريحية السرعة،
كما ينساب العطر بين نسيم الربيع،
- وآلاف من الغلمان طوال القامة، تعبق وجوههم
وصدورهم برائحة الياسمين،
- وأينما أراحوا تلك العروس، أخجلت حديقة إرم،
- واندفعوا كالربيع الجديد، مولين وجوههم من بلاد
إلى بلاد،
- ١٠٥٥ -** وأجلسوا زليخا فى هودج زفافها، وساقوه بها إلى
مصر متدللاً،
- فالغلمان نشاوى يسرعون، والجوارى متدللات فى
الهودج يتجلّين،
- وقد نصبت كل جارية من طرّتها شركاً صادت به
غلاماً،
- وسحب كل غلام من كنانته سهماً، فشقّ به صدعاً
فى روح أسير،
- فالهيام والدلال من جانب، والتدلّ والعشق من
جانب آخر،
- ١٠٦٠ -** فآلاف العشاق لاهون مع المعشوقين، وفى كل موضع
مائة متاع ومائة مشتري،

- كانوا يقطعون الفيافي على هذا النحو، يتجه محملهم
صوب مصر،

- وزليخا مسرورة القلب، سعيدة بحفظها، فسيطوي
طريق مصر سريعاً،

- وسيتنفس سحر ليل الغم، وينقضي حزن الهجر،

- لم تكن تدري أن ذلك الليل مازال حالك السواد،
وأن بينها وبين الصباح طريقاً طوله سنوات،

١٠٦٥ - وأخذ الركب يحث خطاه في النهار المضىء، وفي
الليل الحالك، إلى أن صارت مصر قريبة،

- وأرسلوا - وهم على البعد - رسولاً، ليقود هودجه
أمامهم،

- ويتحسس الطريق إلى مصر، ويبشر العزيز،

- أن السعادة قد أقبلت إليه مسرعة، «فانهض - إن
شئت - لاستقبالها»

معرفة عزيز مصر بأمر قدوم زليخا ونهوضه

لاستقبالها، وتزيينه هو وجيش

مصر

- حينما سمع عزيز مصر هذه البشرى رأى الدنيا كما لو
كانت تسير على هواه،

١٠٧٠ - فأمر بأن يخرج جيش مصر بأكمله من البلاد،

- وأن يتحلّى الجميع بكل ما يملك من ألوان الزينة،

- فخرج أفراد الجيش غارقين - من إخمص قدمهم إلى
مفرق رأسهم - فى الزينة والذهب والجواهر،

- وخرجت مئات الألوف من الغلمان ذوى الوجوه
الوردية، والجوارى الفضيات الرقاب،

- وغلمان بأطواق وتيجان ذهبية، كأنهم نخل من
الذهب، غما من مقاعد السروج،

**١٠٧٥ - وقد ازدانت الجوارى بالألوان السبعة، فى هودج ذات
ستائر مزركشة،**

- وشرع المطربون ذوو الشفاه السكرية فى الغناء، فتغنوا
بجميل الصوت مهتئين،

- وأعدّ المغنى باب الطرب، وشرع فى الألحان العذبة،
- ويحرك أذن العود انسابت فيه الحرارة، فجادت أوتاره
بألوان الألحان،
- وزفت أنغام السناى بشرى الوصال، فولد فى الأرواح
أمل التلاقى،
- ١٠٨٠ - بينما الرباب يمنح الروح الأمان من أعباء الحزن،
ويرتفع صوت الكمان بأنغام الاستحسان،
- وزفّ الدف عن الحبيب إيماءً بأنه لم يعد منه فى يد
المسافرين سوى جلده،
- وولّوا وجوههم صوب الطريق على هذا المنوال.
وأعطوا للسعادة والطرب حقهما،
- وحينما قطعوا - كالقمر - من الطريق منزلين
أوثلاثة، وصلوا إلى تلك الشمس ومن حولها من
الأقمار،
- فوجدوا أرضاً خلت من الظلمة، نصبت بها آلاف
القباب المضيئة،
- ١٠٨٥ - فكأنما هى سحب السماء غير المحدودة، أمطرت
النجوم بدلاً من البرد،
- وقد ضرب فى الوسط مخيم ملكى، اصطفت الحسان
حوله،

- وحينما رأى عزيز مصر ذلك المخيم، تبسم صباح فمه
عن نور الشمس،
- ترجل عن حصانه الملكى، وأسرع صوب الخيمة
مسروراً،
- فأسرع إليه حراس المخيم، وقبلوا الأرض بين يديه
أملأ فى السعادة،
- ١٠٩٠ - فسلم عليهم ورحب بهم واحداً واحداً، وازدهر
كالوردة فى وجوههم طرباً،
- وتساءل عن حال ذلك القمر، وعما أصابهم من
تقلبات الجو، ومشقة الطريق،
- ثم زين وجه الصحراء بالأشياء التى حملها على سبيل
الهدايا، والتى بدت له أفضل مارأى،
- من جوارٍ جميلات، سكريات الاستامة، ومن لابسى
قلنسوات ذهبية، متمنطقى الخصور،
- ومن خيل صنعت سروجها من الذهب، مزدانة
بالجواهر من ذيلها إلى أذنائها،
- ١٠٩٥ - ومن ملابس صوفية وحريرية، ومن خزائن الجواهر
النادرة،

- وأكوام من السكر المصري، وألوان مختلفة من لذيذ الشراب،
- ثم أبدى مزيداً من الشفقة، وكثيراً من الأعذار^(١)،
- وحدّد الغد موعداً للرحيل، ثم ولى وجهه صوب مخيمه.

[١] ربما يعنى الشاعر بذلك: أن عزيز مصر اعتذر عمّا لاقوه من مشقة أثناء السفر.

رؤية زليخا عزيز مصر من فتحة الخيمة، وصياحها
بأن "هذا ليس ذلك الشخص الذي رأيته
فى المنام، وتحملت الأسى عدة سنين
مر أجله"

- إن الفلك العجوز مشعوذٌ يحتال لإلحاق الضرر
بالخلائق،
- ١١٠٠ - فهو يأسر العاشق بقيوده، ملوحًا له ببريق الأمل، ثم
يسلم وصاله آخر الأمر لليأس،
- ويظهر له فاكهة الأمل أمام عينيهِ من بعيد، ثم يعذبه
بالحرمان فى آخر الأمر،
- فحينما ألقى عزيز مصر بظله فى الخيمة التى كانت
زليخا ومريبتها فيها،
- سلب الشوق إلى رؤية الحبيب العنان من يدها،
فقال لمريبتها: «يا شريكة أحزاني!
- اصنعى لى حيلةً لألقى نظرة واحدة، فإننى لا أطيق
الصبر بعد ذلك،

١١٠٥ - فحينما يصبح الحبيب جاراً قريباً، فإن الشوق إليه لا
يذكو أكثر من ذلك،

- وحينما يأخذ الظمآن قطرة ماء على شفتيه، فإن روحه
تحترق مالم تبلل فمه»

- ولما رأت المريية زليخا مضطربة، ثقت بثقا ضيقا في
تلك الخيمة، يشبه في ضيقه عين الخيام،

- ونظرت زليخا من تلك الخيمة، وتأوهت من أعماق
قلبها الحزين،

١١١٠ - قائلة: ويلاه!! لقد حدث لى أمرٌ عجيب، فقد هوى
على جدارٍ ثقيل حمله!!

- ليس هذا هو الذى رأته فى المنام، وتحملت هذه
الآلام بحثاً عنه،

- وليس هذا هو الذى خطف عقلى ولبى، وأسلم
للضياع قلبى،

- وليس هذا هو الذى باح لى بسرّه، وأعادنى من
الذهول إلى الصواب،

- فواحسرتاه!! إن حظى النّفس يتعثر، وقد خيم
النّفس على مطلع نجمى،

١١١٥ - لقد زرعت النخيل فاثمرت شوكةً، ونثرت بذور
المحبة فأنبتت آلاماً،

- وتحملت عناءً لا حدود له بغية الحصول على الكثر،
فأضحى التّنين من نصيبى فى نهاية المطاف،

- وذهبت إلى البستان أملاً فى اقتطاف الورود، فمزقت
حرايب الأشواك أذيالى،

- وما أشبهنى بذلك الظمآن فى الصحراء يجرى فى كل
صوب طلباً للماء،

- وقد سقط لسانه على شفّتيه ظمأً، وفاضت شفّته بموج
الدم ممّا تحملت من بثور،

١١٢٠ - ثم يبدو الماء أمامه فجأة من بعيد، فيجرى صوبه
متعثراً،

- فيجد فى حفرة، بدلاً من الماء، أرضاً ملحة متوهجة
من أشعة الشمس،

- أو أننى كمن ضلت راحلته بين الجبال، وقد وقع تحت
وطأة جبل من الحزن لنفاد الزاد،

- وقد تمزقت قدماه من الحجارة إرباً، فلم تعد لها
القدرة على المسير ولا الأمل فى البقاء،

- وفجأة ترى عيناه المليئتان بالدم طيف راحلته التى
افتقدتها،

١١٢٥ - فيسرع الخطى نحوها بحماس ، فيراها لسوء حظّه أسداً
مفترساً،

- أو كأنتى ذلك التاجر الذى تحطمت سفينته ، وجلس
عارياً على أحد ألواحها،

- وفى كل لحظة يختطفه الموج من مكان إلى مكان،
فيهبط به إلى الحضيض تارة، ويطفو به أخرى،

- وفجأة، يبدو أمامه زورق فتسرّه رؤيته، فبه سيهون
أمره

- وحينما يقترب منه مسرعاً، يراه تمساحاً يبغى إهلاكه،

١١٣٠ - فليس هناك بين الخلائق عاشق مثلى، وليس بين
العاشقين محروم مثلى،

- فقد فرغت كفاى من قلبى ومن حبيبى، ولذا فالحجر
على قلبى والتراب على رأسى،

- فارجمنى - بحق الله - أيها الفلك، وافتح أمامى
باب المحبة،

- وما لم تضع الحبيب فى حجرى، فلا تدعنى أسيرة
شخص آخر،

- ولا تمزق قميصى بالفضيحة، ولا تلوث ذيلى بيد
إنسان،

١١٣٥ - لقد قطعت عهداً مع مراد قلبي، أن أصون كثرى ما
وسعنى الجهد،

- فلا تحرقنى - أنا العاجزة - بغمك، ولا تسلم ليد
التين كثرى

- وكانت تداوم البكاء والعويل، وتسكب الدم القانى
من أهذاب عينيها،

- وأخذت تنوح من روحها وقلبها الممزقين، وتمرغ
وجهها على التراب ألماً،

- فدخل طائر الرحمة مرفقاً، وناداه هاتف الغيب
فجأة،

١١٤٠ - قائلاً: «ارفعى - أيتها المسكينة - رأسك عن الأرض،
فسوف ييسر أمرك بعد عسر،

- إن مراد قلبك ليس عزيز مصر، ولكنه لا يتحقق
بدونه،

- فسيمكنك عن طريقه رؤية جمال الحبيب، وعن
طريقه يمكنك الوصول إلى مرادك،

- ولا خوف عليك من صحبته، لأن قفلك الفضى
سيظل سالماً منه،

- فأسنان مفتاحه من الشمع، ومعلوم ما يتأتى من
مفتاح الشمع،

١١٤٥ - فلا حاجة بك للحفاظ على جوهرك، إذ لا يتأتى
عمل الماس من الحديد اللين،

- وطالما أن إبرته شوكةٌ نضرة، فكيف يمكن الحياة
بحجر صلد؟

- وما دام الكمّ قد خلا من اليد، فإن الخوف من الخنجر
لا يتأتى من كمّ لا يدّ فيه»

- فلما سمعت زليخا هذه البشرى من الغيب، أحنت
رأسها على الأرض شكرًا،

- وكفت لسانها عن النواح، وشفتيها عن الصياح،
وشمرت عن ساعدها لشرب الدماء كالبرعمة،

١١٥٠ - فكانت تتنفس أسى وهى تتلظى بدم غيظها، ولكنها
تأبى أن تبوح بذلك،

- فكانت عين انتظارها على الطريق، ولسان حالها
يقول: «متى تُحلّ عقدة أمرى؟!».

قدوم زليخا بصحبة عزيز مصر، وخروج
المصريين بأطباق الذهب لنشرها
على هودجها

- وفى وقت السحر، حينما دق الفلك ذو الكواكب
طبول رحلة المساء على الطيلة الذهبية،
- وتركت الكواكب محفلها أيضا، وشدت رحالها فى
صحبة الليل،
- ومن وهج تناثر الذهب من تلك الكرة، أضحى ذيل
الطاووس بلون ريش البيغاء،
- ١١٥٥ - أقبل العزيز بأبهة الملك، وأخرج القمر من خيمته
وأجلسه فى الهودج،
- ونظم الجيش من ورائها ومن خلفها، وعن شمالها
وعن يمينها، بما يليق بمقامها،
- وكأن المظلات الذهبية على مفارق الحسان ظلال
لأشجار ذهبية منتصبة،
- وكأن السرج المرصع تحت قدم كل شجرة قد صار
عرشا لكل حسناء منهن،

- فالشجرة والظل والعرش سائرة، أما السعيد فجالسٌ بينها،
- ١١٦٠ - وشرع المطربون فى الغناء، والحدادة فى الحداء،
- حتى ملئ طبق الأفلاك وصحن الصحراء بصوت
الحداء وصدى الألحان،
- ولسرعة سير الخيل والجمال، فقد امتلأ الوادى
والصحراء أهلةً وبدوراً^(١)
- ولجريها فى كل صوب كأن وجه البدر يتمزق أهلةً من
جرح الخوافر،
- وأحياناً يطلع بدر سعيد، فيتلاشى لأجله الهلال،
- ١١٦٥ - ويجرح الحصان الأرض بحافره، فيضع كف قدم
الجمال بلسماً على ذلك الجرح،
- وصار صهيل الخيل السريعة كعزف الأرغن فى آذان
تلك الغزلان السكرى، راكبي السروج،
- وأضحى صباح الحدادة أنغاماً للمستقرات فى هودج الدلال،
- وكانت جوارى زليخا مبهجات سعيدات، فقد نجت
ملائكة الوجه تلك من شيطان الهجر،
- وكان العزيز ومن معه مسرورين، فقد صارت حوراء
على هذا النمط سيدة منزله،

(١) يعنى بالهلال: حلوة الحصان، أما البدر فكناية عن خف الجمل.

- ١١٧٠ - وكان خلق زليخا مرأً وهى فى هودجها، يكاد بكاؤها
ونواحيها يصل إلى الأفلاك،
- (قائلة): «أيها الفلك! ماذا تضر لى على هذا النحو؟
ولماذا تكن لى نفاذ الصبر والراحة؟
- لست أدري ماذا صنعت بك، فتلقى بى هكذا فى
الألم والمتاعب؟
- إنك قد اختطفت قلبى منى فى رؤياى - بادئ الأمر -
ثم زدتنى ألف حزن فى يقظتى،
- فتارة تأسرنى بقيد الجنون، وتطلق عقالى بالتعقل أخرى،
- ١١٧٥ - ومادام قد ثبت يقيناً أنك سبب نكبتى، فمن العبث أن
أبحث عن دوائى منك،
- ومن كان يدرينى أنك - فى الوقت الذى أنشد العلاج
فيه - ستشردنى بعيداً عن أهلى ودارى؟
- لقد كان يكفينى جرح الحرمان، فزدت عليه جرح
الغربة،
- فإذا كان صهر الروح هو علاجك، فمعاذ الله، ماذا
يكون إذن صهر الروح؟
- فلا تضع -أيها الفلك- شركاً للخداع فى طريقى مرة
أخرى، ولا تقذف كأس صبرى بالحجارة،

١١٨٠ - إنك تعدنى أن تحقق أمنيأتى منذ الآن، وتحقق لى
الراحة من راحة روحى هذا

- وهأنذا جدّ مسرورة بذلك الوعد، ولكن ماذا أصنع
إذا كان ذلك حظى

- وبينما كانت زليخا فى هذا الحديث مع الفلك،
سمعت من يقول: «لقد آن أوان إنزال الهودج».

- وعلا صوت الدليل قائلاً «ها هى مدينة مصر، وها
هو شاطئ النيل».

- وكان آلاف الأشخاص، وقوفاً وركبائاً، مصطفىين على
شاطئ النيلوهم يصيحون،

١١٨٥ - وعلى أكفهم أطباق الذهب والدرهم، وأطباق أخرى
من الجواهر والدرّ، ليثروها على ذلك الهودج،
تكريماً لعزیز مصر،

- فكان أصحاب النشار يثرونهم بالجواهر، كما تمطر
سحب الربيع على أطراف الخميلة،

- ولكثرة ما نثرت الأكف من الذهب والجواهر، اختفى
الهودج تحت هذا الركام،

- ومن كثرة ما سكب الناس من الجواهر، فإن سنابك
الخيّل لم تصل إلى الأرض،

١١٩٠ - فكلما كانت سنابك الخيل تدور، كانت تقذف الشرر
من ارتطام الياقوت بنعال الخيل، وكأنه ارتطام للحجر
بالحديد،

- واصطف الجميع أميالاً، وكلهم يلقون بالنثار من
شاطئ النيل،

- ولكثرة ما ألقى في النيل من الدرر الملكية، ملئت أذن
كل سمكة بالجواهر فاستحالت صدفة،

- وأضحت التماسيح تمتلك الدراهم مثل السمك، من
كثرة ما بذل ناثرو الدراهم من عطاء،

- ومضوا بهذه الزينة الملكية، إلى أن أوصلهم حظهم
السعيد إلى قصر السعادة،

١١٩٥ - وكان قصرًا، بل إنه جنة الدنيا، وما القمر والشمس
إلا لبنتان في بنائه،

- قد وضع في قصر السعادة هذا عرش يفوق في جماله
كل عرش،

- وكان به صائغ حاذق، شغل بثر الجواهر والذهب
بغير حدود،

- وأوصلوا سريرها الذهبي إلى حافة العرش،
 واجلسوها كالجوهرة في العرش الذهبي،

- بيد أن روحها لم تنجُ من ألم الجراح، فكانت تجلس
في النار بسبب ذلك الذهب،

١٢٠٠ - ووضعوا على رأسها تاجًا مرصعًا، وجلوها بين
العرش والتاج،

- ولكنها كانت تحت جبل، مما خيّم على قلبها من
حزن، رغم وجود ذلك التاج الثمين،

- ونشروا على رأسها جواهر لا حدود لها، بيد أنها
كانت في نظرها سحبًا وأمطارًا من الأسى،

- ولم يَجِرْ في عينيها من تلك الجواهر التي تثير غيرة
الشمس إلا دُرر الدموع،

- فالمرء الذي تمزّق قلبه هجرًا، لو مال للعرش فإنّ ذلك
لفترة وجيزة،

١٢٠٥ - فأى رأس تتوّج في ذلك الميدان الذي تضيق فيه مئات
الرؤوس،

- فلما امتلأت عيناها بدموع اليأس، أصبح لا مجال
للدُر فيها.

تمضية زليخا عمرها فى فراق يوسف عليه السلام

وتلهفها وتأسفها مدى الأيام والليالى

- حينما ينعم القلب بمحبوبه، أتى له أن يتمنى وصال
غيره؟

- فكيف يُتاح للفراشة أن تطير صوب الشمس، طالما أن
أملها متجه صوب الشمع؟

- فلو وضعت مائة باقة من الريحان أمام البلب، لما
استراح قلبه إلا لرائحة الورد،

١٢١٠ - وإذا وقع لهيب الشمس على النيلوفر، فكيف يطمع
أن ينظر إلى القمر؟

- وحينما تودّ روحٌ ظمأى شربة ماء، فإن السكر
الخالص لا يُجدى معها نفعا،

- فقد اكتملت أسباب الجلال لزليخا، فى ذلك المنزل السعيد،

- وأصبح العزيز أمامها عبداً، ولم ينقصها شىء من
المال والذهب،

- وأما وصيفاتها فكن ورديات الرائحة والثياب، وكن لا
يسترحن ولا يتوانين عن خدمتها،

١٢١٥ - ولم تحاول الجوارى الجلوس لولههن، ولرغبتهن فى

خدمتها،

- أما الغلمان، فقد تزينوا بالقصب، وتمنطقوا
بالأحزمة، فكانوا - من إخمص القدم حتى الرأس -
في حلاوة قصب السكر،

- سود اللون، كما لو خلّقوا من العنبر، طاهرو الذيل
من الشهوة مثل الملائكة،

- فالمقيمون في الحرم - من الجوارى - مشغولون في
نظافته، والمؤمنون عليه مشغولون في تربيته،
- أما جلساتها من سيدات مصر، فممن اتّصفن بالحسن
وروعة الدّلال،

١١٢٠ - كن جميعًا في عمرها وقوامها، وكن سعيّدات معها
للطف صحبتها،

- وجلست زليخا في حجرة استقبالها مع الجميع،
فكانت الحجرة تضم الأصدقاء والغرباء على السّواء،
- كانت قد نشرت بساط السعادة، وكان قلبها ينزف دمًا
وقت أن كانت شفّتها تفتّران عن ابتسامة،

- فهي في ظاهر الأمر تحدث الجميع وتسمع منهم، غير
أن قلبها كان أسيرًا لمكان آخر،

- فشفتها غارقتان في الحديث مع الناس، وقلبها متعلق

بالحييب دائماً،

١٢٢٥ - ويسبب ذلك الحبيب الذى سرّها وأحزنها، لم يكن

يربطها بأحد رباط محكم،

- فقد كانت مع الخلائق بجسمها، أما روحها فقد

تحررت من كل خاطر،

- كان هذا شغلها من الصباح إلى المساء، وكانت هذه

أفعالها بين خلّاتها،

- فإذا أقبل الليل متبرقعاً بقناعه المسكى، جلست وحيدة

كالقمر تحت ستاره،

- واضعة طيف الحبيب على عرش الدلال، فى خلوة

أسرارها حتى السحر،

١٢٣٠ - جاثية أمامه بأدب، مستعرضة أحزانها أمامه،

- عازفة لحن نواحيها على ربابة المحنة، وقد شرعت فى

غناء غير واع،

- قائلة: «يا أمنية روحى!! يا من أخبرتنى أن مصر

مقامك!

- وقلت إن اسمك عزيز مصر فلتكن العزة - آخر

المطاف - من نصيبك،

- وليصغ من عزتك تاج الشرف، ولتظهر على وجهى

- آثار السعادة من خضوعى لك،
- ١٢٣٥ - إتنى اليوم مهجورة وغريبة فى مصر، وقد حرمت من
سعادة وصالك،
- ولا أدرى إلامَ أحترق بهذه الجراح، وأضىء مصباح
الأسى بها؟
- فأقبل، وكن نضرة بستان قلبى، وليكن وصالك بلسماً
لجراحى،
- إنَّ حالى قد آل إلى اليأس بسبب العشق، يسد أن
هاتف الغيب أذكى فى جذوة الأمل!
- وهأنذا أحيا على هذا الأمل، وأنقض عن ذيل غبار اليأس،
- ١٢٤٠ - وإنى لأدرك - بالضيء الذى غمر به جمالك قلبى -
أننى سألقاك فى خاتمة المطاف،
- وعلى الرغم من أن عينى تمطر الدم شوقاً إليك، فإنها
تبحث عنك فى جهات أربع، من الجهات الست،
- فأطيب بوقت تقبل فيه من الطريق صوبى، وتبدو
لناظرى قمراً،
- فأصير إلى عالم اللاوجود حينما أرى طلعتك،
وأطوى بساط حياتى،
- وأفتقد مقدرتى على التفكير فى أمر ذاتى، ذاهلة عن
أمرى، ضللاً وفقدان وعى،

١٢٤٥ - فلا تراني في مكانى مرة بعد مرة، وتستقر أنت روحاً
في كيانى،

- وأطرح جانباً «أنا» ونحن"، لأننى حين أبحث عن
نفسى أجذك أنت،

- فأنت أمنيته فى كلا الدارين، فحينما أجذك لا
جدوى فى أن أتحدث عن نفسى»^(١)

- كانت تقضى الليل حتى السحر فى هذا الحديث، ولا
تكف عن هذا الكلام حتى الصباح،

- وحينما كان نسيم السحر يبدأ فى الهبوب، كان
حديثها يوقع على نغمة أخرى،

١٢٥٠ - فماذا كانت تقول؟: «هبى يارياح السحر، واسكبي
عير المسك فى جيب الياسمين،

- وزينى مجتلى السرو والسوسن، وامسحى بجداول
السنبل الندى جبين الورود،

- إنك تحركين أوراق الأغصان، فتستحيل أجراساً،
وترقص الأشجار رغم أن جذورها فى الطين!!

- وتحملين رسالة العاشقين إلى المعشوقين، فتمنحين
بذلك للعاشق راحته،

[١] واضح من هذه الأبيات تأثر الجامى بابن عربى فى القول بوحدة الوجود.

- وتحضرين رسالة الدلال من المحبوبين، فتزيحين
الأحزان عن كاهل الأحبة،

١٢٥٥ - ليس على ظهر البسيطة من هو أكثر حزنًا مني، ولا
بالأرض من أدمن حياة الحزن بسبب جرح الهجر عن
نفسى،

- لقد اعتلّ قلبى فاشفيه، وكثرت أحزاني فامحيها،
- فلا مكان فى الدنيا لست موجودة به على الدوام،
- فلو كان الباب حديدًا لاخرقته، ولو أغلقوه لدخلت
من النافذة،

- فارحمينى أنا الهائمة الضالة، وحاولى أن تبخى عنه
من أجلى،

١٢٦٠ - وادخلى عواصم الملوك، واصعدى عروش المتوجين،

- وسلى فى كل مدينة عن قمرى، وابخى عن أوصاف
مليكى فوق كل عرش،

- ومُرّى بكل حديقة وكل ربيع، وتجوّلى على شاطئ
كل نهر،

- فعسى أن تبصر عيناك ذلك السّرو الجذاب على شاطئ
نهر وقت تطوافك،

- وضعى - كريمة - قدميك فى صحراء خُتن،
واستريحى فى متاحف الصين،

١٢٦٥ - وفتشى عن أنموذج لطلعة وجهه، وصيدى على شذاه
غزلاناً،

- وحينما يعتريك التفكير فى الرحيل من تلك الديار،
ففى كل سهل أو جبل تمرين به،

- لو مرّت أمامك حمامة متبختره، فتشبى بأذيالها على
ذكراه،

- ولو رأيت قافلة على الطريق، تهفو القلوب إلى
دليلها،

- فانظري بعينى إلى ملك روحى هذا، وأوصلى تلك
القافلة إلى هذا الإقليم،

١٢٧٠ - فعسى أن أقطف زهرة من غصن الأمل، حينما أرى
ذلك المحبوب،

- كانت تحمل نسيم الصباح هذه الرسالة، حتى تأتى
الشمس مسرعة فى حلبة النهار،

- وقلبها يعتصره الألم، وعيناها تسكبان الدماء،

- فإذا أضاءت الشمس المجالس، أضاءت زليخا
كالشمس مجلسها،

- واصطفت الجوارى أمامها، واستراح لرؤيتها رفاقها،

١٢٧٥ - واتخذت مكانها - بنفس الصورة - كالبارحة، مع

صفيات القلوب، نقيات الصدور أولئك،

- كان هذا حالها كل يوم وليلة، وعلى هذه الوتيرة

كانت تمضى سنَى عمرها،

- وكلما ضاق قلبها من البقاء فى المنزل، كانت تسرع

بالحيل صوب الصحراء،

- فتارة تضرب فيها خيمتها كالشقائق، وقلبها يدمى من

التأوه والبكاء،

- ثم تحكى للشقائق أسرار ذلك الوردى الوجنات،

وتفيض فى الحديث عن جراح قلبها،

١٢٨٠ - وتارة أخرى تنحدر إلى الوادى مسرعة كالسيل، تقصد

النيل بعين باكية،

وتلقى بأحزانها أمامه، تغسل فى النيل ملابس

أحزانها،

كانت تقضى عمرها بهذه الصورة، وعين انتظارها

مشدودة إلى الطريق،

- لعل حبيبها يبدو من إحدى الطرق، فيبزع شمساً أو

يبدو قمراً،

- فأقبل يا جامى، لتشخذ الهمة، ونحضر بدر كنعان^(١)

من مدينته،

١٢٨٥ - إن عين زليخا معلقة بالطريق الرئيسي، وقلبها مفعم

بالأمل،

- وقد تجاوز ألم انتظارها الحدود، فلنعالجها بوصال

حبيبها،

- فما أطيب أن يصل العاشق إلى مراده بعد طول

انتظار.

[١] المقصود به: يوسف عليه السلام.

بداية قصة حسد إخوة يوسف عليه السلام وانتظارهم للانتقام منه بالإجماع

- هكذا أعطى صاحب القلم للكلام حقه في هذا الكتاب نقلاً عن الأستاذ القديم^(١)،
- أنه: «لما رفع يوسف رأسه بالجمال، جعل قلب يعقوب أسيراً له،
- ١٢٩٠ - وأجلسه كإنسان عينه فيها، وأغمض عينيه عن أبنائه الآخرين،
- وهكذا كان يسبغ عليه ألوان المحبة، حتى أن غيرة إخوته كانت تزداد كل لحظة،
- وكان في فناء بيته شجرة زادت بها خضرتها حسناً وبهاءً،
- متشعبة بالخضرة كساكني الصوامع، يشتدُّ وجدها وجلبتها أثناء الحركة،
- راسخة في مجال الاستقامة، تلقى بظل الكرامة على الأرض^(٢)،

[١] ربما يشير بالأستاذ القديم إلى ناظم القصيدة قبله، أو من تناول هذه القصة بالشرح والتفسير.

[٢] قمت هنا بتقديم وتأخير في الترجمة ليستقيم المعنى.

١٢٩٥ - ولكل ورقة فيها لسانٌ يسبح ، وأقسم بالله ، انك انت يسبح عجب ،

- وقد تجاوزت أغصانها السماء فصارت الملائكة طيوراً لأغصانها ،

- وفي مقابل كل ابن رزقه الله كان ينبتُ من تلك الشجرة السعيدة ، الشبيهة بالسّدر

- في تلك اللحظة غصن جديد ، ينمو باتّساق مع نموّ الابن ،

- وحينما كان يصل إلى سنّ الرشد ، كان يمنحه منه عصاً خضراء ،

١٣٠٠ - اللهم إلا يوسف ، الذي لم يوافقه - لمخالفة حظه - غصنٌ من تلك الشجرة ،

- فقد كان نبتّه بستان الروح ، ولا يليق أن يتساوى معه غصنٌ خشبيّ ،

- وذات ليلة قال لوالده ، بعيداً عن إخوته ، يا من كتبَ لساءك كفاحك التوفيق ،

- ادعُ الله لي ، ضامنَ الأعمال والأراضين ، يا من كتبَ لي عصاً من الجنة ،

- تشدّ أزرى حيثما أدب ، من شبابي إلى شيخوختي ،

- ١٣٠٥ - وتمنحني الغلبة على كل أخ، في ميدان الحرب واللعب،
 - فرفع الوالد وجه التضرع إلى الله، ودعا ليوسف،
 - فهبط من السّدرّة رسول الملك الأبدي، وفي يده عصاً
 خضراء من الزبرجد^(١)،
 - لم تر جرح فأس الأيام، ولم تتحمل أمل منشار
 الزمان،
 - صلبة قوية غالية القيمة، خفيفة الوزن، لم يلحقها
 عار التلوث بالزيت أو الالوان،
 ١٣١٠ - وأخبرهم بالرسالة قائلاً: «إن هذا فضل إلهي، فهي
 عمود البلاط الملكي،
 - فلما أصبح ساعد يوسف قوياً بهذه التحفة، حطم
 ظهر حاسديه من الحسرة،

[١] يقول الثعلبي: «قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين: كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام ویدء محبة يعقوب له وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة، في صحن داره، فكان كلما ولد له ولدٌ أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصناً. فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ، فإذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه فولد له عشرة بنين فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان، فلما ولد له يوسف لم يخرج الله من الشجرة شيئاً، فلما كبر وشب قال لأبيه: يا نبي الله إنه ليس أحد من إخوتي إلا وله غصن إلا أنا، قادم الله تعالى أن يخلصني بغصن من الجنة، فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أسألك أن تهب ليوسف غصناً من الجنة يفتخر به على جميع إخوته، فهبط جبريل عليه السلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر.....».

قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس. الثعلبي... ص ١٢٢. القاهرة. (لم يحدد سنة الطبع)

- فإن تلك العصا من يد القدرة فيها، أثقل عليهم من
مائة عصا خشبية،
- وبسببها تصور كل واحد من إخوته تصوراً معيناً،
وزرع كل واحد غصناً من الحسرة في قلبه،
- وشحذ كل منهم همته على ذلك في البداية، بيد أن
عملهم أثمر الخجل في نهاية المطاف.

رؤيا يوسف عليه السلام، بسجود الشمس والقمر
وأحد عشر كوكبا، وسباع إخوته
هذا الأمر، وزيادة حسدهم

- ١٣١٥ - ما أسعده ذلك الذى تحرّر من قيد الصورة، وأغلق
عينه عن سحر السحرة!
- فقلبه يقظ، وعينه فى سبات لذيذ، ولم يرَ أحدٌ مثل
تلك اليقظة أثناء النوم،
- وقد أغمض عينه عن كل متاع زائل، ووجهه همته
لكل ما هو خالد،
- وذات ليلة وضع يوسف رأسه على وسادة أمام عين
يعقوب، وكان عنده محبوباً كعينه،
- وراح فى نوم لذيذ، مُحلّياً ياقوته العذب بالابتسامة،
١٣٢٠ - فوق الوله فى قلب يعقوب، بسبب تلك الابتسامة
الحلوة من تلك الشفة السكرية،
- فلما استيقظ يوسف من نومه، استيقظ حظه بدوره
من النوم،

- فقال له والده: «يا من يغار السكر منك، ما سرّ تلك
الابتسامة العذبة؟»

- فقال: «إنني رأيت أحد عشر كوكبًا مضيئًا والشمس
والقمر،

- وقد أدّوا جميعًا فروض الولاء، وخرّوا أمامي
سجدًا» (١).

١٣٢٥ - قال له أبوه: «كفّ عن هذا الكلام، واحذر أن تقصّ
رؤياك على أحد،

- خشية أن يعرفها إخوتك، فلا يتردّدون في أن يكيلوا
لك صنوف الأذى (في يقظتك)،

- إذ إن قلوبهم مفعمة بالحقد عليك، فأنتى لهم أن
يتركوك وهم على هذه الحال؟

- ولن يتحمّلوا هذه الرؤيا حسدًا منهم؛ إذ إنّ تأويلها
واضح كل الوضوح» (٢)،

- وعلى الرغم من أن والده أوصاه تلك الوصية، فإن،
القدر أسلم سلاسل التدبير للريح،

[١] اعتمد الشاعر في نظم هذه الأبيات على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ سورة يوسف. آية (٣)

[٢] تأثر الشاعر هنا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. سورة يوسف. آية (٤)

١٣٣٠ - فقد قصّ يوسف تلك الرؤيا على أحد الأشخاص،
فحكّاها بدوره لإخوة يوسف^(١)،

- وقد سمعت أن كلّ سرّ تجاوز اثنين، أصبح منتشرًا
على كل لسانٍ في وقت قصير،

- وقد قال أحد الحكماء: «إن هذين الاثنين ليسا إلاّ
الشفّتين، وليس من الأدب مرور السرّ بينهما».

- وما أكثر الأسرار التي تخرج من الشفّتين، فتدمى
قلوب مئات الأبطال،

- وما أطيب ما قاله ذلك الحسن القول، الحسن الفعال:
«إذا أردت أن تحتفظ برأسك، فصنّ سرّك».

١٣٣٥ - فإذا قفز طائر جارج من قيد قفصه، فلا يمكن أن تربط
قدمه بالحيلة مرة أخرى،

- فحينما سعى إخوة يوسف قصته، مزقوا ثيابهم حقدًا،

- وقالوا: «يا إلهي ماذا يجول بخاطر أيّنا؟ ذلك الذي
لا يميز ما يضره مما ينفعه،

- ألا يدرى ماذا يتأتّى من طفل؟ إن أيّ طفل ليس

[١] لم يحدّد الشاعر شخصية ذلك الشخص الذي حكى له يوسف رؤياه، وهل كان
واحدًا من إخوته أو أنه كان شخصًا آخر، وقد جاء في «تفسير فارسي تربت
جام» أن يوسف حكى رؤياه لخالته «ليا» فحكّتها لبقية إخوة يوسف، ويبدو أن
الشاعر تأثر بهذه الفكرة - يوسف وزليخا «تفسير فارسي تربت جام». أبو بكر
عتيق بن محمد سور آبادي، ص (١٠). تهران- ١٣٤٣.

خليقاً إلا بالتطفل،

- إنه ينسج لكل واحد بعض الأكاذيب، ليرفع من شأنه بها،

١٣٤٠ - ويخدع ذلك الشيخ المسكين بكذبه، فيصبح متلهفاً على صحبته،

- ويقطع حسن صلاتنا، ويستأثر بحنان الأبوة من دوننا،

- وبهذه الصورة رفع والدنا من شأنه، ومع ذلك لم يقتنع بكل هذا القدر من الاحترام،

- بل يتمنى أننا - نحن المطهرين من الآثام - نخرّ له سجداً،

- ولسنا وحدنا فحسب، بل معنا أبونا وأمناء، ولا ينبغي طلب الجاه بهذه الصورة،

١٣٤٥ - فنحن المتعلقون بأبينا لا يوسف، ونحن المحبون له لا يوسف،

- ونحن رعاته في الصحراء نهاراً، وحرّاس بيته في المساء،

- ونحن قوة ساعده على الأعداء، ومفخرته أمام

الأصدقاء، فماذا رأى منه غير الاحتيال، فيختاره على
رأسنا بهذه الصورة؟^(١)،

- فهيّا بنا نتدبر أمرنا، لنشرده بكل طريقة ممكنة،

١٣٥٠ - فطالما أنه ليس على وئام معنا فليس له من علاج سوى
التشريد،

- فينبغي أن نحزم أمرنا للبحث عن علاج، قبل أن
يقلت من أيدينا زمام الاختيار،

- فحينما تنبت شوكة بسبب نحس الطالع، فينبغي
اقتلاعها قبل أن تصبح شجرة،

- وقطعوا على أنفسكم عهداً للبحث عن وسيلة،
 واجتمعوا في مكان للتشاور.

[١] تأثر الشاعر في نظم هذه الأبيات بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَبَيْنَا مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سورة يوسف. آية (٧).

تَشَاوِرُ الْإِخْوَةَ مَعَ بَعْضِهِمْ لِتَدْبِيرِ
حِيلَةٍ لِإِعَادِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَنْ أَبِيهِ وَإِقْصَائِهِ عَنْهُ

- حينما يطرأ أمام العاقل مأزق، ويتعقد بسببه أمره،
١٣٥٥ - فإنه يستعين بعقلٍ آخر، ليساعده على الخروج منه،
- وما لم تضيئ شمعاً واحدة منزلاً، فلا بدّ من إشعال
أخرى،
- بيد أن هذا الكلام لا ينطبق إلا على المخلصين، الذين
سما شأنهم بإخلاصهم،
- ولا ينطبق على زمرة المنحرفين سيئ التفكير، فلا ينتج
عن مُعَوِّجِينَ إِلَّا مُزِيدَ اعْوِجَاجٍ،
- وحينما اجتمع إخوة يوسف للتشاور في أمره،
١٣٦٠ - قال أحدهم: «إنه قد سفك دماءنا حسرةً، فينبغي أن
نحتال على سفك دمه،
- فإذا ظفرت بعدوك، فأرق دمه، وبذلك يمكنك
الخلاص منه،

- فَإِذَا قُتِلَ، فَإِنْ هَذَا السَّرَّ يَظَلُّ مُحْتَجِبًا؛ إِذْ لَا يَصْدُرُ
مِنَ الْقَتِيلِ صَوْتُ.

- وَقَالَ آخَرُ: «أَنْ نَفَكَّرَ فِي قَتْلِ إِنْسَانٍ بَرٍّ، فَهَذَا
طَرِيقٌ إِلَى الْكُفْرِ،

- فَلَوْ أَنَّنَا نَطْلُقُ لظَلَمْنَا الْعَنَانَ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يَصِلَ إِلَى
حَدِّ الْقَتْلِ، فَنَحْنُ - آخِرُ الْأَمْرِ - مُسْلِمُونَ،

١٣٦٥ - إِنَّ الْهَدَفَ هُوَ أَنْ نَبْعِدَهُ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ، لَا قَتْلَهُ أَوْ
ضَرْبَهُ أَوْ مَوْتَهُ،

- فَمَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ نَطْرَحَهُ فِي وَادٍ شَاسِعٍ، مُحْرُومًا
مُهْجُورًا، بَعِيدًا عَنَّا،

- وَادٍ لَيْسَ بِهِ إِلَّا الْوَحُوشُ وَالشَّرَاكُ، وَلَيْسَ بِهِ مِنْ
حَسَنِ الدُّنْيَا وَقَبِيحِهَا إِلَّا الثَّعَالِبُ وَالذَّنَابُ،

- وَلَا مَاءَ بِهِ إِلَّا دُمُوعُ الْيَأْسِ، وَلَا خُبْزَ سِوَى قُرْصِ
الشَّمْسِ،

- وَلَا ظِلَّ غَيْرِ حُلْكَةِ اللَّيْلِ، وَلَا مُضْجِعَ عَدَا أَسْنَةِ
الْأَشْوَاكِ،

١٣٧٠ - فَحِينَئِذَا يَسْتَقَرُّ فِيهِ بَرَهَةٌ، فَإِنَّهُ يَمُوتُ تَلْقَائِيًّا،

- فتتخلص من حراب حيلته ومكره، دون أن نُخْضَبَ
سيفنا بدمه (١)،

- وقال ثالث: «إن هذا قتل بدوره، بل هو بديل أسوأ
من القتل نفسه،

- فانتزاع الروح بالخنجر فجأة، أفضل من الموت جوعاً
أو نظماً،

- فمن الأفضل أن نبحث في كل اتجاه عن بئر ضيقة
مظلمة،

١٣٧٥ - ونطّيح به بعيداً عن الصدارة والعزة والجاه، ونلقى به
في تلك البئر مسربلاً بالمذلة،

- عسى أن تستقر هناك إحدى القوافل، لتستريح في
ذلك المكان زمناً،

- فيدلى واحدٌ منها بدلوه، فيخرجه من تلك البئر بدلاً
من الماء،

- فيتبناه أو يتخذه عبداً، ويحثّ الخطي حاملاً إياه،

(١) تأثر الشاعر في الأبيات السابقة بقوله تعالى: ﴿اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجهُ
أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ سورة يوسف. آية (٩).

- فبتقطع صلته بهذا المكان، دون أن يلحق به أذى
منا» (١)،

١٣٨٠ - ولما حكى قصة البئر المليئة بالأذى، أبدى الجميع
موافقتهم على تلك الفكرة،

- وكانوا يجهلون أغوار بئر مكرهم، فَهَوَّوْا فيها جميعاً
دونما نجدة،

- وما إن سلكوا سبيل النفاق إلى قلب والدهم، حتى
اتفقوا على ذلك الخداع،

- وبعد ذلك ولوا وجوههم صوب عملهم، على أن
ينفذوا وعدهم في الغد.

(١) تأثر الشاعر في هذا الرأي بقول الله سبحانه. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَاةِ
الْحَبِّ يَلْتَظِطُهُ نَعَصُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ سورة يوسف. آية (١٠)

ذهب إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم، وطلبهم
أن يرافقهم يوسف في الذهاب إلى الصحراء
بغرض الترويح والتنزه

- ما أطيب هؤلاء الرجال الذين تخلصوا من أنفسهم،
مستقرين في زاوية التحرر،
- ١٣٨٥ - وتطهروا من سلاسل الطبع وكدر النفس، وصاروا
تراثاً على طريق الألم وحيّ العشق،
- لا يستقر غبارٌ منهم على قلب الأدميين، ولا يقع
عليهم منهم أي عبء،
- فهم راضون بالألا ترضى الدنيا، يحملون كل عبء
يقع عليهم،
- وإذا ناموا الليل، ناموا دونما حقد أو حسد، فينهضون
سحراً مثلما ناموا،
- وكان الناقمون على يوسف سعداء الطبع، مسرورين
عند السحر بفكر البارحة،
- ١٣٩٠ - فألستهم تقطر بالحنان، وقلوبهم تطفح حقدًا، وكأنهم
ذئاب تنكرت في صورة النعاج،

- وعزموا على رؤية والدهم، ثم جثوا أمامه على ركبهم
أدبًا،

- وفتحوا باب التملق والخداع، وتجاوزوا أطراف الحديث
من كل مجال،

- وجاسوا بين القديم والجديد، إلى أن انتهى بهم المطاف
إلى قولهم:

- «لقد أصابنا الملل من المنزل، ومتلكنا رغبة الذهاب
إلى الصحراء،

١٣٩٥ - فلو أذنت لنا، فإننا ستسجّه في الصباح لنمضي نهار
الغد في الصحراء،

- ولأن أخانا يوسف - نور العين - لم يذهب إلى
الصحراء إلا نادرًا، لصغر سنّه،

- فماذا يحدث لو تجعله رفيقًا لنا، وتتوجّ رؤوسنا بصحبته؟!
- إنه يقبع في ركن المنزل صباح مساء، «فأرسله معنا
غداً يرتع ويلعب»^(١)

- فنقطع معه سبل الصحراء تارة، ونطوف الجبال
والوديان تارة أخرى،

[١] واضحٌ من هذه الأبيات تأثر الشاعر بقوله تعالى: «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ». سورة يوسف. آية (١١).

- ١٤٠٠ - ونحلب اللبن من النعاج مرة، ونشربه أخرى،
مسرورين ضاحكين،
- ونتخذ من بساط الطبيعة ملعباً، ونشق طريقنا عبر
الشقائق،
- ونختطف التيجان من رؤوسها، ونجعل من مفرق
يوسف مجتلى لها،
- ونجعله يتبخر بين الخضرة، رافعاً أذياله كالجلجل،
- ونرعى قطع الغزلان فى ناحية، فنسيل لعاب الذئاب
فى ناحية أخرى،
- ١٤٠٥ - عسى أن يسرّ بهذه الأشياء، ويتحرّر من أحزان المنزل،
- فمع أنك تصنع آلاف الأعاجيب بالجدّ، فإن طبع
الطفل لا يهش إلا للعب،
- فلما سمع يعقوب هذا الكلام منهم، طوى عنهم
بساط الرضا،
- قائلاً: «أتى يسرّنى حملة، وقلبى يأسى لفراقه؟
- إنى أخشى أن تجلسوا غافلين عنه، فلا تدركوا من
أمره شيئاً، بسبب الغفلة،
- ١٤١٠ - فينشب ذئب معمر أسنانه فيه، فى تلك الصحراء
العتيقة المثيرة للمخاوف،

- فلا يمزق ذلك الجسد الرقيق فحسب، بل يمزق روحى معه» (١)

- فلما سمع هؤلاء المخادعون ذلك، شرعوا من جديد فى خداع آخر،

- قائلين: «لسنا ضعاف الرأى إلى هذا الحد، فلا نثبت نحن العشرة أمام ذئب من الذئاب،

- فلو يكون أسداً يخيف الناس لاذئباً، فإنه يصبح فى قبضتنا ثعلباً ذليلاً» (٢)

١٤١٥ - فلما سمع يعقوب هذا الكلام منهم، أطرق لا يبدى اعتذاراً،

- ووافق على حمل يوسف إلى الصحراء، فأذن للبلاء فى دياره.

[١] اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات - التى جرت على لسان يعقوب - من قوله تعالى: ﴿إِنِّي لِيَحْزِنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾. سورة يوسف. آية (١٢).

[٢] تأثر الشاعر هنا بقول الله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾. سورة يوسف. آية (١٢).

أخذ إخوة يوسف أخاهم من أبيهم، وإلقاؤه عليه السلام في الجب

- واحسرتاه من هذا الفلك الدّوار؛ إذ يلقي بالقمر
البهيج كل يوم في أحد الآبار،
- ويضع غزالاً ترعرع في رياض الروح في قبضة ذئب
مفترس،
- وحينما أودع يوسف تحت رحمة هؤلاء الذئاب، صاح
الفلك قائلاً: «لقد اختطف الذئاب الحمل»،
- ١٤٢٠ - وكانوا يتسابقون في إبداء العطف عليه، وهو تحت
عيني والده،
- فيضعه أحدهم على رأسه وكتفه تارة، ويحتضنه غيره
بحرارة تارة أخرى،
- وما إن وطئت أقدامهم أرض الصحراء، حتى سلطوا
عليه أكف الجفاء،
- وألقوا بحمله عن كتف الرحمة، وزجّوا به بين
الحجارة والأشواك،
- فكان يمشى على الأشواك حافي القدمين، فتخترق
مسامير الأشواك والخطب قدميه الرقيقتين،

١٤٢٥ - وحين كانت بطن قدميه تلامس حجارة الطريق ، كانت
تمزق من تأثيرها ،

- وأضحت القدم التي كان الورد يغار منها ، مضرجة
بالدماء من الشوك والحجارة ،

- وإذا تخلف - عن غلاظ الأكف هؤلاء - فإنهم كانوا
يصفعون على وجنتيه بعنف ،

- ألا فلتقطع تلك الأيدي التي تصفع القمر بالسيف
القاطع ،

- وإذا تقدمهم ، انهالت الصفعات عليه من الخلف ،
ليحاكي زرقة وجه العدو ،

١٤٣٠ - إنه أولى بتلك اليد التي ينحني ذلك القفا من إيدائها ،
أن تُشَلَّ من جذورها ،

- وحين كان يسير إلى جوارهم ، فإنهم كانوا يعركون
أذنيه من كلتا الناحيتين ،

- فلا أبقى الله في قبضة من سحق تلك الأذن إصبعًا
من أصابعه ،

- وكلما كان يتشبَّثُ بأذيال أي منهم مستغيثًا ، مزق ثيابه
غير راحم ،

- وإذا سقط باكيًا على قدم أحدهم ، وضع قدميه على
رأسه ضاحكًا ،

- ١٤٣٥ - وإن صاح بأخر نائحا، شرع فى توقيع الحان مغيرة،
 - فلما يئس منهم صرخ مستغيثا، فكان يزرع من دمع
 عينيه الشقائق على وجتيه،
 - فمرة يغرق فى دمه، وأخرى يتمرغ فى التراب، قائلاً
 والحزن يمزق نياط قلبه:
 - «أين أنت يا والدى، أين أنت؟ وما الذى أغفلك عن
 حالى هكذا؟
 - تعال، وانظر أبناء الأمة، الذين حادوا عن طريق
 العقل^(١)،
 ١٤٤٠ - تعال، تر فى أى حال أنا، وكيف تطؤنى أقدام هؤلاء
 الحاقدين!!
 - لقد ذلت عزيزك بيدك، وأبحثه لمخالب أعدائه،
 - وألقيت به فى قبضة القساة، فوضعت غزالاً فى
 مخالب الذئاب،

(١) اعتمد الشاعر فى تصوير هذا الموقف على كتب التفسير، وبخاصة تلك التى نقلت عن
 الإسرايلىات، ومن ثم ينبغى التزام الحذر إزاء مثل هذه الأفكار، ومن الممكن أن يكون
 الشاعر قد تأثر بما ذكره الطبرى فى تفسيره، حيث يقول:
 «..... فأرسله معهم فأخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له
 العداوة وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه فجعل لا يرى منهم رحيمًا،
 فضربوه حتى كانوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه! يا يعقوب! لو تعلم ما صنع
 بابتك بنو الإمام.....»
 تفسير الطبرى. ج٢. ص ٨٩. المطبعة الميمنية بمصر.

- وانظر ماذا يصنعون بتوأم قلبك، وكيف يؤدون شكر
إحسانك!!

- فالوردة التي ترعرعت في رياض روحك، وأوردتها
أمطار إحسانك.

١٤٤٥ - ذبلت هكذا ظمأً، واستلبت نصرتها، وضاع عبيرها،
- والغصن المدلل في الجنان، والذي زرعه في رياض عمرك،
- أسقطته على الأرض رياح الظلم، حتى علتة الأشواك
والأعشاب،

- والبدر الذي كان ينير ليلك، وكان بمنأى عن ظلمة الفلك،
- أصابته يد الفلك بالأذى، حتى أنه يستجدي الهلال
شعاعاً من نور!!

١٤٥٠ - وظل على هذه الحال ثلاثة فراسخ، منه السلام ومن
هؤلاء الغلاظ القلوب الحرب،

- ومنه اللين، ومنهم جهامة الوجه، ومنه حارُّ القول
ومنهم بارده،

- إلى أن وصلوا فجأة إلى حافة بئر، فتوقفوا عند
حافتها،

- بئر ضيقة مظلمة كقبر الظالم، تحار عينُ العقل في ظلمتها،
- حافتها كقم التّنين، تختطف الناس من خارجها قوتاً
لها،

١٤٥٥ - وباطنها مؤذٍ كقلب الظالم، ملئ بالأفاعى لإيذاء
الناس،

- فدائرتها مدار نقطة الأحران، وغورها خارج حدود
التفكير،

- ومحيطها ملئ بألوان الكدر، ومركزها بعيد،
وهواؤها متعفن، وماؤها ملح،

- فلو استقر فيها متنفس لحظة، لاستحال عليه التنفس،
- ولما وقع اختيارهم على تلك البئر التعسة، ليلقوا
فيها ذلك البدر الوردى الطلعة،

١٤٦٠ - استجار مرة أخرى من ظلمهم، وشرع فى البكاء
والنواح، بطريقة

- لو فهمها الحجر، لاستحال من حرقها أرق من الشمع
نعومة،

- بيد أنه كلما اشتدّ توسّل ذلك الصوت، زادت صلابه
قلوبهم الحجرية،

- وماذا أقول عما اجترموه من ظلم؟ إن قلبى لا يصدق
ما فعلوه!!

- فعلى ذلك السّاعد الذى لو مسّه خيط حريرى من
الجنة، لأصابه الألم منه،

١٤٦٥ - ربطوا حبلاً من صوف الضأن، فصار طرف كل شعرة
فيه إبرة،

- أما خصره الذى كان أرق من الشعرة، فقد أحكموا
وثاقه بحبل - آخر - من الصوف،

- ونزعوا قميصه عن جسده، فأضحى كالبرعم عرى
عن أوراقه الخضراء،

- فسربلوا أنفسهم - من جرّاء ذلك - بملايس من اللوم
تثقل أجسامهم إلى يوم القيامة،

- وحيث أدلوه فى البئر، ثم ألقوا به فى الماء من
متصف المسافة،

١٤٧٠ - وكان حسنه نوراً للكون، فألقت به المقادير فى الماء
كشمس مضيئة،

- وكان بالبشر حجر يعلو عن الماء فاتخذة مقعداً له فى
الحال (١)،

- فانظر أى سعادة وجدها أخيراً ذلك الحجر، فقد
أصبح منجماً لجواهر غالية الثمن،

[١] يقول الطبرى فى تفسيره «.... فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن
يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها....» المرجع
السابق، ص ٨٩-٩٠.

ويقول الخازن: «.... فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق واسع الأسفل ضيق
الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه.... وكان=

- ومن حلاوة شففيه الياقوتيتين، المشبهتين بالسكر،
تحوّل الماء المالح شهيداً لذيذاً،
- واستضاء البئر من نور وجته، كما يستنير وجه
الأرض ليلاً من القمر المنير،
- ١٤٧٥ - وولّت العفونة هاربةً من هواء البئر، منهزمة أمام رائحة
جدائله العطرية،
- وزحف كل حيوان مؤذٍ إلى جُحرٍ، هيبّةً من نور طلّعه،
- وكانت معه تعويذة تحتوى قميصاً، نُجّي به جدّه
إبراهيم من النار،
- أرسله رضوان إلى إبراهيم، فاستحالت النار عليه
روضة،
- وفي الحال وصل جبريل الأمين من السّدرّة، وفكّ
تلك التعويذة من ساعده،
- ١٤٨٠ - وأخرج منها القميص، ملبساً إياه ذلك الجسد
الطاهر^(١)،

= في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة كانت في البئر فقام عليها....
تفسير القرآن العظيم، الإمام على بن محمد المعروف بالخازن، ج ٢ ص ٢١٩، مطبعة
التقدم العلمية بمصر، ١٣٢١هـ.

(١) تأثر الشاعر بما ذكره الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء، حيث يقول:
«.... قالوا فلما ألقى يوسف في الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن
الطعام والشراب، ويعت الله تعالى إليه ملكاً فحلّ عنه قيده، وكان إبراهيم حين ألقى في
النار جرداً من ثيابه وقذف في النار عرياناً فأثاء جبريل عليه السلام بقميص من حرير=

- ثم قال له : «أيها المهجور الحزين!! إن الله سبحانه وتعالى يقرئك السلام،
 - ويخبرك أن هؤلاء الخونة، وتلك الفئة الضالة، سأوصلها اليك يوماً،
 - منكسة الرؤوس، وجرحها أنكى من جرحك،
 - وسوف تحصي لهم هذه المظالم، مخفياً أمرك عنهم،
 - وبينما هم يجهلون أمرك تماماً، فأنت تعرف عنهم
- ١٤٨٥ - تفصيلاً^(١)،
- فلما سمع يوسف هذا الكلام من جبريل، استراح من ألم إخوته ومحتتهم،
 - وبدأ له هذا المقعد الحجري عرشاً فجلس عليه ملكاً سعيد الحظ،
 - وأضحى الروح الأمين نديمه الخاص، يسرى عن نفسه الحزينة.

= الجنة فآلبسه إياه، وكان ذلك القميص عند إبراهيم فلما مات إبراهيم ورثه إسحق فلما مات إسحق ورثه يعقوب منه فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ وعلقه في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه، فلما ألقى في الجب عرياناً جاء الملك، وكان عليه التعويذ فأخرج القميص وآلبسه إياه....»
قصص الأنبياء المسمى بالعرائس. التلخيص. ص ١٢٦.

[٢] اقتبس الشاعر مضمون هذه الآيات من قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا ذُهِبَ بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبْتُهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. سورة يوسف. آية (١٤)

وصول القافلة إلى حافة الجب، وطلوع يوسف كالقمر

- قسماً بالله، إنها لقافلة سعيدة، تلك التي يكون فيها طالب ماء ذكي،
- ١٤٩٠ - حينما يجرّ دلوّاً من أحد الآبار، يبدو له - فجأةً - من برج الدلو قمر،
- فقد قضى ذلك القمر في البئر أياماً ثلاثة، وكأنه قمر "نخشب" في بئرها^(١)
- وفي اليوم الرابع أشرقت شمس يوسف المفقودة من جُبّ المشرق في انقبة الزرقاء،
- وارتحات قافلة من مدين إلى مصر، يحدوها حظها السعيد،
- فضلت طريقها، ووصلت إلى ذلك المكان، وألقت من أجل الراحة رجالها^(٢)

[١] فخشب: اسم مدينة تقع بين بلخ وبخارى. هذا آخر نخشب" فهو عبارة عن قمر أو جسم منسحق أخرجه المقنع أو هشام بن حكيم من أحد الآبار عندما طلب منه أحد أتباعه أن يأتيهم بمعجزة. تاريخ بخارى. أرمينوس فامبيري. ترجمة أحمد محمود الساداتى. ص ٢٩ وحاشية (١) ص ٨٢.

[٢] يقول ابن كثير: «يقول تعالى عما أمر الله من عباده من أن يلقوا إخوانهم وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً: فيمكث في البئر ثلاثة أيام... قسماً بالله سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر...» =

١٤٩٥ - وما أسعد ذلك الضال الذي يحمله الطريق إلى مكان

يكون فيه مثل يوسف دليلاً ومرشداً،

- وعلى مقربة من البئر اتخذوا منزلاً، وولوا وجوههم
صوبها طلباً للماء،

- وفي البداية، أقبل رجل سعيد - منهم - وشقّ طريقه
صوب ماء الحياة،

- وأدلى - ذلك الشبيه بالخضر - بدلوه في ظلمة البئر،
ليختبر وجود الماء،

- فقال جبريل الأمين ليوسف: «انهض، وصب زلال
الرحمة على الظمأى،

١٥٠٠ - واجلس في الدلو، شمساً مضيئة، وأسرع من المغرب
إلى المشرق،

- واجعل من حافة البئر إطاراً للسماء، وأضئ خيمة
الأفق بنورك مرة أخرى،

- وألقِ بشعاع من وجهك على العالم، وأترع الكون
ضياءً من جديد»،

= تفسير ابن كثير، ج٤، ص٤٢٣-٤٢٢. القاهرة ٢٤٦ هـ.

ويقول الخازن: «وجاءت سيارة» وهم القوم المسافرون، سمّوا سيارة لسيرهم في
الأرض، وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب
الذي كان فيه يوسف...).

تفسير الخازن، ج٢، ص (٢٢٠). القاهرة ١٢٢١ هـ.

- فوثب يوسف فى الحال من فوق الحجر، واستقر فى الدلو، كماء الحياة،

- وشدّ ذلك الرجل القوى دلوّه، وهو على علم بمقدار وزن الدلو ووزن الماء،

١٥٠٥ - فقال: «إن دلونا اليوم ثقيل، لا بدّ أن به شيئاً آخر غير الماء»،

- وحين بدا ذلك القمر المنير، صاح الرجل من أعماقه قائلاً: «يا بشرى»^(١)،

- إن البشرى التى خرجت من تلك البئر المظلمة، لهى قمر أضواء الدنيا بأسرها،

- فهو وردة ازدهرت له فى تلك الصحراء، بيد أنه أخفاها عن الآخرين،

- وحمله إلى منزله سرا، وأسلمه إلى رفاقه خفية،

١٥١٠ - حقاً! حينما يعثر محظوظ على كنز، فإنه يجد المتاعب إذا لم يُخفه،

- وكان حسّاد يوسف على مقربة من ذلك المكان يتسقطون أخباره،

[١] تأثر الشاعر فى هذه الأبيات بقوله تعالى: «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ». سورة يوسف. آية (١٩).

- فقد عودوا أنفسهم على الانتظار دائماً لمعرفة ما سيثول إليه أمره فى نهاية المطاف،

- فعلموا بأمر القافلة، وتجمعوا حول البئر لمعرفة الخبر،
- ونادوا على يوسف بصوتٍ خفيض، فلم يجبههم غير صدى صوتهم،

١٥١٥ - فاتجهوا صوب القافلة ليعيدوا يوسف إلى قبضتهم،
- وبعد طويل سعى، وشاق جهد، عثروا عليه بين القافلة،

- فأمسكوا به قائلين: «هذا عبدنا، وقد أبق وشقّ عصا الطاعة»^(١)،

- وهو غير راغب فى الخدمة، يسلك للهرب كل طريق ممكنة،

- وليس من شيمه حسن الخدمة، ولذا نبيعه ولو كان وليد منزلنا،

١٥٢٠ - فإذا أساء عبدٌ خدمته، فإنه يكتر من سيئها، ويقلّ من حسنّها،

- فمن الخير أن تبيعه بأقل الأسعار، وتستريح من

[٢] يقول البيضاوى: «كان يهوذا يأتية - أى يوسف - بالطعام كل يوم فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة: وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه». تفسير البيضاوى، ص ٣١١ المطبعة العثمانية (١٢٠٥ هـ)

اعوجاجه والتوائه،

- ونحن نبيعه بأية قيمة، ولا ترهق أنفسنا في إصلاحه
بعد ذلك»،

- واشتراه منهم الرجل الذي أخرجته من البئر بثمن
بخس،

- وكان ذلك الرجل يدعى (مالك)^(١)، فجعله مملوكًا له
بدراهم معدودة^(٢)

١٥٢٥ - وبعد ذلك شدّت القافلة رحالها، وجلسوا في
محاملهم متجهين إلى مصر،

- إنهم لخاسرون أولئك الذين يبيعون جنس الروح، إذ
يبيعونها بهذا الثمن البخس،

- فنظرة منه تساوى دخل مصر، ومتاع الروح بكلمة
واحدة منه،

- بيد أن يعقوب يدرك هذه القيمة، كما أن رليخا

[١] تكاد كتب التفسير المعاصرة للشاعر تجمع على أن اسم هذا الشخص هو: مالك بن
ظفر (نعر) الخداعي.

تفسير الخازن ح٤. ص ٢٢١، القرطبي ص ٢٢٨١ طبع دار الشعب، البيضاوى
ص ٢١١، الثعلبي ص ١٢٩ قصص الأنبياء.

[٢] تأثر الشاعر في هذه الأبيات بقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ
مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾. سورة يوسف. آية (٢٠).

بمقدورها الشراء،

- فالأحمق يعطى كثر السعادة، فيأخذه المعتوه ببضعة
دراهم.

بلوغ مالك بيوسف إلى مشارف مصر، ومعرفة
ملك مصر، وإرسال عزيز مصر لاستقباله
وطلبه إلى بلاطه

- ١٥٣٠ - حينما غاصت قدم (مالك) في الكثر دون أن يتعب
ساعده في تلك الصفة،
- لم تلمس قدمه أرض الطريق فرحًا بوجه ذلك
المحبوب،
- فكان ينعش روحه برائحته ويمضي، وكان يختصر
المسافتين في مسافة واحدة،
- وحينما اقترب من مصر، من طريقه البعيد، كانت
القصة قد اشتهرت بين المصريين،
- قائلين: «هاهو ذا مالك قد عاد من السفر، وبرفقته
غلام عبراني،
١٥٣٥ - وهو قمر منير فوق قمة الحسن، وملك سعيد على
مملكة المحبة،
- لم تر الأفلاك - بآلاف العيون التي لها - صورة مثله
في متحف الدنيا».

- فلما سمع ملك مصر هذه الشهرة، اضطربت نفسه
غيرة،

- قائلاً: «إن أرض مصر هي بستان الجمال، ومحال أن
تكون هناك ورود أجمل من ورودها،

- فالوردة التي تنمو من وردة روضة الفردوس، تلقى
بوجهها في التراب خجلاً من ورودها».

١٥٤ - وقال لعزير مصر: «أسرع لاستقبال القافلة،

- وانظر بعينيك ذلك البدر، وأحضره بنفسك إلى هذا
البلاط».

- فولى عزير مصر وجهه صوب القافلة، ونظر في وجه
راحة الروح هذا،

- فأفقدته تلك النظرة وعيه، وكاد - وهو فاقد الوعي -
أن يسجد له،

- بيد أن يوسف رفع رأسه عن الأرض، ولم يدعه
يسجد أمامه،

١٥٤٥ - قائلاً: «لا انحنت رأسك أمام أحدٍ سوى من وضع
الرأس فوق الرقبة».

- وأثناء ذلك طلب العزيز من «مالك» أن يحضره إلى
بلاط ملك العالم،

- فقال : «إني أفكر في الذهاب إلى البلاط بيد أن لى رجاء في عطفكم،
- هو أن تتركنا هذا الوقت، وتمهلنا في هذا المكان للراحة،
- علنا نستريح يومين أو ثلاثة، فنحن في حاجة للطعام والنوم من عناء السفر،
- ١٥٥٠ - ونغسل وجوهنا من التراب وأجسامنا من الأذى، ونقصد الملك بأجسام نظيفة».
- فلما سمع عزيز مصر هذا الكلام، عاد مرة أخرى إلى خدمة سيده،
- وحكى للملك قليلا عن جمال يوسف، فجعل روح الملك قرينة الغيرة،
- وأمر أن تلبس آلاف الحسان وملوك الجمال في العاصمة تيجانهن على رؤوسهن،
- وأن يلبسن الملابس المزركشة من فوق الصدور،
- ١٥٥٥ - ويتمنطقن بأحزمة مرصعة على الخصور، وثغورهن تقطر سكرًا من الابتسامة،
- وأن يخترن من حديقة الحسن من هن في رقة الورد، وطلعتهن كالورد،

- فإذا أحضر يوسف إلى السوق، وعرضن أمام عين المشتري،
- صُفِنَ جميعاً بهذه الصورة، مستعرضات أنفسهن في مقابله،
- فيكسد سوقه - ولو كان شمس الدنيا المضيئة - بذوات الوجنات المتوقدة كالنار.

ورود يوسف إلى نهر النيل، واغتساله من غبار السفر،
وجلسه في الهودج النفيس
للقاء ملك مصر

١٥٦٠ - ولما بزغت شمس اليوم الرابع، وهو موعد يوسف
الشبيه بالشمس، من حافة السماء الشبيهة بشاطئ
النيل،

- قال «مالك» ليوسف: «يا بهجة القلب! اتخذ مكانك
كالشمس على ضفاف النيل،

- وأزل عنك غبار الطريق، وامنح النيل شرف ترابك»
- فأسرعت تلك الشمس إلى النيل في الحال، حسبما
أراد «مالك»،

- ودلى يده خارج القميص، فغطى الياسمين بستارٍ من
النيلوفر،

١٥٦٥ - وخلع القلنسوة الذهبية عن رأسه، فتولد غراب الليل
من بيض الشمس الذهبى،

- ثم سحب قميصه من رأسه، فأضحى طوقه مغرباً
للقمر، وذيله مشرقاً له،

- وظهر كتفه وصدره من أحد جوانب الذيل ، كما يظهر
الصبح المضيء من الفلك الدّوار ،

- وعقد إزاره الأزرق بسرعة ، فبدا كأنه شجرة سرو
فضية أقيمت على شاطئ النيل ،

- فعلت صيحة من الفلك الأزرق (تقول) : «لقد عمرت
مصر بمجىء ذلك البدر ،

١٥٧٠ - فكم تكون سعادتي لو أننى كنت مكان النيل ، وماذا
كان يحدث لو أنى ظفرت بتقبيل قدمه؟» .

- وصار الأمر على هذا النحو بأن أشرقت الشمس ،
وسكبت ينبوع أشعتها على صفحة النيل ،

- ولما لم تر ينبوعها هذا جديراً بيوسف ، فإن ماء النيل
المصبوغ بالطمى غسل يديه وقدميه ،

- ووضع قدمه فى النيل من الشاطئ ، كما يدخل القمر
فى برج الحوت ،

- وكان فى طلوعته كالشمس المضيئة ، وغطس فى الماء
كالنيلوفر ،

١٥٧٥ - وحينما غاص جسده العارى فى الماء ، دخلت الروح
جسد الماء الجارى ،

- وما أن فك جدائل طوره ، حتى ربط بسلاسله قدم الماء
الجارى ،

- وأعدّ منه شبكة معبرة، لتصيد من أعلى الكون حتى
أسفله،

- فتارة كان يصب الماء من يده على رأسه، فكان القمر
يزين وجهه بالثريا،

- وتارة كان يحك الورد بكف يده، أو يمشط بأصابعه
أغصان السنبُل^(١)،

١٥٨٠ - ولما زال الغبار عن وجهه، والأذى عن جسده، بدا
كشجرة سرو ترعرعت على شاطئ النيل،

- وطلب القميص من حامل ملابس «مالك» وزين الورد
برداء الياسمين^(٢)،

- ولبس على صدره ديباجاً جذاباً، عليه نقوش كثيرة
جميلة،

- وأذهب بمقدار القمر بقلنسوته الذهبية، وتمنطق بمنطقة
مرصعة،

- وبتدلى طوره البهيجة، فاح هواء مصر عنبراً،

١٥٨٥ - وأجلسوه بهذا الحسن فى الهودج، وساقوا محمله
متجهين به صوب قصر الملك،

[١] يعنى بالورد جسد يوسف عليه السلام، وبأغصان السنبُل شعره.

[٢] يشير بذلك إلى ارتدائه ثوباً أبيض اللون.

- وبدا لهم عرش خارج القصر، كان الملك قد شدّ فيه رُحاله،

- وقد اصطف أَمامه كثير من الحسان، تهيّأَن لرؤية يوسف،

- فوضع الهودج أعلى العرش، ففتحت دنيا بأسرها عيونها على الهودج،

- وكانت شمس العالم المضيئة قد احتجبت مصادفة بسبب السحب السوداء،

١٥٩٠ - فقال مالك ليوسف: «يا بهجة القلب! اخطُ بِقدميك من الهودج صوب العرش،

- وأنت شمس، فارفع النقاب عن عارضيك، وزين الدنيا بنورك»

- وحينما رفع يوسف الستار عن الهودج، كأنما أَلقت الشمس بأشعتها في أعين الخلائق،

- فظن الناظر إليه أنها الشمس وقد طلعت من السحاب الأزرق،

- فنظروا إلى الشمس المضيئة، فأدركوا أن هذا الضياء من وجه يوسف،

- ١٥٩٥ - فما زالت الشمس تحتجب خلف السحب، فلا بد أن
هذا الضياء من وجه يوسف،
- وأخذ المتفرجون يصيحون من كل جانب، ضارين
أكف الحيرة،
- قائلين: «يا إلهي! من هذا الكوكب المبارك؟ الذي
يُخجل القمر والشمس معاً؟» (١)
- وظلت حسان مصر مطرقات برءوسهن، وأخذن يقرآن
في لوحة كلمات نسخهن،
- حقاً! حينما تظهر الشمس المضيئة، فلا حيلة للسُّهى
سوى الاحتجاب.

[١] يبدو أن هذه الصورة من وحى خيال الشاعر، وقد أشار الثعلبي إلى بعض الخوارق
التي بدت من يوسف، حيث يقول:

«قال مالك: ما نزلت منزلاً ولا ارتحلت، إلا استبان لي بركة يوسف، وكنت أسمع تسليم
الملائكة عليه صباحاً ومساءً، وكنت أنظر إلى غمامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه إذا
سار، ويتقف على رأسه إذا وقف، فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر أن يغتسل
فاغتسل وألبسه ثوباً حسناً وعرضه للبيع.....» قصص الأنبياء المسمى بالعرائس.
الثعلبي. ص ١٢. وقد وردت بعض هذه الأحداث في القصة المنسوبة للفريوسي.

**وصول زليخا إلى بلاط الملك
واستفسارها عن سبب احتشاد الخلائق
ورؤيتها جمال يوسف وتعرفها عليه،
واضطرابها من أجله**

- ١٦٠٠ - وكانت زليخا لا تدري أن بينها وبين يوسف مقدار خطوة أو خطوتين،
- بيد أن روحها كانت تحس بذلك، فقد احترق كبدها عشقًا،
- فلم تكن تدري من أين جاء هذا الشوق، فكانت تحتال لتسكينه،
- فخرجت إلى الصحراء متوسلة لإخراج أحزان المنزل من قلبها،
- وقضت هناك بضعة أيام في محنة، ما أكثر ما صبرت وهي تحتملها
- ١٦٠٥ - وأخذت بأسباب اللذة والطرب، بيد أن حزنها كان يزداد كل لحظة،
- فإذا زاد حزنها في الصحراء، فكان الحنين يعاودها للمتل مرة أخرى،

- واستقرت فى هودجها على ظهر الراحلة، وآثرت
العودة إلى منزلها،
- وعلى الرغم من أن وجهها كان متجهًا إلى منزلها،
فإن نظرها كان مركزًا على ساحة قصر الملك،
- فلما رأت ذلك المحفل قالت: «ما هذه الجلبة؟ أهذا
يوم الحشر فى مصر؟!»
- ١٦١٠ - فقال واحد: «إنها من أجل شخص مبارك، هذا بساط
العرض لغلام كنعانى،
- إنه ليس غلامًا، بل شمس مضيئة، نال ما يتمنى من
ملكة الجمال!!»
- فرفعت زليخا ستائر الهودج، وتعرفت على الغلام
بمجرد أن وقعت عليه عينها،
- وارتفعت من قلبها صرخة بغير إرادة، سقطت من
جرائها فاقدة الوعي،
- وفى الحال ساق صاحب الهودج الراحلة، وأوصلوها
إلى خلوتها الخاصة،
- ١٦١٥ - وما إن وصلت إلى خلوة أسرارها، حتى استعادت
وعينا مرة أخرى،
- فسألها مربيتها (قائلة): «يا مضيئة القلب!! لماذا
تأوهت من أعماقك المحترقة؟»

- ولماذا سقطت فاقدة الوعي بتلك المرارة؟ وكيف فتحت
شفتيك الجميلتين بالعويل؟» .

- فقالت: «ماذا أقول لك أيتها الأم الرؤوم؟ إن كل ما
أقوله يصبح آفةً لى!

- إن الغلام الذى رأيته فى ذلك الحشد، وسمعت عن
أوصافه من أهل مصر،

١٦٢٠ - هو قبلة روحى فى الدنيا، فلتكن روحى فداءً له، فهو
حبيبى!!

- وقد أبدى وجهه الجميل فى النوم، فانتزع الصبر من
روحى الولهة،

- والتهب جسدى، واشتعل قلبى بسببه، وغرقت عينى
فى الدم الصافى من جرائه،

- وقد هبطت بذلك الإقليم حُبًّا له، ونزلت بتلك المدينة
شوقًا إليه،

- فشرّدنى عن أهلى، وجعلنى عاجزةً فى هذا البعاد،

١٦٢٥ - إن ما شاهدتنى فيه من محنٍ بضع سنوات، وأقلّنى
من راحة الدنيا،

- كان تلهفًا لوجهه، واشتياقًا لقامته البهيجة،

- إنَّ حُزنى اليوم أثقل من الجبل، ولا أدرى ما سيثول
إليه حالى،

- فلقصر من سيكون قمرى؟ ومن ستألق لياليه بشمع
وجتته؟

- وستقر به عين من؟ وأى منزل سيصير روضة به؟

١٦٣٠ - ومن سيتحقق أمنيته من شفته التى تهب الروح، ومن

سيستريح فى كنف سروه؟

- ومن سينسج أنشوطته المسكية المجعة؟ ومن سيتباهى

بوصال نخله الفضى؟

- ومن تلك التى ستقامر بما عندها ثمنًا له؟ وتجعل كحل

عينها تراب أقدامه؟

- هل سيصلح به أمرى أو لا؟ وتصل يدي إلى تلك

السعادة أو لاتصل؟».

- فلما أدركت مرييتها سرَّ حُرقتها، بكت بسبب ما بها

من لهيب،

١٦٣٥ - وقالت: «أيتها الشمعة! احتفظى بحرارتك، واكتمى

أحزان ليلك، وآلام نهارك،

- لقد صبرت عمراً، فلا تجعلى زمام الصبر يفلت منك

اليوم،

- فعسى أن يتحقق بالصبر أملك، وترتفع من السحاب

الأسود شمسك.

عرض "مالك" يوسف فى معرض البيع، وهجوم
المشتريين عليه، وشراء زليخا إياه
بضعف ما وصل إليه ثمنه

- ما أسعده وقتاً وأطيبه زمناً، ذلك الذى يستمتع فيه
حبيبٌ بوصال حبيته،
- فيتوهج مصباح المحبة، ويجد الحبيب الخلاص من
جرح البقاء،
- ١٤٠ - فحين راج سوق يوسف لجماله، صار جميع المصريين
مشتريين له،
- وتملكت رغبة شرائه كل مَنْ فى السوق، فأراد أن
يحتويه بكل ما ملكت يداه،
- وقد سمعت أن عجوزاً اضطربت حزناً عليه، وكانت
تغزل خيوطاً بيديها وهى تقول:
- على الرغم من أن يدى قصيرة، فإنه يكفينى أن أكون
ضمن من يشترونه»
- وكان الدلال يصيح يميناً ويسرة: «من يشتري غلاماً
خالياً من العيوب؟

١٦٤٥ - وجهه مشرق الصباح المنير، وشفتاه جوهرتان من
منجم الملاحه؟

- ومن سمات صلاحه امتلاء وجهه بالنور، وعمران
صدره بأخلاق الكرام،

- ليس على لسانه غير الصدق، ولا التواء فى كلامه ولا
اعوجاج

- فبرز واحد من بينهم، بادئ ذى بدء، مشترياً إياه ببدره
من الذهب الأحمر،

- فلو أنك تريد أن تحصي ما بهذه البدره، فستجده ألفاً
من الذهب الخالص،

١٦٥٠ - وتمادى المشترون الآخرون، فأوصلوا ثمنه إلى مائة
بدره،

- وزاد عليها ثرى آخر قدر وزن يوسف مسكاً خالصاً،

- فزاد عليهم حكيم مقدار وزنه من الياقوت الخالص
والدر المكنون،

- وكانوا يزيدون الثمن بهذه الصورة، ويضيفون أنواع
التفائس،

- وعلمت زليخا بما تم، فضاعفت ذلك كله مرةً
واحدةً،

١٦٥٥ - فأغلق المشترون الآخرون شفاهم، وجثوا على ركب اليأس،

- وقالت لعزیز مصر: «يا صائب الراى! اذهب وادفع لمالك هذا المقدار»،

- فأجابها: «إن ما هو دفين عندى من الكنوز والجواهر والذهب بالخزائن

- لا يصل إلى نصف ثمنه، فكيف أوفيه حقّه كاملاً؟!»

- وكان عند زليخا صندوق ملئ بالجواهر، ليس صندوقاً بل برجاً مليئاً بالنجوم!!

١٦٦٠ - وكانت قيمة كل جوهرة من ذلك الدر المكنون قدر دخل مصر، بل تزيد عليه،

- فقالت: «أعطه هذه الجواهر ثمنًا له، يا من جواهر روحى فداه»

- فتعلّل العزيز من جديد، مرة أخرى، قائلاً: «إن ملك الزمان يميل إليه،

- ويود أن يكون هذا الطاهر الأذيال زعيمًا لغلمانه الكثر»

- فقالت له: «اذهب إلى ملك الزمان، وأدّ فروض الطاعة كما ينبغي،

- ١٦٦٥ - وقل له: ليس هناك من حزنٍ فى قلبى سوى أنى لا
أجد ابناً أمام ناظرى،
- فامنحنى علو الهامة بهذا الشرف، وأدخل هذا العبد
تحت إمرتى!!
- فىكون كوكب برجى المضى، ويكون لى ابناً،
وللملك عبداً
- وبأمر زليخا أقبل العزيز، وقص الحكاية على الملك
المبجل،
- فلما سمع الملك هذا الكلام الحلو، لم يتردد فى قبوله
التماسها،
- ١٦٧٠ - وأذن له فاشتره فى الحال، واتخذه - لفرط حبه له - ولداً،
- وحمله إلى المنزل مسروراً سعيداً، وتحررت زليخا من
قيد محتتها،
- وكانت تشقب بأهدابها جواهر دموع الفرحة، وتحك
عينها قائلة:
- «أفى يقظة أنا أم فى نوم يا إلهى؟ إن روحى سعيدةٌ
بالحبيب!
- فكم كنت أتمنى فى الليالى الحالكة أن يبيض نهارى
على هذه الصورة،

- ١٦٧٥ - وقد علا صباح ليلى السعيد، ووضع حدا لأحزان
ليلى وآلام نهارى،
- وأصبحت أنا وحيبى حبيبين متآلفين، فيحق لى الآن
أن أزهو على الفلك،
- فمن مثلى خال من الأحزان فى دار الحزن هذه؟ ومن
انتعش بعد الذبول مثلى؟
- فماذا كنت؟ سمكة فى مأتم من الدموع، ترتجف على
الرّمال الساخنة حزناً على الماء،
- فهطل سيلٌ من سحابة العناية، وحملنى من الرمال
سائلةً إلى البحر،
١٦٨٠ - ومن كنت؟ ضالة فى حلقة الليل، بلغت روحى
الحلقوم من الضلال،
- فعلا فى الأفق بدرٌ منير، بيّن لى الطريق إلى درب
السعادة،
- ومن كنت؟ راقدة على فراش الموت، تمزق حراب
الموت عروق روحى،
- فدخل الخضر فجأةً من بابى، ومنحنى ماء الحياة،
- فحمدًا لله، أن حالفتنى السعادة، وكفّ الزمان عن
إيلامى،

١٦٨٥ - فلتكن آلاف الأرواح فداءً لذلك الصالح، الذى جاء
بيوسف إلى،

- فأى ضرر لو أننى كسرت صندوق الجواهر، مادام
منجم الجواهر فى يدي؟

- وأى قيمة للجواهر أمام نقد الروح؟ فليكن كل شيء
فداءً للحبيب،

- لقد أعطيت بعض الجماد واشتريت الروح، فما
أرخص ما اشتريت بحق الله!

- ومتى يرى نفعاً فى ماله، ذلك الذى يُعطى عيسى
ويأخذ بعض الخدع؟

١٦٩٠ - فمع أننى أنفقت الخدع فقد استفدت، مادام عيسى
رفيقاً لى

- وكانت تنخل هذه الأسرار بغربال فكرها، وتسكب
أطنان الجواهر من عينيها،

- فكانت تبقى صامتة تارة أمام وجهه يوسف، بيد أن
بالحال خال من جرح الهجر،

- وتارة تتذكر هجر الماضى، فتسرّ خاطرها بوصاله.

قصة فتاة اسمها "بازغة" من نسل عاد،
كانت فريدة عصرها في مالها وجمالها وعشقها
جمال يوسف دون أن تراه ومشاهدتها جمال
الحقيقة في تلك المرأة ووصولها من الجحاز
إلى الحقيقة

- إن العشق لا ينبع من الرؤية فحسب، فما أكثر ما تنبع
السعادة من الكلمات،

١٦٩٥ - وتعرف جلوة الحسن طريقها عن طريق الأذن، فتسلب
الروح راحتها والقلب صوابه،

- وليس للدلالة عمل أكثر من أن تحكى قصة دمية
جميلة،

- فتجعل الأشخاص يعشقون دون أن يتوسط بينهم أى
أثر للرؤية،

- فقد كان بمملكة مصر فتاة جميلة، لها الزعامة على
نسل عاد،

- وضع عقيق قمها الابتسامة على درّ أسنانها، فأغرقت
مصر شهداً من ابتسامتها الحلوة،

١٧٠٠ - ومن كثرة الحلاوة فى بسمتها السكرية، صار قلب
قصب السكر أسيراً لها،

- ولما كانت تصب السكر من ياقوتها الباسم، كان
السكر نفسه يعضّ أنامله (غيطاً)،

- وكان قلب السكر يضيق من شفتها، أما الحلوى فكأنها
الزجاج على الحجر، غيرة من ياقوتها،

- ولما كانت شفتها أكثر حسناً من سكر النبات، فإنه
يصاب بالخشجل فلا يخرج من زجاجته،

- ومع أنه كان يتظاهر بالشجاعة أمام الزجاجاة، فلم
يكن يستطيع مواجهة شفتيها الياقوتيتين،

١٧٠٥ - فإنه ليس بآمن من ياقوتها العرييد، ويعلم أنها
ستهزمه مع ما له من شجاعة،

- وكانت مثار غيرة الحور هذه فتنة للدنيا، فملأت مصر
جلبةً بسبب حلو سكرها،

- فوقع الحكام فى عشقها، ومال إليها حسان المدينة،

- بيد أنها سحقّت الفلك بإكليلها، ومن ثمّ فلم تفكر
فى أىّ منهم،

- وبسبب مالها من العزّ والمال وعلوّ الجاه، فإنها لم تلق
نظرةً إلى أىّ منهم،

١٧١٠ - فلما سمعت قصة يوسف وأوصافه، تحرك حبها نحو
'وجهه القمري،

- ولما توالى الأحاديث عنه، رسخت تلك الفكرة في
قلبيها،

- فمال خاطرها لرؤيته بعد السماع عنه، حقاً! إن
السماع بذرة الرؤية!

- وكانت تدرك بنفسها مدى قيمته، فاستوفت إعداد
ثمنه،

- وهو: ألف بعير أصيلة، محملة بالديباج والمسك
والجواهر والذهب،

١٧١٥ - وكل ما كان عندها من ألوان النفائس، مما بدا لها
جديراً بأن يكون ثمناً له،

- وأعدت نفسها وسلكت طريق مصر، ولم تترك في
خزائنها شيئاً من الأموال،

- وذاع مقدمها إلى مصر، وعلت في مصر ضوضاء
جديدة،

- وأقبلت إلى مصر، ميممةً طريق يوسف، مستفسرةً
عن مكانه،

- وحينما أحيطت بموضعه علماً، أطلقت العنان لقلبيها
السعيد نحوه،

١٧٢٠ - فشاهدت جمالاً لا يحده إدراك، لكأنما هو روح منزّهة
عن التلوّث بالماء والطين،

- لم تر مثله قطّ في الدنيا، ولم تسمع من أحد عن
شبيه له على الإطلاق،

- فخرجت في البداية فاقدة الوعي لرؤيته، وتحرّرت من
نفسها من لذة فقدّها لوعيها،

- ثم استعادت وعيها بعد فقدّه، واستيقظت من نوم
غفلتها،

- وأطلقت لسانها وشرعت في السؤال، وبحثت عن
الجواهر في خزانة الأسرار.

١٧٢٥ - وقالت: «يا من يستقيم بك أمر الجمال، من ذا الذي
زين جمالك بهذا الحسن؟

- ومن الذي جعل شمس جبينك لامعة؟ حتى اقتبست
هالة القمر نورها من طلعتك؟

- وأيّ رسّام قام برسم صورتك؟ وأيّ بستانيّ تولّى
رعاية دوحتك؟

- وأيّ فرجار ذلك الذي رسم قوس حاجبك؟ ومن
الذي منح طرّتك هذه التجاعيد المسكية؟

- ومن أين ارتوت وردة وجتك النضرة؟ ومن ذا الذي
أحضرها بهذه النضرة في هذا البستان؟

١٧٣٠ - ومن الذى علم سرو قوامك حُسْنَ الخطى؟ ومن ذا

الذى علم يا قوت فمك عذب الكلام؟

- وصفحة من كتاب من وجهك القمرى؟ وكلمة فى
قلم من طرف طرتك؟

- ومن الذى أضاء عينك النرجسية المبصرة؟ وأيقظها من
نوم العدم؟

- ومن الذى أغلق بالقفل الياقوتى صندوق درك؟ ومن
الذى قوى قلبك، وغذى روحك؟

- ومن الذى حفر بئراً فى ذقنك؟ ومن أفعمه بماء الحياة؟

١٧٣٥ - ومن زين وجنتك بخالٍ عنبرى؟ فأجلس بذلك غراباً
فى حديقة؟

- فلما سمع يوسف منها هذا الكلام، نثر غذاء الروح
من فمه الحلوى،

- قائلاً: «إنى من صنع ذلك المبدع، وأنا قانع بقطرة من
بحره،

- وما الفلك إلا نقطة من قلم كماله، والدنيا إلا برعم
من بستان جماله،

- وما الشمس إلا شعاع من نور حكمته، وما السماء
إلا فقاعة من بحر قدرته،

١٧٤٠ - فقد كان جمالاً متزهاً عن العيب، مستتراً في حجاب الغيب،

- فخلق من ذرات الكون مرايا، وألقى في كل واحدة منها بصورة لوجهه^(١)

- فلو أنك أمعنت النظر، فإن كل ما هو جميل أمام عين فطنتك ما هو إلا صورة طلعت،

- فابحثي عن الأصل حين يقع بصرك على صورة، فإن الصورة تفقد جمالها أمام أصلها،

- ولو أنك تبتعدين - معاذ الله - عن الأصل، فإنك تُحرمين من النور في النهاية كالصورة،

١٧٤٥ - فعمر الصورة ليس طويلاً، كما أن لون الورد غير دائم الوفاء،

[١] هذه الأبيات تأثر فيها الشاعر بالحديث القائل: «كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً، فعرفتهم بى فعرفوني، وفى لفظ. فتعرفت إليهم فبى عرفوني»، قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف. تبعه الزركشى والحافظ بن حجر فى اللآلئ والسيوطى وغيرهم، وقال القارى: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى:

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أى ليعرفوني، كما فسره ابن عباس رضى الله عنهما، والمشهور على الألسنة. «كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فبى عرفوني»، وهو واقع كثيراً فى كلام الصوفية واعتمدوه وينوا عليه أصولاً لهم. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. إسماعيل بن محمد العجلونى. (٢-١) - ص ١٩١ (مكتبة التراث الإسلامى بحلب).

- فلو أنك تطمعين فى الدوام، فالتمسى الوفاء من
الأصل،
- فحتى الحزن، الذى يمزق أوتار الروح، يوجد تارة
وينعدم أخرى،
- فلما سمعت الابنة الحكيمة هذه الأسرار، طوت بساط
عشقها ليوسف،
- وقالت له: «حينما سمعت أوصافك، حملت جرح
الرغبة إليك فى قلبى،
- ١٧٥٠ - وسلكت طريق محبتك، وجعلت من الرأس قدمًا
للبحث عنك،
- ولما رأيت وجهك طار صوابى، وعزمتُ على أن أسلم
الروح تحت قدمك،
- ومادمت قد ثقت جوهر الأسرار، وكشفت لى منبع
الأنوار،
- وأبديت البراعة فى تحقيق المراد، وأشحت بوجهك عن
حبنى،
- وأزلت النقاب عن وجه أملى، وأرشدتنى إلى الشمس
بدلاً من الذرة،

- ١٧٥٥ - فإن مـحبـتـك الآن - ويا ب هذه الأسرار قد فتح لى -
إنما هى من قبيل المجاز،
- وحينما تفتح عينى على الحقيقة، فمن الخير أن
أتخلى عن عشقى المجازى،
- وما دمت قد فتحت عينى، فليجزك الله، فقد جعلتنى
نجيةً لروح الروح،
- وقطعت قلبى عن حب الأغيار، وأسكتتنى حرمة
الوصال،
- فلو أن كل شعرة منى تصير لسانًا، لأقصّ حكاية
عنك بكل لسان،
١٧٦٠ - فإننى لا أستطيع أن أثقب جوهر شكرى، ولا أستطيع
الحديث - قدر شعرة - عن إحسانك،
- ثم ودّعته وانصرفت، وتخلّصت من أسباب عشقه،
- وأسرعت ببناء صومعة - بعد رحيلها - على شاطئ
النيل،
- وأذنت فى المساكين والمحتاجين، بقلب قد تحرّر من
ملك العوالم وأمواله،
- فنهبوا ممتلكاتها وأموالها، وجعلوها محتاجة لقوت
ليلها،

١٧٦٥ - وقنعت بغطاءٍ ببالٍ على الرأس، بدلاً من التاج المرصع
بالجواهر،

- وربطت رأسها بخزقة صوفية، بدلاً من العصا
الذهبية،

- وعرت جسدها من الأطلس والحرير، واتخذت لنفسها
- كالمرآة - لباساً من اللبد،

- ويدها مسبحة من الخزف للتسييح، بدلاً من العقد
المصنوع من الجواهر،

- وسلكت طريقها إلى زاوية في تلك الصومعة، وولت
وجهها عن العالم صوب ذلك المحراب،

١٧٧٠ - وأحضرت رماداً من الموقد، وافترشته بدلاً عن السرير
السنجابي،

- ووضعت وسادة من الحجر الصلد تحت رأسها،
فناحت الدنيا شفقةً عليها،

- وكانت تقضى عمرها في هذه الصومعة، وتثبت
أقدامها في الطاعة،

- ولما أنهت عمرها في العبادة سرّت - كالأبطال -
بإسلام روحها،

- فلا تظن أنها أسلمت الروح عبثاً، فقد شاهدت نور
وجه الحبيب وأسلمت الروح،

١٧٧٥ - فتعلم أيها القلب من تلك المرأة البطولة! وتدرّب على
الرثاء في مآتمها،

- وابتلع أحزانك حتى لو لم تجد، وأقسم مآتماً، وإن لم
يكن عندك،

- فقد انقضى العمر في عبادة الصورة، ولم تتحرر لحظة
من التفكير فيها،

- فجمال الصورة معرض كل آونة للزوال، ومتقلب كل
لحظة من حال إلى حال،

- فلا تطأ بقدمك أرضاً صخرية كل لحظة، ولا تتنقل
كل ساعة من غُصنٍ إلى غُصنٍ،

١٧٨٠ - واتخذ مقعدك أعلى من الكون والمكان، وعشك فوق
قصر المعنى،

- فالمعنى ذو شكل واحد، أما الصورة فلها آلاف
الأشكال، فلا تطلب من الصور المختلفة راحة،

- فحيث توجد الكثرة يكون الاضطراب، ولذا فإن
الالتجاء إلى الوحدة حصنٌ منيع،

- فإذا لم تقوَ على حرب العدو، فمن الأفضل أن
تحصنه بدلاً من حربه.

تهيئة زليخا أسباب الراحة ليوسف، وخدمتها له بكل ما تستطيع

- لما أضحيت السعادة أسيرة شباك زليخا، ضربت السماء عملتها باسمها،
- ١٧٨٥ - فأغمضت عينها عن رغبات الدنيا، وأعدت نفسها لخدمة يوسف،
- فطرزت ملابس من الخزّ والديباج ملائمة له، وجميلة كقوامه،
- وتيجان من الذهب، ومناطق ذهبية، كل منها مرصع بالجواهر اللامعة،
- أعدت من كل نوع منها ثلاثمائة وستين، بعدد أيام العام، وجلست مرتاحة البال،
- وكانت تلبسه خلعة جديدة كل يوم، إن تنفّس صباح جديد،
- ١٧٩٠ - فإذا تتوّجت الشمس بتاجها الذهبي، تتوّجت مفرقه بآخر،

- وإذا نهضت السروة الباسقة برأسها، شدت خصره
على نسقٍ ثانٍ،

- أما محياه، شمس الأوبة، فلم يكن يبزغ كل يوم من
طوق قميصٍ واحد،

- وما كان سرور رياض الدلال هذا يتوج بتاجٍ واحد
مرتين إطلاقاً

- ولم يكن ذلك السكرى الشفة يربط خصره بحزام
واحد، بل كان يُجدد حزامه كقصب السكر،

١٧٩٥ - وحينما كان تلبسه تاجه الذهبى على رأسه، كانت
تطبع عليه آلاف القبلات،

- (قائلة): «فليكن تراب أقدامك تاجاً لى، وليكن
معراجى إلى أوج العظمة»

- وحينما كانت تسحب عليه قميصه، كانت تناجيه
سراً،

- (وتقول): «فليكن جسدى خيطاً فيك، ولترو غلّتى
من غمط مثلك».

- وحينما كانت تصلح القباء على قوام ذلك السرو
البهيح، كانت تقول للقباء:

١٨٠٠ - «إننى أشتهى ذلك السرو الوردى، وليتنى أضرم فى
أحضانه مثلك».

- وحينما كانت تشد الحزام على خصره، كانت هذه
الأمية تجرى على لسانها:

- ما كان أحلاه لو كانت يدى حزاماً، وما كان أطيه لو
أننى استمتعتُ بوصاله».

- وحينما كانت تمشط جدائل طرته، كانت تعلل قلبها
الموله،

- وكانت تنسج من العنبر الخالص شبكة عنبرية لضيد
روحه،

١٨٠٥ - وكانت تحتفظ به فى حجرة طعامها ليلاً ونهاراً، متعلقة
بطعام العشاء والإفطار،

- وكانت تعد موائد مختلفة، مزينة بألوان النعم العديدة،

- وكانت تعد السكر المستعار من شفتيه، ولب اللور
المستعار من أسنانه لتحليته،

- وأحضرت له من الفواكه العديدة ما كان قد اكتسب
شكل تفاحته الفضية،

- فتارة كانت تهين له شواءه من صدور الدجاج،
وتضعه أمامه كقلبها،

١٨١٠ - وتارة تصنع له أنواعًا من المربى المخصوص، الحلو
المذاق كياقوتة النضر،

- ولما كانت تصنع شرابه من خالص السكر، كان سكر
عرقها يسيل خجلًا منه،

- وكانت تحضر أمامه - فى الحال - ما يميل خاطره إليه
من كل هذه الأشياء،

- وحين كان يخامره خيال النوم فى المساء، كانت قوتها
تخور من متاعب يومه،

- فكانت تفرش له فراشًا وثيرًا، وتضع عليه الديباج
والحرير،

١٨١٥ - وحينما كان يغلق حجاب النوم نرجس عينيه، كانت
ترافق شموعه وهى محمولة،

- فكانت تجعل عينيها الثملتين ترعيان حتى السحر فى
حديقة حُسن ذلك كالقمر،

- فتارة تصبح رفيقة أسرار عينيه، وأخرى أليفة لبرعم
فمه،

- وتارة تجنى الشقائق من بستان وجنتيه، وأخرى تشتري
الورد من بستان وجهه،

- وتارة ترشف الرضاب من ينبوع فمه، وآونة تلتف
حول ذقنه،

١٨٢٠ - وتارة تتناجى مع طرته (قائلة): «يا شبيهة غُصنِ
الدَّلال!»

- إن الدم الخالص يهطل من عيني، لأن الشيطان
مضطجع مع ملاك^(١)»

- وكانت تعض ظهر يدها متحسرة، تمضي ليلها طويلاً
كطرته إلى آخره،

- وكان هذا شأنها في أيامها ولياليها، فلم يكن يهدأ لها
قرار لحظة،

- وكانت تتحمل أحزانه وتزيلها عنه، ورغم أنها سيدته
فقد كانت في الواقع خادمته،

١٨٢٥ - حقاً! إن العاشق يبيع الروح دائماً، ويسعى لخدمة
المعشوق بذاته،

- ويلتقط بأهدابه الأشواك من طريقه، ويزيل ما بقدميه
من أذى بعينه،

- ويجلس مستعداً لخدمته بعين روحه، عسى أن يلقي
عنده القبول.

[١] الشيطان إشارة إلى طرته السوداء، والملاك إشارة إلى وجه يوسف عليه السلام.

شرح يوسف عليه السلام قصة مشقة الطريق
وآلام الجب، وإدراك زليخا أن الحزن الذي أصابها
فى ذلك اليوم كان بسبب
تلك الأحداث

- هكذا يورد ناظم كلام هذه القصة الجميلة قصة أخرى بينها،
- إذ قبل وصول يوسف، كانت زليخا - ذات يوم - فى ألم ولوعة مبرحين،
- ١٨٣٠ - فارق قلبها الصبر وجسدها الراحة، وترك الصبر فى نهاية الأمر روحها الحزينة،
- فلم تكن مرتبطة بعمل فى المنزل، ولم تكن مسرورة بأحد خارجه،
- فأهدابها مليئة بالدموع، وقلبها ملئ بالدم، فكانت تدخل المنزل تارة، وتخرج منه أخرى،
- فقالت لها تلك المريية سعيدة الحظ: «يا من حطمت القمر! وجعلت الشمس ظلاً!!
- لا أصابتك قسوة ظلم الفلك، ولا لحق بك اضطراب من حيف الزمان،

١٨٣٥ - إني لا أدري ما أنت عليه اليوم، فروحك غريقة في
بخر الليل،

- إنك مثل ورقة الشجر، يعصف بها النسيم، ولا يراها
أحدٌ تستقر في مكان،

- فتارة تسقط على ظهرها، وأخرى على وجهها، وتارة
يقلبها هنا وآونةً هناك،

- لاتستريح في جانب، وليس لها من رغبة سوى
الدوران،

- فخبيريني، من هو سبب هذا الاضطراب، ومَن
أصابك هذا الألم الجديد؟.

١٨٤٠ - فقالت: «إني حائرة اليوم مع نفسي، مضطربةٌ في
أمرى،

- فلإني حزينة، ولا أدري مصدر هذا الحزن، ولا بسبب
مَن هذا المأثم؟

- إن ألما خفياً قد انتزع راحتي، وأودعني لحيف دوران
الأيام،

- وما أنا إلا تراب ساكن بطبيعته، إلى أن حلت به زويدة،

- فرغم أن وجوده ليس خالٍ من أمر الحركة، فإنه لا
يعي شيئاً عن الريح،

١٨٤٥ - فلما صار يوسف جليسا لزيخا، ولازمها على الدوام،

- وكان يروح لها ذات ليلة بأسراره، ويحكى لها أحزان الماضي وآلامه،

- وفجأة، أطلق لسانه فى ثنايا كلامه عن شرح رحلته، وقصة البئر،

- فلما سمعت زليخا قصة البئر، تلوت كالحبل،

- وأيقنت أن ما وقع بقلبها كان ذلك اليوم؛ إذ كانت روحها فى حزن حارق للروح،

١٨٥٠ - فلما شرعت فى حساب اليوم والشهر جيدا، صدق حدسها،

- حقا! إن القلب الذى يكون عارفا، يعلم أن هناك طريقا يربط بين القلوب،

- وخصوصا من مزق قلبه ألم العشق، يكون صادقا فى طريق معشوقه،

- فيُشَقُّ طريق من كل جرح فيه، وينظر إلى معشوقه من ذلك الطريق،

- ومن هذا الطريق يقع شعاع بأحوال الأحبة على أجسام المحيين وأرواحهم،

١٨٥٥ - فلو أن شوكةً وخزت قدم المحبوب، لأدمت قلب العاشق،

- ولو أن ريحاً تهبّ على طرته لاضطربت بسببها روحه،
- ولو استقر على عذاريه غبار، فإن ظهر العاشق ينحني تحت أعبائه،

- وكنت قد سمعت أن ليلى توجهت إلى الفصّاد ذات يوم بغية الفصّاد،

- فلما وخز ليلى المفصد لإخراج الدم، وهى فى حيّها جرى الدم فى الوادى من يد المجنون،

١٨٦٠ - فأقبل يا جامى! وازهد فى وجودك، وتخلص من التفكير فيه،

- فلو كان عندك فخرٌ وشهرة، فهما من ظنونك، ولو أن عندك رائحة ولوناً، فهما من تصوّرِكَ،

- فصِفْ نفسك من الحقد والمحبة الدنيويين، واصقل صفحة مرآتك،

- فعسى أن يتألق نور جمال محبوب الغيب من طوقك، مثل كليم الله،

- فتضىء عين بصيرتك بذلك النور، ولا يبقى سرّ الأحيّة محتجباً أمامك.

رغبة يوسف عليه السلام في الرعى؛ إذ إنه لم يكن
 نبياً قط لم يشتغل بالرعى^(١)، وتهيئة
 زليخا أسباب الرعى له

١٨٦٥ - ما أسعد العاشق الذي تحالفه السعادة، فيسعى لتحقيق
 رغبة الحبيب،

- ويتخلى كلياً عن رغبته، ويقبل ضرر نفسه لتحقيق
 رغبة حبيبه،

- وحينما يطلب الحبيب روحه منه، فإنه يحضرها على
 شفته ويقبل الأرض، ويودعها أمامه،

- وحينما يرغب في القلب، يدمى قلبه حزناً، ويخرجه
 من عينه بدلاً من الدمع،

- ولو يقول: «انهض»، لاتخذ من الرأس قدماً، ورفع
 رأسه عالياً في خدمته،

[١] ورد هذا الحديث في مسند ابن حنبل، حيث يقول: «حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا
 عثمان بن عمر حدثنا يونس عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر أنه قال. كنا مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم نجنتي الكباش فقال عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه،
 قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: نعم، وهل من نبي إلا قد رعا؟». مسند ابن
 حنبل؛ الجزء الثالث، ص ٢٢٦، كما ورد هذا الحديث بصورة أخرى في فتح الباري،
 حيث يقول: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم». فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٤
 ص ٤٤١ المطبعة السلفية.

١٨٧٠ - ولو قاده، لما لوى الرأس، كما لو كان قلمًا، ولو طلبه، ما لوى وجهه كصفحة الكتاب،

- فقد كانت الرغبة في الرعى تراود يوسف بالحاح،
- فلما وقفت زليخا على أمر تلك الرغبة، لوت العنان لتحقيقها،

- فطلبت - بادئ ذي بدء - من مهرة هذا الفن أن يصنعوا له مقلعًا،

- فنسجوا له حبلًا من الذهب كأنه الشمس، وجدلوه كالطرة المعنبرة،

١٨٧٥ - وكانت زليخا بدورها تتمنى أن تكون شعرة فيه،
- (وكأنها تقول): «مادمت عاجزة عن ربط نفسي به بغير سبب، فإنى بتلك الحيلة أقبل يده بين الفينة».

- وتارة تقول: «أنى يروقنى هذا؟ فإنى أسره بشعرة واحدة منى!»

- ورصعته كأهدابها بالدرّ والجواهر، بغية الجمال والزينة،

- قلو وقع الياقوت الثمين فى قبضتها، لألقت به مثل الحجارة، لتفاهة ثمنه،

١٨٨٠ - ثم أصدرت أمرها للرعاة أن يرعوا قطعانهم فى الجبال
والواديان،

- وأن يفصلوا عدة حملان نادرة، لا نظير لها ولا
مثيل،

- وكأنها غزلان «ختن»، وقد رعت السنبلى، ولم تؤذها
الذئاب قط،

- وأصوافها كالدرع، وكأنها شعر الزنبجى، أصفى لونًا
من الحرير،

- وأذئابها متساوية فى حمل أثقالها من الدسم، لطيفة
فى مشيها على الطريق من شدة ثقلها،

١٨٨٥ - فكلما ذهبت للرعى فى سهل، بدت كسيل من الزيت
متلاطم الأمواج،

- ولعلوها صفعتها الرياح، فاتخذت شكل السلاسل،

- وجرى يوسف مسرعًا بين ذلك القطيع، وكأنه
الشمس المتوهجة فى برج الحمل،

- وقد ولى وجهه صوب الخراف، وكأنه الغزال المسكى
الشارد،

- وسيرت زليخا صبرها ولبها وعقلها وروحها كلابًا
خلف الراعى،

- ١٨٩٠ - وكلّفت بعض الحرّاس، أن يحفظوه من كل أذى،
- وظلت على هذه الحال؛ لأنها تريد ألا يشعر أن
اختياره كان بعيداً عن إرادته،
- فهو راجع في الصحراء متى أراد، وسلطان في ديار
الروح متى رغب،
- بيد أن ذلك الملائكى المولد كان متحرراً في ذاته من
الملك والرعى كليهما،
- فأنى يتعلق شخصٌ من العارفين بمثل هذه الأمور
(الدنيوية)؟

طلب زليخا وصال يوسف عليه السلام وتعففه عن ذلك

- ١٨٩٥ - حينما يربط عاشق قلبه بمحجوب، لا يقرّ له قرار أبداً،
- فإن لم يجد نقد الوصال فى راحتة، وقع فى عشق
طيفه بالنسيئة،
- بيد أن دمه يسيل من قلبه، إذا انتقل أمره من القلب
إلى العين،
- وحينما تحظى عينه الدامعة برؤيته، يجول بخاطره
فكرة تقبيله - واحتضانه،
- ولو حظى بتقبيله واحتضانه، لظلّ متألماً خوف الهجر
والفراق،
١٩٠٠ - فليس فى العشق أمل لسعادة، ولا صفاء لحياة،
- فأوله سفك دماء، وآخره موت، ولا شىء غيره،
- فكيف يرتاح شخص محب، وكل همه سفك دم أو
موت؟
- فزليخا لم تسترح برؤية يوسف، لا فى المنام ولا فى
اليقظة،

- وما كانت تطمح من وراء بحثها فى أكثر من رؤيته،
- ١٩٠٥ - فلما رآته، وظفرت بسعادة النظر، رغبت فى التدرج إلى ما بعده،
- فأدارت مفتاح البحث، لتحضر يوسف فى أحضانها،
- وتحقق رجاءها بالقبل من ياقوته، وتجد راحتها بالأحضان من سروه،
- حقاً! إن المتفرج الذى يقبل صوب البستان، يصبح صدره مليئاً بالجوى شوقاً إلى الورد،
- ويصبح فى البداية ثملاً لرؤية وجهه، ويتطلع بعد ذلك إلى أن يقطفه،
- ١٩١٠ - فقد كانت زليخا تحتال للوصال، بيد أنه كان يتجنبها،
- وكانت تسكب الدم من عينيها، بيد أنه كان يهرب منها،
- وأصابها جرح عميق، بيد أنه لم يكثرث بأمرها،
- وكانت تتطلع إلى هذا اللقاء السعيد، بيد أن يوسف كان يغض الطرف عنها،
- وكانت تحترق طمعاً فى نظرة واحدة، إلا أنه كان لا ينظر إليها،

١٩١٥ - فكان لا ينظر إلى وجهها خوف الفتنة، ولا يتوجه نحوها بعين الرغبة،

- فالعاشق لا يوجه تلك النظرة إلى العين، حتى لا تقع عينه على عين حبيبته،

- فدموع العاشق وآهاته المستمرة، ليست إلا أملاً في رؤية الحبيب،

- وإذا أغمض الحبيب عينيه عن حال العاشق، فخليق به أن يذرف دم قلبه من عينيه،

- ولما حلّ هذا الحزن على زليخا، خارت قواها في أيام قلائل،

١٩٢٠ - ودخل وردها الأحمر خريف المحنة والألم، فمال إلى الاصفرار،

- فزاد على قلبها عبء الأحزان، فأحنى سروها الباسق،

- وولّت النضرة التي كانت في ياقوت شفيتها، وانطفأ ما بروض وجتها من نور،

- فلم تعد تمشط شعرها العنبري، بل كانت تقتلعه بأصابعها،

- ونادراً ما كانت تتطلع بوجهها في المرآة، اللهم إلا أن تضعه على ركبتيها،

١٩٢٥ - ومن كثرة ما سكبت من دمائها الطازجة، لم يعد
وجهها بحاجة إلى حمرة الزينة،

- واسودّ العالم بأسره فى عينيها، فأى مجال للإثم
آنذا؟

- وما كانت تبحث عن الكحل لتلك العيون السوداء،
فقد كان الدمع يغسل الكحل من نرجسها،

- فلما جرح كبدها من هذا الحزن، فتحت على نفسها
لسان اللوم،

- (قائلة): «يا من جرّك أمرك إلى الفضيحة، وابتعت
غلاماً - من ولهك - بالذهب!

١٩٣٠ - أنت ملكة على عرش العظمة، فلماذا تقعين فى عشق
عبدٍ عندك؟

- اطلبى ملكاً مثلك، يكون حبيباً لك، فلا يليق بالملك
إلا ملك مثله،

- ومما يثير العجب أن العبد لا يستجيب لوصالك، كبراً
ونخيلاً!

- ولو علمت نساء مصر بحالك، لصوّبن إليك سهام اللوم،
ولسحن لسان الطعن عليك، ولأشارن عليك
بأصابعهن كالهلال الجديد.

١٩٣٥ - كانت تقول هذا، بيد أن، فريد عصره لم يكن فى
قلبه مسكنٌ لها،

- فليتها كانت تستطيع إخراجها من خاطرها، فتداوى
آلامها بتلك الحيلة،

- حقاً! إذا امتزج حبيبٌ بحبيبه، لا يمكن للروح أن
تنفصم من رباطه،

- فيقطع رباط الروح بالجسد فى لحظة، بيد أنه يظل
محكماً إلى الأبد مع الحبيب،

- وما أطيب ما قاله ذلك الذى اکتوى بجراح العشق:
«من الممكن زوال الرائحة من المسك، واللون من
الورد،

١٩٤٠ - بيد أنه من المحال أن يُطلب من عاشقٍ التخلّى عن
أحبته».

استفسار المريية من زليخا عن سبب احتراقها وانصهارها بسبب مشاهدة شمع جمال يوسف

- لما رأت المريية زليخا بهذه الصورة، سألتها عن حالها،
والدمع يهطل من عينيها،
- (قائلة): «يا من أضاءت عيني برويتك! وقلبي بستان
من صورة وجنتك!
- إن قلبك ملئ بالآلم، وروحك مفعمة بالملل، ولست
أدرى ما أنت عليه الآن؟
- إن راحة نفسك أمامك دائماً، فلماذا تحترقين لعدمها؟
- ١٩٤٥ - ولو كنت قد ابتعدت عنه، لعُذرت في احتراقك،
- والآن، لماذا هذا الاحتراق وأنت في عين الوصال؟
وما سبب إحراق شمع الروح بجراحه؟
- ولمن من العشاقين مُنحت هذه السطوة، فطأطأ
معشوقه له الرأس إذعاناً؟
- إنه طالعك السعيد فقط هو الذي أتى بسلطانك،
وجعله لك عبداً،
- وهو قمرٌ جدير بتاج الملك، وبات تحت إمرتك، فماذا

تريدين بعد؟

١٩٥٠ - فلتسعدى، ولتسرّى بوجهه، ولتحرّرى من أحزان الدنيا،

- ولتحققى رغبتك من سروه الشقائقى، ولتهدئى بمشيته الجميلة،

- فانظرى إلى شفته، وأنعشى الروح بها، وارشفى زلال السعادة منها.

- فلما سمعت زليخا هذا الكلام من مريبتها، ضاعف دم قلبها دموع عينيها،

- وأخذت تسحّ دم القلب من سحاب عينيها، وأخذت تسرد أمامها قصتها المؤلمة،

١٩٥٥ - وقالت «أيتها الأم الرؤوم! أنت لست عالمة بالتأكيد بجلية الأمر،

- ولا تعلمين ماذا أحوى فى قلبى، وماذا أكن لروح الكون هذا؟

- إنه يقف أمام وجهى للخدمة، بيد أنه لا يؤدى لها حقّها،

- ولا يكون بعيداً عنى وقتاً من الأوقات، بيد أنه لا ينظر نحوى،

- فينبغى السعويل على الظمان، الذى على شفّتيه الماء،

وعليه أن يعيش غصّانًا،

١٩٦٠ - فهو يصرف عينيه إلى ظهر قدمه، إذا أضاء وجهي

شمع الحسن،

- ومع ذلك فأنا لا أسعى لإيذائه، فربما يكون ظهر

قدمه خيرًا من وجهي،

- وحينما أفتح عليه عيني الفاحصة، فإنه يجعد جبينه،

- وليس من حقى أن ألومه على ذلك العبوس، فإن ما

يصدر منه ليس خطأ،

- وبقلي من حاجبيه عقد، ليس لأمرى استقامة بسبب

انحنائها،

١٩٦٥ - وهكذا تعقد أمرى بسببه، وعسر نظرى إليه،

- وفمه الذى يشحّ عن الكلام، ماذا نلت منه إلا احتساء

الدم؟

- وأشتاق إلى شفّتيه الياقوتيتين، فتحول دموعى دمًا

خالصًا،

- وقامته، ذلك الغصن الذى تجسّدت فيه رغبتى، نادرًا

ما تميل نحوى بالرحمة،

- فحينما أرغب فى جنّى تفاحةٍ من غصنه، أرى كل

الأذى دون جنى التفاحة،

١٩٧٠ - وحينما أشتاق لبئر ذقنه، يجعل موضع راحتي بئر
الأحزان،

- إني في غيرة دائمة من كم ثوبه، فإنه يستقر على
ساعديه بالحيلة،

- وأمزق الروح داخل صدري، غيرةً من قميصه، فإنه
يحنى وجهه على التراب أمام أقدامه،

- فبكت المربية لسماع هذا الكلام، فلا تمكن الحياة وسط
هذه الحالة المؤلمة،

- فالفراق الاضطراري من الزمن، خيرٌ من الوصال بهذه
المرارة والصعوبة،

١٩٧٥ - فأحزان الهجر تسبب ألماً واحداً، أما مثل هذا الوصال
فيحدث ألواناً من الشقاء.

إرسال زليخا إلى يوسف لتطلب إليه تحقيق رغبتها، وامتناعه عن ذلك

- حينما رأت زليخا، وهى فى حزنها، الرحمة والعطف من مربيتها،
- قالت: «يا من طلبت منك العون مائة مرة، وكنت مخلصاً لى فى كل عمل،
- فلتساعدنى مرة أخرى، وانظرى إلى أحزاني، وأزيلها عني،
- واسعى نحوه من أجلى، وكونى لسانى عنده، وخبريه عني،
- ١٩٨٠ - وقولى له: «أيها الغُصن الشامخ المتدلل، يا من تضيفى وجتاك على الورد رقتهما،
- ولم ينبت مثل قامتك سروٌ شامخ من بستان الجمال، وحديقة الدلال،
- لقد عجنوا من الروح والقلب طيناً وماءً، وزرعوا فيها غصنا من حديقة الجنة،

- فلما أينعت أوراق ذلك الغصن، أطلقوا عليه بجرأة
سرواً باسقاً،

- إن عروس الزمن منذ قدر لها أن تلد، لم تنجب أظهر
منك،

١٩٨٥ - وعين آدم مضيئة بينوتك، والدنيا نضرة بورد وجهك،
- لقد فاق جمال حسنك تصور البشر، وليس لأحد
الملائكة نصيب من جمالك،

- ولو لم يصب الجن منك حياء، لما بقيت متوارية منك
في ركن،

- ورغم أن الملائكة في السماوات العلا، فإنها تخر
سجداً على الأرض أمام وجهك،
- وبهذه الصورة، ارتفعت مرتبتك عالية، فألق بظلك
على المبتلى بك،

١٩٩٠ - فرغم أن زليخا جذابة، فقد سقطت أسيرة هواك،
- وجرحك على صدرها منذ الطفولة، تأسرها الأحزان
من ولها بك

- رأتك في وطنها ثلاث مرات في الأحلام، ولهذا
ظلت محمومة زمناً،

- فتارة تتماوج كالماء، وتارة كنسيم السحر،
- والآن، صيرها العشق كالشعرة، ولا رغبة لقلبها في

سواك،

١٩٩٥ - وقد أضاعت نقد حياتها فداءً لك، فارحمها، فإن

الرحمة مستحبةٌ في النهاية،

- ففي شفّيتك زلال الحياة، فماذا يحدث لو صيّبت
قطرةً عليها،

- واسمح لها أن تحقّق رغبتها من ياقوتك، فعسى أن
يريحها ذلك من حرقة قلبها،

- وأنت بقامتك، غصنٌ مثمر، فماذا لو أكلت من
فاكهتك؟

- فطأً بقدميك حتى تلقى برأسها على قدميك، وتجنّى
الرطب من قوامك الجذاب،

٢٠٠٠ - فكم يتضاءل الملك من جاء مثلك، لو نظرت
صوبها،

- فهي تودّ بكل ما لديها من عزة، أن تكون خادمة أمام
جواريك»،

- فلما سمع يوسف هذا الكلام من المربية، فتح شفّيته
الياقوتيتين بالإجابة،

- وقال لها: «يا من أنت عالمة بكل الأسرار، لا تنفّثي
سحرك لخداعي،

- لقد اشتريت بالذهب عبداً لزيخا، وما أكثر ما رأيت

من الإكرام منها،

٢٠٠٥ - وما طينى ومائى إلا من صنع يديها، وما قلبى

وروحى إلا راعيان لوفائها،

- فلو أحصيت أنعمها علىّ دهرًا بأكملها، فلن أوفيها حقها،

- وإنى أضع رأسى طوع أمرها، وها أنذا واقفٌ
لخدمتها،

- ولكن خبريها ألا تُسرّ بأن ألوى رأسى عن أمر الله،

- أو أن أخطو بقدمى فى ركن المعصية، تدفعنى النفس
الأمّارة بالسوء،

٢٠١٠ - ذلك أن العزيز قد تبّنّانى، واعتبرنى أمينًا على منزله،

- ولست سوى طائر تربى على مائه وحبّه، فكيف
أخونه فى منزله؟

- ولله الطاهر فى كل طبيعة بشرية على حدة شأنٌ
وحكمة،

- فالأعمال الطاهرة تصدر عن الطاهرين، والزنا لا
يصدر إلا عن زانٍ،

- وكما أن الكلاب لا تولد عن آدميين أو العكس، فإن
الشعير لا يتأتى عن القمح ولا العكس،

٢٠١٥ - وإتني أحوى فى صدرى سرّ إسرائيل، وفى قلبى العلم عن جبريل،

- فلو كنت جديراً بالنبوة، فإننى أستحق ذلك عن إسحاق،

- وأنا وردةٌ كمنت فيها الأسرار، ازدهرت فى بستان خليل الله،

- فمعاذ الله أن أرتكب عملاً يبعدنى عن طريق هؤلاء القوم،

- فانصحى زليخا أن تُنحى هذه الأمنية جانباً، ولتعذر قلبها وتعذرنى،

٢٠٢٠ - فإن عندى من فضل الله الطاهر، الأمل فى عصمة النفس الأمّارة.

**ذهاب زليخا إلى يوسف بنفسها وتضرعها إليه
واعذاره عن تحقيق مرادها، وإصراره على
القيام بأعمال الخدمة لها**

- لما قالت المربية هذا الكلام لزليخا، اعترافا اضطراب
من قولها،
- وصبت دم كبدها من أهداها على وجنتيها، وسكبت
العناب النضر من لوز عينيها الأسود،
- وتبخترت بسروها الباسق، وألقت بظلها على رأس
ذلك المدلل،
- وقالت له: «يا من رأسى موطن قدميك، لا خلت
رأسى من هواك!
- ٢٠٢٥ - إتنى لست خالية من حبك قيد شعرة، ولا أحسن
بوجودى على الإطلاق،
- فطيفك هو الروح فى جسدى، وأنشودة حبك طوق
لعنقى،
- فإن كانت لى روح، ففى عشقك ترعرعت، وإن كان
لى جسد، فأنت الذى أوردت روحه مورد الردى،

- فماذا أقول عن حالى وحال قلبى؟ فما هو إلا قطرة
من عيني الدامية،
- ولذا فأنا غريقة فى لجة عشقك، الذى غطّانى من
القدم حتى المفرق،
- ٢٠٣٠ - حتى الحجام الذى يبحث عن الدم فى جسدى،
يستنزف عشقك بدلاً منه.
- فبكى يوسف حينما سمع هذا الكلام، فتأوهت زليخا
قائلة: «ما سبب هذا البكاء؟
- إنك عيني! فكيف أضحك وأنا أرى عيني تدمع؟
- فتسكابك الدموع هو إلقاء للهب والنار فى روحي،
- وإننى أعلم أن من معجزات حسنك أن تلقى فى
روحي ناراً من دموعك.
- ٢٠٣٥ - فلما رأى يوسف الأحزان الزائدة منها، نشر الجواهر
من فمه، كما نشرها من عينيه،
- وقال: «أما البكاء، فلأن قلبى محطّم، لأن حب
الناس ليس مباركاً علىّ،
- فحينما خطت عمّتى فى طريق حبيبى، وصممتى فى
الدنيا بالسرقة،
- ولما أحبنى والدى أكثر من أخوتى، زرع بذلك بذرة
الحقد فى أرواحهم،

- وأبعدونى عن جوار والدى، وعزلونى فى أرض مصر،

٢٠٤٠ - فقلبى يدمى فى صدرى لحظة فلحظة، فأى شىء
سيجلبه عشقك على؟^(١)

- حقًا! إن سلطان المعشوقين غيور، لا يودّ له شريكًا فى
ملك عشقه،

- ولا يريد - من البداية إلى النهاية - أن يشاركه أحدٌ
فى هذا المجال،

- فحينما تشمخ سروة بحسنها، يذلها كالظل تحت
قدميه،

- وحينما تتألق وجنة القمر بالجمال، يحرق هالته بىرق
غيرته،

٢٠٤٥ - وحينما تصل الشمس أوج الفلك الدّوار، فإنه يقلبها
نحو المغرب،

- وحينما يعلو القمر ممتلئًا بالنور، يصيبه ألم المحاق،

[١] يقول البغوى «... وروى أن الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف لما رأيا يوسف قالاهما: لقد أحبيناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحبانى فوالله ما أحببته أحد قط إلا دخل على من حبه بلاء!! لقد أحببتنى عمتى فدخل على بلاء، ثم أحببتنى أبى فألقيت فى الجب، وأحببتنى امرأة العزيز فحبست.....». تفسير البغوى على حاشية الجزء الرابع من تفسير ابن كثير ص ٤٤١.

- فقالت زليخا: «يا عيني ومصباحي! إن ضياءك قد
شغلني عن ضوء القمر،

- إنني لا أقول إنني عزيزة في نظرك، بل إنني أقل
جارية في جواريك،

- فماذا يحدث لو دللت جارية، وخلصتها من قيد
محتتها؟

٢٠٥٠ - ولا يتأتى من أقل الجوارى هذه إلا شوق قلبها،
وحرقة صدرها،

- وليس مستحباً أن تظن العدا بى، وأنا التى أحبيتك
أكثر من روحى،

- إن أحداً لا يود إيذاء روجه، ولا يتمنى لها أية آفة،

- إن قلبى قد انفطر بسيف حبك، فأى خوف يعتريك
من حقدى؟

- فتلطّف، وأنلنى رغبتي من شفّتك، واسترح ساعة،
وجدّ على بالراحة،

٢٠٥٥ - واخْطُ في صحبتي خطوة، وانظر إلى سعادتي
الأبدية،

- فأجابه يوسف قائلاً: «يا مولاتى! إننى مقيدٌ أمامك
بقيد العبودية!»،

- ولا أملك عملاً خارج نطاقها، فميرنى بالعمل على قدر العبودية،

- ولا تبحنى عن سيادة عبدك، فتخجلية بهذا العطف،

- فمن أنا حتى أصبح أليفاً لك؟ وأصير شريكاً للعزير فى مائدته؟

٢٠١٠ - فينبغى على السلطان أن يقتل ذلك العبد الذى يتذوق الملح من مملحته،

- وخير لى لو شغلتنى بعمل، حتى أصرف فى إنجازه عمراً،

- فإنى لا أدير الرأس عن خدمتك، وأوفى حقها بكل جهد،

- إن العبيد يحررون بحسن الخدمة، ويسرون بصحيفة إعتاقهم،

- وإن الخاطر ليسرّ تمن يجيدون الخدمة، ولا يطلق سراح عبد سيئة خدمته،

٢٠١٥ - فقالت زليخا: «أيها النجم المبارك، إنى أمامك أقل من جارية،

- إنى حيشما يلوح عمل أمامى، يكون تحت قدمى فيه أكثر من مائة عبد،

- فأية سعادة فى أن أتركهم وأضعك أمامى فى كل عمل،
- إن القدم خلقت لتكون من أجل السير فى الطريق،
- ولا ينبغى أن تعد العين كالقدم،
- إنك حينما ترى الطريق مليئًا بالأشواك حيث تضع قدميك، فإنك سترى الأذى لو وضعت عينيك،
- ٢٠٧٠ - فلما سمع هذا الكلام منها قال: «يا من اتحدت روحك وقلبك فى حبى!!
- لو كنت صداقة - كالصباح - فى حبى، فلا تتنفسى إلا حسب ما أشتهى،
- وما دامت رغبتى هى أداء الخدمة، فإن النقيض من ذلك ليس من شروط الصداقة،
- فالقلب المبتلى بعشق الحبيب، لا همّ له غير رضاه،
- ويقامر برضا نفسه فى سبيل إرضائه، ويضع وجه الرضا على تراب قدميه»،
- ٢٠٧٥ - ولم يكذ يفرغ يوسف من هذا الكلام، حتى أوى إلى الخدمة خوف الصحبة،
- فقد كان يخشى -الفتنة والاضطراب من صحبتها، فتوسّل بالخدمة ابتعادًا عنها،
- فما أطيب القطن الهارب من النار، لأنه لا يستطيع مقاومتها.

إرسال زليخا يوسف إلى البستان، وتهيئة أسباب المتعة وإعدادها له

- هكذا روى بستانى هذه الحديقة، عن الشيوخ
القدامى،
- أنه لما نثر يوسف السكر الطازج على زليخا من شفته
التي تمضغه،
- ٢٠٨٠ - وكان لزليخا بستان، وياله من بستان، فقد كان قلب
إرم يلتاع حسرةً منه،
- وقد أحاط به سور من الماء والطين، ونبتت الزهور
الحمراء فى جوانبه،
- وتشابكت أغصان أشجاره، واحتضنت بعضها فى
جراة،
- ووقفت جذور «الچنار»^(١) على أطراف السّرو،
وتعلقت أيديها الشبيهة بالحمائل برقبتة،
- وقد جلس الورد فى هودج من البرعم، بينما ظلل
الرّمان مفرقه بمظلتة،

[١] اسم شجرة فارسية.

٢٠٨٥ - وساحة الميدان خميلة لجذور البرتقال، ففي يدها

البرتقال، وفروعها البكرة والصولجان،

- وقد اختطف كرة اللطف من الجميع في ذلك الميدان
الخالى من الآثام،

- وقد بسط النخيل قامته الباسقة، فأضفى على الحديقة
من حسنه الزائد،

- وكل ثمرة منه فيها محصول من الحلوى يأخذ منها
متعبو الأرواح نصيبهم،

- أما ثدى التين فكان كالمرضعة امتلاً باللبن من أجل
صغار الحديقة،

٢٠٩٠ - فكل طائر أكل ثمر التين، ملأ فمه كطفل رضيع،

- وضوء الشمس في ساحتها، في منتصف اليوم،
يتوهج من نوافذها الخضراء،

- واختلطت الشمس بالظل، فزَيْن الأرض بالمسك
والذهب،

- ومن حركة وهج النور في الظل، بدا كأجراس ذهبية
لدقٍ صنع من الورد،

- وشرعت العنادل في الغناء على نغمات الأجراس،
وأخذت تصيح في هذا القصر الفيروزي،

٢٠٩٥ - ويسبب هبوب الريح وظل الصفصاف، فإن آلاف

الأقمار كانت ترتجف فى الأنهار،

- ومن أجل تنظيف الحديقة - مما هو حسنٌ وقبيح -

صار ظل كل فرع مكنسة،

- وأرضها لوحٌ للتعليم، وخضرتها مثل الخط على

صفحته، وامتدت أنهاره كالسطور الفضية،

- وقرأ العقلاء رموز صنع الله البارى، من ذلك اللوح

المسطور،

- فوروده الحمراء تبدو كأنها حسان مدللة، ووجه

الأصفر منها كلون العاشق،

٢١٠٠ - وثنى الصبا طرة البنفسج، وأسدل شعور السنبل،

- واحتضن الياسمين الشقائق - والريحان، واكتست

الأرض بخضرة حريرية نضرة،

- وقد تقارب فى متزه الحور هذا حوضان من المرمر

الصافى، وكأنهما البلور،

- وبينهما - كالعينين - مسافة قليلة، وكل منهما يشبه

صاحبه تمامًا،

- ليس فيها أثرٌ للنحت بالقادوم، ولا خدش من

منحت،

٢١٠٥ - ولا يربطهما أى رباط أو وثاق، ولهذا يحار فيهما فكر
العاقل،

- فكل من نظر إليهما، خيل إليه أنهما خلقتا من غير
صنعة صانع،

- ولما كانت زليخا تتجه إلى تلك الروضة لتسكن قلبها
المكتئب،

- كانت تملأ أحدهما باللبن، والآخر بما مذاقه الشهد،
- وكانت جوارى ذلك القمر - الذى مهده الفلك -
يسقيناها اللبن من هذا، والشهد من ذاك،

٢١١٠ - وقد أقيم عرش بين الحوضين لسعيدٍ مثل يوسف،
- وقد رضيت بترك الكلام فى صحبتِه، وأرسلته إلى
ذلك البستان للخدمة،

- وقد حكى بلبل الحديقة للوردة (قائلا): «يا لها من
حديقة جميلة! وما أجمله بستانى!

- فحينما يكون البستان جنة المأوى، فمن يكون البستانى
غير جورٍ ورضوان؟».

- ومائة من الجوارى الجميلات، صدورهن كالياسمين،
أبكار طاهرات الذيل،

- ٢١١٥ - وقفن هناك كالسرو المدلل ، ولازمه لخدمته ،
 - وقالت له : «يا من رأسى موطئ لقدمك ، لقد جعلت
 التمتع بهؤلاء الدُمى حلالاً لك ،
 - فلو كنت محرمَةً عليك فى نظرك ، وقد بلغت حدَّ
 اليأس من هذا التصرف ،
 - فاخطُ صوب من تريد ، وحقق مُناكَ من وصال من
 تحب ، وحقق رغبتك ، فإن أيام الشباب هى أيام
 السعادة والهناء» .
- ٢١٢٠ - وأوصت الجوارى بكثيراً ، قائلة : «يا حلوات الشفاه !
 خذن حذركن !»
 - واجتهدن فى خدمة يوسف بأرواحكن ، وإن أعطاكُنَّ
 السمَّ بيديه فاشربنه ،
 - ولو طلب منكن الروح ، فجدن بها ، وتفاخرن ببذلها
 فى سبيله ،
 - وافرحن بكل أمر يصدره ، وانصعن تحت إمرته ،
 - بيد أنه ينبغى على كل من تحظى به أن تخبرنى قبل كل
 شئ» .
- ٢١٢٥ - كأنما كانت تنقش صورة خادعة على لوح الرغبة ،
 كنافذى الصبر :
 - فكل من تسره من بين الحشد ، ويميل نحوها عند النوم ،

- فإنها تضع نفسها مكانه خفيةً، وتأكل الثمار من غصنه
الجذاب،
- وتجلس تحت نخله الجميل، وتجنّي الرطب، بيد أنها
تجنّيه خلسةً،
- فلما أجلس يوسف فوق العرش، وتشرن الأرواح
والقلوب لاجتذابه،
- ٢١٣٠ - ووقفت الجوارى أمامه، وأحنين سروهن الباسق
لخدمته،
- تركت روحها وقلبها أمام الحبيب، وسلكت بجسدها
الطريق صوب مسكنها،
- فما أسعد العاشق الذى يسعده هجر المعشوق، إذا قرّر
المعشوق ذلك،
- وحينما يرغب خاطر المعشوق فى الفراق، فإنه يصبر
على محنة الهجر،
- فإذا لم يكن وصال الحبيب على هواه، فالهجر خيرٌ من
الوصال مائة مرة.

إقبال الليل وعرض الجوارى جمالهـن على يوسف ليختار واحدة منهن

- ٢١٣٥ - عند المساء، تجلّى الفلك كعروس جديدة، من خيمة
السمااء النائرة للنجوم،
- وعلقت السماء فى أذنيها عقد جواهر من الثريا،
واتخذت من القمر مرآة فى يدها،
- وتجلت الجوارى فى هودج الدلال، وكلهن مخادعات
مكتملات الزينة،
- واصطففن حول عرش يوسف، ونقشن عليه سحر
المحبة،
- فسكبت واحدة منهن سكر شفيتها الحلو (قائلة):
«امزج فمك بسكرى،
٢١٤٠ - وفك الرباط عن فمى، وكن ماضغاً لسكرى كالبيغاء»،
- وغمزت له أخرى (قائلة): «يا من تقصر العبارات عن
أوصافه!!
- إنى أجعل مقامك فى عينى المبصرة للدنيا، فأقبل،
 واجلس فى عينى كإنسانها».

- وأظهرت ثالثة سروها المتشعج بالحرير، (قائلة):

«فليكن هذا السرو فى أحضانك الليلة!

- وأنى لك أن تنام مسروراً فى مهد السعادة، لو نمت بعيداً عن هذا السرو المدلل؟»

٢١٤٥ - وعقدت أخرى حلقة فى طرتها المسكية (قائلة): «إننى

بغير رأسٍ ولا قدم كالحلقة،

- فافتح لى باب الوصال، ولا تضعنى كالحلقة خارج الباب».

- ورفعت أخرى يدها المدللة، وكشفت عن ساعديها الأكمام،

- (قائلة): «فلتكن يداى حمائل لعنقك، لتدفع عن تلك الشمائل عين السوء».

- وصنعت واحدة من شعرها منطقة حول خصرها، وزينت بشعرها خصرها النحيل،

٢١٥٠ - وكان لسان حالها يقول: «اجعل من يديك حزاماً

لخصرى، فقد بلغت روى الحلقة بسبك»

- وعلى هذا النحو، كانت كل واحدة من قمرىات الوجه تبحث عن الوصال من يوسف،

- بيد أنه كان حديقة نضرة بالحسن، فلم يكثر بتلك الحفنة من الأعشاب،

- حقًا! لقد كنّ جميعًا ماكراتٍ محتالات، كالدمى فى ظاهرهن، وعاشقات فى باطنهن،
- بيد أن يوسف لم يكن يريد أن يصبح طريقهن إلى العبودية الحقّة،

٢١٥٥ - فقال كل ما قاله لهن فى طريق الدين، وذكر أسرار اليقين لدفع الشك عنهن،

- فقال فى البداية: «آيتها الحوريات الحسان، إنكن عزيزات فى أعين الخلائق،

- فلا تسلكن سبيل الذلّة، وأنتن فى هذه العزّة، ولا تبحثن إلا عن طريق التدين،

- إنّ لنا إلهًا خارج نطاق العالم، هو الذى يهدى الضالين،

- وقد عجن طيننا بندى رحمته، وزرع فى تلك الطينة بذرة من حكمته،

٢١٦٠ - حتى تنمو من تلك البذرة شجرة، وتجد الكمال فى هذا المرج،

- وتتجه برأسها من الحضيض إلى العلا، فتشكر على ما أولاها من الثمار،

- فلا طاعة إلا لله، ولا جدير بها سواه،

- فتعالىن نعبدہ بعد كل هذا، فتحن بدونه أذلة أينما
كنّا،

- فينبغي أن نحني له الرؤوس، فقد أعطانا الرأس
لنسجد،

٢١٦٥ - ولماذا يسجد الحكيم أمام إنسان، والقدم والرأس أمام
الله شيء واحد؟

- إنه ينحت دمية حجرية بيده، ويؤرق قلبه الحزين
بحبها،

- ومعلوم ماذا يتأتى من الحجر، وهل تجدى عبادته إلا
العار؟

- فلما أرشد يوسف أولئك الغافلات بوعظه من المساء
حتى السحر،

- لهجت ألسنة الجميع بالثناء عليه، ووضعن رؤوس
الطاعة تحت قدميه،

٢١٧٠ - ولقنهنّ يوسف الشهادة واحدة واحدة، وحلّين
أفواههنّ بذلك الشهد،

- فما أطيب ذلك الشهد الذى يدير كل من يتذوقه ظهره
لجميع ألوان المرارة،

- فلا تغمى عين الشيطان الشقىّ إلا بطعنة إصبع الشهادة^(١)،

- فذلك العاقل ينجو من عين الشيطان الشريرة بأن يقتلها بإصبع الشهادة،

- ونهضت زليخا وقت السحر، واتخذت طريقها صوب يوسف سعيدةً مستبشرة،

٢١٧٥ - فشاهدت مجموعة الحسان وقد أحطن بيوسف، وصرن مريدات له بغية تعلم الدين،

- وقد حطمن أصنامهن، وقطعن الزنانير، واتخذن من المسابح عملاً لهن،

- ولسانهن مشغول بتوحيد الله، وخصورهن تمنطقت حديثاً برباط الخدمة،

- فقالت ليوسف: «يا من أنت فتنة للقلب وراحة له!! من مفركك حتى قدميك!

- إن لوجتك اليوم مظهراً آخر، فأنت تملك اليوم جمالاً من مكان آخر،

[١] (حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا محمد بن عبد الله أبو أحمد الزبيرى حدثنا كثير بن زيد عن نافع قال كان عبد الله بن عمر إذا جلس فى الصلاة وضع يديه على ركبتيه وأشار بإصبعه وأتبعها بصره ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهن أشد على الشيطان من الحديد «يعنى السبابة».)
الجزء الثانى من مستند ابن حنبل، ص ١١٩

٢١٨٠ - فماذا صنعت ليلاً ليزداد حسنك؟ إذ فتح عليك باب
آخر من ألوان الجمال!

- وماذا طعمت البارحة ففاض عليك بهذا الحسن،
ومنحك التفوق على حسان الدنيا؟

- حقاً! إن معاشرة أولئك الحسان من وجوههن
كالياسمين وأردافهن كالفضة،

- قد زادتك حسناً وجمالاً آخرين، وأضاف لجمالك
كمالاً آخر،

- حقاً! إن الفاكهة تتلون من الفاكهة، والجميل يزداد
جمالاً بقرب الجميل.

٢١٨٥ - وتحدثت كثيراً في هذا الصدد، مع تلك الشفة
البرعمية، بيد أن شيئاً من هذا لم يؤثر فيه،

- فكان يغلق فمه عن الكلام، وتحمرّ وجنتاه حياءً،

- ولم يكن يقلع عن الحياء، أو ينظر إلا إلى ظهر قدمه،

- فلما أبصرت زليخا ذلك التمرد، وعدم نظره نحوها
بعين الرحمة،

- اشتعلت في روحها نار الحسرة، واحترق صدرها
بجراح اليأس،

٢١٩٠ - فودّعت روحها يائسة، وولت وجهها صوب حجرة
أحزانها.

تضرع زليخا للمربية، والتماسها أن تدبّر حيلة تكون سبباً في وصال يوسف

- لما تجاوز تغاضى يوسف الحدّ مع قتيلة عشقه تلك،
- طلبت مربيته ذات ليلة، فى ركن خلوتها، وأجلستها
أمامها بحنان،
- وقالت لها: «يا مانحة جسمى القدرة، ومصباح
روحي المنير!
- لو حكيت عن روحى، فأنت راعيتها، أو عن
الجسد، فقد غديته بلبانك!
- ٢١٩٥ - ورأيت من عطفك ما لم أره من أمى، وبلغت تلك
الدرجة التى ترينها،
- ماذا يحدث لو أوصلتنى إلى مقصودى، بدافع
الرحمة؟
- وإلام أظل متألّة من الهجر، بعيدة عن روح الكون؟
- فما دام الحبيب غريباً عني بتلك الصورة، فما جدوى
وجوده فى منزلى؟
- فكل معشوق نافر من عاشقه، يكون بعيداً عنه رغم
قربه الظاهري،

٢٢٠٠ - ومبادام الرباط معدومًا بين الروح والقلب، فماذا ينتج
عن التقاء الماء والطين؟»

- فأجابتها المربية قائلة: «يا ملائكية الأصل! يا من لا
يذكر في وجودك الحور والملائكة،

- لقد منحك الله جمالاً جذاباً، يختطف من العقل قلبه
ودينه معاً،

- فلو أن نقاش الصين - من شوقه لك - ينقش صورة
لوجهك، ويضعها في المتحف،

- فإن رائحتك تحيي الدُمى جميعاً، وتتطلع إلى وجهك
لتخدمك بأرواحها،

٢٢٠٥ - ولو أبديت وجهك للجبل، لبثت العشق الخفى فيه،

- وحينما تتبخترين في بستان الدّلال، تجعلين الشجر
الجاف يمس،

- ولو لمحتك الغزلان في الصحراء، لأزالت أهدابها
الأشواك من طريقك،

- ولو نفشت السحر من ياقوت فمك السكرى،
لاجتذبت من الهواء طيوره، ومن الماء أسماكه،

- فكيف تبدين عاجزة، وأنت بهذا الجمال؟ ولم
تضعفين في النهاية على هذا المنوال؟

٢٢١٠ - اتخذي من غمزتك سهما، ومن حاجبك قوساً،
واجعلي المحبوب الجذاب صيداً،

- والوى من طرتك المجدعة أنشودة، وضعي على
قدميه رباطاً من شباك الوصال،

- وأظهري له وجهك، ثم أديريهِ نحوك، واجعليه يجثو
معك، ليطلع على أسراركَ،

- وتبختري على هذا النحو المثمر، وردّيه إلى طريق
الحنان بالمشية اللطيفة،

- واسكبي الشهد من شفّتيك في ابتسامة تجعله
يلاصقك،

٢٢١٥ - وافتحي عينه بكرتك الفضية، واجعليه يلقي برأسه
نحوك كالصولجان،

- وضعي على وجهك خالاً مسكياً من القلب، وضعي
في قلبه جرح الشوق إلى خالك.

- فقالت زليخا: «أيتها الأم! ماذا أقول؟ وماذا أحكي
عما يحدث من يوسف؟!

- إنه لا يتجه نحوى على الإطلاق، فكيف أتجلى أمامه؟

- فلو صرّت قمرًا، لما نظر إليّ من بعيد، ولو أصبحت
شمسًا، لما تطلع إلى نوري على الأرض،

٢٢٢٠ - ولو أنني أزيد نور العين مثل الناس، لكان من العسير
أن ينظر إليّ،

- فلو يلقى نظرةً نحوي، ولو يطلع على حالي بين الفينة
والفينة،

- ولو كانت أحزاني تستقر في قلبه، لما وصل وجدى به
إلى هذا الحد،

- إن مصيبتى ليست حسنة فحسب، ولكن بلواى فى
عدم اكترائه بى،

- فلو سعى الحبيب إليّ، لما كان قليل الاكتراث بى بهذه
الصورة.

٢٢٢٥ - فأجابتها المربية، مرة أخرى، قائلة: «يا من تستمد
الشمس ضياءها من جمالك!

- لقد خطر ببالى خاطر، يستريح به قلبك!

- بيد أن هذه الفكرة تصبح مُيسرة، حينما تجهزين حمل
بعير من الفضة، وآخر من الذهب،

- فإنى أشيد قصرًا جذابًا، كأنه جنة إرم، وأمر أن يوجد
به نقاش،

- وأن يرسم بحسّه المتوقّد صورتك محتضنةً يوسف فى
كل موضع فيه،

٢٢٣٠ - وحينما يستقر فيه لحظة، ويراك في أحضانه حيشما
سار،

- يتحرك في قلبه عشق جمالك، ويطلب وصالك من
أعماقه،

- فلما تتحرك المحبة من كل طرف، فإن مطلبك يتحقق
على هذا النحو الذى ترغبن فيه» (١)

- ولما سمعت ذلك الكلام من المربية، منحتها حق
التصرف فى كل ما كان عندها،

- من الذهب والفضة، فشيّدت به القصر.

[١] يوسف وزليخا، تفسير فارسى تربت جام. أبوبكر عتيق بن محمد سور ابادى.
(سلسلة شاهكا رهاى ادبيات فارسى). ص ٢٢ تهران - ١٣٤٣.

بناء المربية قصرًا صورت به جمال يوسف وزليخا (معًا)

٢٢٣٥ - يقول مشيدو هذا القصر: إنه لما أقدمت المربية على البناء،

- أحضرت أستاذًا فنانًا، كل إصبع فى يده به مائة فن،
- خبير فى الرسوم الهندسية، مرشد فى قوانين الفلك،
- ولما لم يكن يديه فرجار، فقد اتخذ من أصابعه فرجارًا،

- فالمجسطى فى غاية السهولة من أشكاله، وإقليدس فى هلع من شكوكه،

٢٢٤٠ - فلو برزت من طبعه رغبة فى الخط، لاستقام معه أمره دون مسطرة،

- ولصعد بخفة أعلى العرش، وشيد القصور فوق إيوان زحل،

- وحينما كان يتجه صوب القادوم بيده، كان الحجر يستحيل أشد ليونة من اللبن الطرى،

- ولما كان يشرع فكره فى فن المعمار، فإنه كان يجهز آلاف القواعد الجميلة،

- وكان قد أظهر عمارات الدنيا التي لا تحصى في وجه
ظفر واحد من أظافره،

٢٢٤٥ - وحينما كان يفكر في صور الخلائق، فإنه كان يزين
بقلمه صفحة الوجود،

- فكل ما كان يجريه قلمه من صور، كانت الحياة تدب
فيه في الحال،

- ولو أنه رسم صورة لطائر على حجر، لطار الحجر
الثقل من مكانه في الحال،

- وكما أمرت المربية، بنى الفنان الماهر قصرًا، وطلاه
بالذهب،

- فشرفاته في صفائها كصبح السعادة، وساحة حجراته
كنز للآمال،

٢٢٥٠ - وقد بسطت فرش مرمية في طرقاته، ونحتت أبوابه
من الأبنوس والعاج،

- وكان بذلك القصر سبع حجرات^(١)، وكأنها السماوات
السبع، التي لا مثل لها في الدنيا،

[١] يقول الفخر الرازي «... غلقت سبعة أبواب ثم دعته إلى نفسها...».

تفسير الفخر الرازي ج٥ ص ١١٩ - كما يقول الخازن... وغلقت الأبواب أي أطبقتها
وكانت سبعة... تفسير الخازن ج٢ ص ٢٢٣.

- كل حجرة ملونة من لون آخر من الحجارة، مصقولة
وصافية، وحسنة اللون،

- والحجرة السابعة كالفلك السابع، وتتضاءل فيها كل
الصور والألوان،

- وقد رصّعت أعمدته الأربعون بالذهب، ورسمت
أشكال الوحوش والطيور الجميلة عليها.

٢٢٥٥ - وأقيم على قدم كل عمود غزال ذهبي، نافجته مليئة
بالمسك الذكي،

- وساحته مليئة بالطواويس الذهبية، وأذيالها مرصعة
لكأنما هي تتبختر،

- وبينها شجرة باسقة، لم تر العين الجواله مثلها،

- فكان ساقها اللطيف من الفضة الخالصة، وأغصانها
من الذهب، وأوراقها من الفيروز،

- وكان على كل غصنٍ منها طائر صنع بمهارة، أجنحته
من الزمرد، ومنقاره من الياقوت،

٢٢٦٠ - فهي بسم الله شجرة خضراء طيبة، لم تر الأحزان من
رياح الخريف على وجه الإطلاق،

- تأنس كل طيورها للآدميين، واستقرت في الصباح
والمساء في موضع واحد

- وقد صور المصور في كل مكان من القصر صورة
ليوسف، وأخرى لزليخا،
- وأجلسهما معاً معشوقاً وعاشقاً، متوائمة روحهما
وقلباهما،
- ففي أحد المواضع جعل إحدى الصورتين تقبل الأخرى،
وفي آخر جعل إحداهما تفك ثياب الأخرى،
- ٢٢٦٥ - فلو مرّ متفرجٌ أمامها، لجرى لعاب الحسرة في فمه،
وعلاوة على ذلك، فقد كان سقفه سماءً، في كل
موضع منها قمر وشمس مضيئان،
- فهما قمرٌ وشمسٌ عجيبان، وذلك أن قلبيهما معاً، قد
أطلا من فتحة قميص واحد،
- وكان وجه الجدار يبدو للنظر، وكأنه البستان النضر في
فصل الربيع،
- وعلى كل وردة من ورود أرضه غُصنا وردٍ نضران،
يتعانقان معاً،
- ٢٢٧٠ - وقد ازدهر في كل موضعٍ من بساطه، ونامت كل
وردتين معاً في مهد الدلال،
- وخلاصة الأمر أنه لم يترك أي موضع في ذلك المكان
خالٍ من هذين الحبيبين المدلهين،

- فأينما ينظر الإنسان، تبدو له صورتها في الحال،
- ولما أعد المتزل على هذه الصورة، زاد شوق زليخا إلى
يوسف،
- فكان يتحرك بداخلها شوقٌ آخر من جديد، كلما
نظرت إلى ذلك المتحف،
٢٢٧٥ - حقاً! حينما يرى العاشق وجه الأحبة، فإنه بذلك يقرأ
كلمة الشوق،
- فتتجدد ناره من تلك الكلمة، ويضحى أسيراً لجرح لا
شفاء له.

طلب زليخا يوسف إلى ذلك البيت. ومطالبته

بوصالها

- حينما تم بناء البيت بمجهود الفنان، شرعت زليخا فى
تنسيقه،

- فزينت أرضه بأبسطة الحرير، وزادت جماله بعرش من
الذهب،

- وعلقت به قناديل مرصعة بالجواهر، وخلطت الرياحين
لتعطيره،

٢٢٨٠ - وقامت بكل ما يليق هنا، ونشرت بساط السعادة
هناك،

- ولم يكن يلزم زليخا فى هذا المحفل شخص غير
يوسف،

- حقاً! ما أقبح الجنة فى عين عاشق وله، إذا خلت من
وجه حبيبه.

- واستقر رأيها على طلب يوسف، وإجلالته على
عرش العزة والجاء،

- لتسعد بعشق جماله فى الخلوة، وتمتطى جواد الرغبة
فى ساحة وصاله،

٢٢٨٥ - وتحقق رغبتها من ياقوته الذى يزيد العمر، وتحقق
راحتها من طرته العنيدة،

- بيد أنها اتجهت، فى البداية، فزينت جمالها، وأرادت
أن تستميل به قلب يوسف إليها،

- ولم يكن بها حاجة إلى ألوان الزينة، ولكنها أضفت
بها رواجاً لجمالها،

- فالورد مشهور بجماله فى البساتين، لكنه يزداد حسناً
بقطرات الماء،

- فمنحت بالمسحوق الأحمر لوجهها نضرة، ومنحت
لرقتها شهرة فائقة،

٢٢٩٠ - ورينت حاجبها بالصبغة، فجعلت هلال العيد مثل
قوس قزح،

- وعقصت شعرها المسكى، وعقدت بالمسك الصينى
جدائلها الواحدة فى الأخرى،

- وأرخت جدائلها على ظهرها، فمنحت بذلك لوجهها
الوردى حارساً من العنبر،

- وكحلت عينيها بكحل الدلال، وشرعت فى إلحاق
الأذى بالناس،

- ووضعت خيلاً من العنبر الندى فى عدة مواضع من
وجهها، وكأنما كانت تعرض على الحبيب صورة حالها،

- ٢٢٩٥ - (قائلة): «لقد ألقى وجهك بالنار فى قلبى، فصارت
روحي وقلبي (سذاباً) على تلك النار^(١)،
- وخطت على وجهها القمرى خطأ أزرق طويلاً، عمر
به جمال وجهها كما عمرت مصر بالنيل،
- ولم يكن ذلك خطأ أزرق على وجه القمر، بل كان
سفوداً لأعين السوء،
- فكأنما رأت الماشطة تلك العين النرجسية الثملة،
فنسيت مرود الكحل هناك،
- ولونت قبضتيها الفضتين بالخداع، لتخضع قلبه بتلك
الحيلة،
٢٣٠٠ - ورسمت الماشطة المحنكة على راحتها صورةً تحضر بها
الحبيب إلى راحتها،
- ولونت أظافرها العنابية، فشرحت للحبيب أخبار
الدموع القانية،
- وأظهرت بالفن عشرة أهلة، فى ظهر القمر من جلاب
الشفق،
- حتى يهبها هلالاً من قصر السعادة، يمنحها السرور فى
عيد وصالها،

[١] سبقت الإشارة إلى كلمة «سپند» بمعنى: السذاب.

- وأبدت قرطاً من جانب عارضها، فقرنت القمر
بالنجوم،

٢٣٠٥ - لتضحى سعادة الدنيا والدين قرينة لها، بحكم هذا
القران،

- ولبست على صدرها ملابس جديدة كأنها البرعمة في
جمالها النضر البهيج،

- وهيات قميصاً على جسدها، فملأت أذيال الياسمين
بالورد،

- وجعلت ملابس غصن الورد من الياسمين، ووضعت
الياسمين في الطوق والورد في الأكمام.

- فلو دقت العين النظر، ما رأت إلا ماءً شفافاً على
الشقائق والورود،

٢٣١٠ - فهو ماءٌ عجيب، استقرت به سمكتان من الفضة
الخالصة، وسكتا عند الساعدين،

- وازدان ساعداها بألوان الجواهر، فبدوا كأنهما سمكتان
مطوقتان بالذهب،

- فكان وجهها وساعداها يشهدان أن حسنهما يأخذ كل
شيء من السماء إلى الأرض^(١)،

[١] الترجمة الحرفية للشطر الثاني: «من القمر إلى السمك»، وتعنى من السماء إلى الأرض.

- وحينما هيات القميص على جسدها الرقيق، زيتته
بالديباج الصينى المزركش،

- وأقبلت دمية الصين متبختره فى الديباج بكل دلال،

٢٣١٥ - ووضعت تاجًا من الياقوت المتألق، والذهب الخالص
على مسك شعرها،

- وأخذت تختال كالطاووس فى ساحة القصر، بثوبها
المرصع بالجواهر،

- وتتبختر والمرأة فى يدها، وكانت تفكر فى جماله، بينها
وبين نفسها،

- ولما رأت صورة وجهها أمامها، وجدت عيار نقدها
كاملاً،

- وجعلت قلبها خزانة للطرب لنقد حسننها، وطلبت
مشترياً لبيتاعه،

٢٣٢٠ - وأرسلت أحد الأشخاص فى طلب يوسف، وبعثت
بجواربها أمامًا وخلفًا

- وفجأة، دخل من الباب وكأنه القمر، فى وقار عطارده
وجلال الشمس،

- كأنما وجوده بعيد عن خواص الماء والطين، فجيينه
وظلعتة نوراً على نور،

- وشعاع واحد منه يضيء العالم بأسره، وكلمة واحدة
منه تعد أسطورة،

- فلما وقعت عين زليخا عليه، كأن شعلة قد وقعت في
الغاب شوقًا إليه،

٢٣٢٥ - وأخذت بيده قائلة: «يا طاهر السيرة! ومصباح عين
أهل البصيرة!

- كم أنت - بسم الله - عبدٌ حسن، جدير بكل إحسانٍ
ولطف،

- وإنى أرفع الرأس عاليًا بطوق منتك، وأزهو بحسن
عبوديتك!

- فأقبل، حتى أوفيتك اليوم حقك، وأقضى لحظات في
شكرك،

- وأعزف الآن لحن إحسانك، حتى تردده الخلائق، ما
بقي الكون»،

٢٣٣٠ - وبمكر وخداع فاقتا الحد، أدخلته إلى الحجرة الأولى من
الحجرات السبع،

- وحين تجاوزت الباب الذهبي، أحكمت إغلاقه بقفل
من الحديد،

- وحينما أغلق الباب، فكّت عقال شفيتها، وأظهرت
السّر الدفين بقلبها،

- وقالت فى البداية: «يا أمنية روى! يا من لا أعرف
لروى أملاً سواه!!»

- لقد لاح لى طيفك فى منامى، فانتزع النوم من مقلتى
منذ الطفولة،

٢٣٣٥ - وجعلتنى مجنونةً بهواك، أسيرة البيت من جرّاء
عشقك،

- لا أفتح العين إلا لأراك، وأصبحت - من أجلك -
شريدة فى وطنى،

- ولم أجد علاجاً للضيق، فتحملت فى أحزانك مرّة
الأسى،

- والآن، أنا أنعم برؤياك، فلننى فى وهدة اليأس لعدم
اكترائك،

- فدعك من التغاضى، وأدر إلى وجهك، وقل لى
حتى كلمة بدافع الشفقة»

٢٣٤٠ - فأجابها يوسف، وهو منكس الرأس، قائلاً: «يا من
يقوم بخدمتك مثلى مثات الملوك!»

- لتحررينى من قيود الغم، ولتسرى عن قلبى بالحرية،

- فليس من المستحب أن أظل هنا معك، وأن نبقى
منفردين خلف هذا الستار،

- فأنت موقد نار، وأنا قطعة من القطن الجاف، وأنت
ريح صرصر، وأنا نفحة من المسك،

- فأنى لهذا القطن أن يثبت أمام النار؟ وأنى لنفحة
المسك أن تنازل الصرصر؟».

٢٣٤٥ - ولم تُجد هذه التوسلات مع زليخا فتىلا، فانتقلت به
وهى تتكلم إلى الحجرة الثانية،

- وأحكمت إغلاقها بقفل آخر، فتحطم لذلك قلب
يوسف حزناً،

- وتوسلت زليخا، مرة أخرى، وأزالت النقاب عن السر
الدفين،

- قائلة: «يا أحلى من الروح! حتام هذا النفور؟ إننى
أضع الرأس تحت قدميك، فإلى متى هذا التمرد؟

- لقد أفرغت الخزائن فديةً لك، وجعلت متاع العقل
والدين فداءً لك،

٢٣٥٠ - آملة أن تكون علاجى، وطوع أوامرى،

- لا أن تلوى الوجه عن طاعتى، وتذهب فى مخالفتى
كل مذهب».

- فأجابها: «لا طاعة فى معصية، والحياة فى العصيان
ليست من العبادة فى شىء،

- فكل عمل لا يرضى الله، هو ممنوع فى مقام العبودية،

- فلا كنت على معرفة بهذا العمل، و لا كانت ليدى القدرة عليه.

٢٣٥٥ - فاختصرا الكلام فى تلك الحجرة، مُتَنَقِّلِينَ إلى الحجرة الأخرى،

- وأحكمت زليخا على بابها قفلاً آخر، وأطلت القصة من صدرها فى ثوب جديد،

- وكانت تنقله من حجرة إلى أخرى، على هذا المنوال من الخداع والحيلة،

- فكانت تسرد فى كل مكان قصة، وتسوق فى كل موضع طرفة،

- ولم يسر لها ما تريد فى الحجرات الست، وظل نرد - رغبته - حبيس الأركان الستة،

٢٣٦٠ - فأسرعت الخطى به إلى الحجرة السابعة، باحثة فيها عن حل لمشكلتها،

- حقاً! إنه لا مجال لليأس فى ساحة العشق، فكل ليل يعقبه نهار،

- فإذا لم يتحقق أملك من مائة باب، فلا ينبغي أن تمزق كبدك يأساً،

- وعليك أن تطرق باباً آخر، عسى أن يتحقق مرادك منه فجأة.

إدخال زليخا يوسف الحجرة السابعة، وسعيها لتحقيق رغبتها، وفرار يوسف وبقاء زليخا نادمة

- وهكذا يتحدث الراوى من وراء ستار حجرة الأسرار هذه،
- ٢٣٦٥ - إنه حينما جاء دور الحجرة السابعة، ناحت زليخا من أعماقها،
- قائلة: «ضع يا يوسف قدميك على عيني، وطأ - بدافع الرحمة - هذا الحرم المضى».
- وجعلت له فى ذلك الحرم السعيد مقعداً، وسلسلت قفله الحديدى بسلسلة ذهبية،
- فألقى حرماً خالياً من الغرباء، تبعد أطرافه عن أعين الحساد،
- بابه مغلق دون ذهاب الغرباء وإيابهم، ولا أمل للأصدقاء فى دخوله،
- ٣٣٧٠ - لا مجال به لأحد، سوى العاشق والمعشوق، ولا مجال للخوف من الحراس أو أذى العسس،
- فعلى حين كان وجه المعشوق فى زينة الدلال، كان قلب العاشق يتغنى شوقاً^(١)،

[١] يعنى بالمعشوق: يوسف عليه السلام، وبالعاشق: زليخا.

- وقد فتحت ساحة ميدان الرغبة، واضطربت النار فى
روح الطمع،
- ووضعت زليخا يدها فى يد الحبيب، وعينها وقلبها
ثملان شوقاً إليه،
- وقادته متبختره حتى حافة العرش، بكلمات حلوة
تدخل السرور إلى قلبه
- ٣٣٧٥ - وألقت بنفسها فوق السرير، وقالت - لمن قامته
كالسرو - وهى تبكى:
- يا وردى الوجنة! انظر إلى وجهى، وانظر بعين اللطف
نحوى،
- فلو رأت الشمس وجهى، لاستمدت - كالقمر-
ضوءها منى،
- فإلام يسرك أن ترانى فى هذه المحنة، وتغلق عني عين
الرحمة؟.
- وهكذا كانت تكثر من شكوى روحها، وتظهر شوق
قلبها إلى يوسف،
- ٢٣٨٠ - بيد أن يوسف كان ينظر إلى نفسه، ويطأطئ رأسه
خوفاً من الفتنة،
- ونظر بعينه إلى أسفل فرأى صورته معها مصورةً على
بساط الحجر،

- وقد احتضن كل منهما الآخر، فوق سرير من الديباج
والحرير،

- فغض عن تلك الصورة نظره فى الحال، وحوّل عينيه
إلى مكان آخر،

- فلو نظر إلى الباب أو الحائط، لوجد من كالورد
وجناتهما نائمين معاً،

٢٣٨٥ - فتطلع نحو السماء، فوجد فى السقف نفس الصورة،

- فزاد - بسبب ذلك - ميله نحو زليخا، ففتح على
وجهها عينيه،

- فانتعش من تلك النظرة أمل زليخا، عسى أن تشرق
الشمس على وجهها،

- وشرعت فى التأوه والبكاء والعويل، وأسبلت الأمطار
من عينها وقلبها،

- (قائلة): «أيها المحب لذاته! حقق رغبتى، وداوِ آلامى
بوصالك،

٢٣٩٠ - أنا ظمأى، وأنت ماء الحياة! وأنا قتيل، وأنت الروح
الخالدة!

- وأنا فى بعدى عنك - يا كثرى البعيد المنال - قتيل بلا
روح، وظمآن بلا ماء!

- ولقد عشت بسبب جرحك محمومة لسنوات، وحييت
بلا طعام ولا نوم، شوقاً إليك!
- فلا تتركنى محمومة أكثر من ذلك، ولا تحجب عني
الطعام والنوم هكذا،
- أقسمت عليك بحق ذلك الإله الذى هو رب
الأرياب،

٢٣٩٥ - وبهذا الحسن المذهل، الذى منحك إياه، وبهذا الجمال
الرائع الذى بثه فى وجهك،

- وبهذا النور الذى يشع فى جبينك، فيطأطئ القمر
أمامه رأسه،
- وبحاجبك الذى يطلق السهام، ويسروك الذى يجيد
التبخر،

- وبمحراب قوس حاجبك، ويتموجات أنشودة طرتك،
- وبسحر نرجسك الذى يفتن الناس، ويسروك المتشع
بالديباج فيمنح لملايسك جمالها،

٢٤٠٠ - وبتلك الشعرة التى تسميها خصرًا، وبتلك البرعمة
التي تدعوها فمًا،

- وبذلك الخال المسكى على وجهك الوردى،
وبابتسامتك الحلوة، من فمك الضيق،

- وبدمع عيني شوقاً إليك، وبحرارة آهتي حرقه عليك،
- وبالحرمان الذي أنوء بأثقاله، ويأسرني بسببه ألف
حزن،

- وبسيطرة هواك على وجودي، وبعدم اكتراثك إن
وجدت أوفيت،

٢٤٠٥ - أن تشفق على حالي، أنا الولهانة، وأن تفك من أمرى
العسير عقده،

- فإن جرحك بقلبي، منذ زمن بعيد، وأشتهى من
حديقتك عييراً،

- فكن بلسماً لجرح قلبي برهةً، وعطر ببعض العبير
بستان قلبي،

- فإننى عاجزة من قحط هجرك، فجد على بقوت
روحي من مائدة وصالك،

- فمنك، أيها النخل النضر، التمر، ومنى الحليب، فلا
ترك أى مجال للتقصير فى إعداد المائدة،

٢٤١٠ - واجعل من الحليب والتمر زاداً لروحي، وأنقذنى من
الموت فى هذا القحط

- فأجابها يوسف قائلاً: «يا ملائكة الأصل! يا من
يستحى من ذكر الملائكة فى حضرتك،

- لا تضيّقى علىّ أمرى اليوم، ولا تضربى بالحجر على
زجاج عصمتى!

- ولا تبللى ذيلى بماء العصيان، ولا تحرقى جسمى بنار
الشهوة،

- فقسماً بمن لا شبيه له، ذلك الذى صور الموجودات
باطنها وظاهرها،

٢٤١٥ - وما السماء إلا زيد فى بحر جوده، وما الشمس إلا
شعاع من وميض نوره،

- وبأولئك الطاهرين الذين أنجبونى، وورثت عنهم هذه
الطهارة،

- ومنهم جوهرى المضىء، ونجمى المتألق،

- أنك لو أعفيتنى اليوم، وأخرجتنى من هذا المأزق

- فستحققين رغبتك منى سريعاً وترين آلاف الطاعة
منى،

٢٤٢٠ - وتسعين من ياقوتى المطيل للعمر، وتنعمين بقوامى
الجذاب،

- فلا تتعسجلى نيل مآربك، فما أكثر التانى الذى يكون
خيرٌ من العجلة

- فالصيد المبارك الذى يقع فى الشبكة يعد لأى، خيرٌ
من صيدٍ سريع غير مبارك فى النهاية.

- فقالت زليخا: «لا تطلب من الظمآن مقدرة تأجيل شرب الماء للغد،

- إن روحى قد بلغت الحلقوم اليوم شوقًا إليك، ولا أستطيع الصبر إلى مساء هذا اليوم،

٢٤٢٥ - ومتى تبدو لى تلك الطاقة، حتى أوجل هذا الأمر لوقت آخر؟

- ولست أدري ما يمنعك عن هذا العمل، فلا تستطيع أن تعيش معى لحظة حلوة؟»

- فأجابها: «يمنعنى من ذلك شيئان: غضبة الله، وسطوة العزيز،

- فحينما يعرف العزيز هذه الطبيعة المعوجة، فإنه يلحق بى مائة محنة ومذلة،

- ويعرّى السيف بالصورة التى تعرفين، ويجردنى من ثوب الحياة،

٢٤٣٠ - وياله من خجل ذلك الذى يحقق بالزناة يوم القيامة!

- فيكتبون اسمى على رأس قائمة أولئك العصاة».

- فقالت زليخا: «لا تخف من ذلك الوغد، فإنه حينما يجلسنى أمامه يوم الطرب،

- سأعطيه كأسًا يزهق روحه، لا ينهض من سكرته حتى يوم القيامة!

- وأنت تقول إن ربي كريم، وهو دائماً يغفر للمذنبين،
- ٢٤٣٥ - وغنّدي من الجواهر والذهب مائة خزانة دفيئة، في هذه الخلوة،
- وإني أفديك بها كلها من أجل ذنبك، حتى تنال من الله العفو!.
- فأجابها: «لست أنا ذلك الشخص الذي يسره أن يتحمل غيره وِزر أخطائه،
- وخاصة العزيز، الذي أمرك أن تكوني - على سبيل المعزة - جارية لي
- وكيف أحصل على عفو ربي برشوة، وشكر أنعمه ليس في مقدور إنسان؟
- ٢٤٤٠ - فكيف يحصل على رشوة في الغفران من لا يتقاضى أجراً على منح الحياة؟»
- فقالت زليخا: «أيها الملك السعيد الحظ! فليكن التاج والعرش ميسرين لك،
- لقد راشت قلبي سهام المحنة، من كثرة تعلاتك،
- فما العُذر إلا طريق معوج للخداع، وليس طريقاً للخلاص،
- معاذ الله أن أسير في طريق معوج، فأسمع منك هذه الحيلة مرة أخرى،

٢٤٤٥ - لقد قباض بي الوجد، فجد على بالراحة، وحقّق لي
رغبتى، شئت أم لم تشأ،

- لقد انقضت أيامى فى الكلام، ولم يتحقق بعد مرادى
منك،

- فأمسك لسانك عن هذه الخرافات، وتحرك من مكانك
فإن فى التأخير آفات،

- لقد اضطربت النار فى قصبي الجاف، أما أنت فتدخل
حرقتى على قلبك السرور،

- وأى نفع يعود علىّ من دخان هذه النار، مادام لا
يسيل فى عينيك دمة!

٢٤٥٠ - وأنا شبيهة بدخان هذه النار الملهب، فتعال واسكب
قطرة على نارى؟

- فلما أتمت زليخا هذه الأسرار، شرع يوسف فى تعلل
آخر،

- فقالت زليخا: «يا أيها العبرانى! يا من أضعت وقتى
فى الكلام!

- لا تصفع بيد الرفض وجه مرادى، وإلا قتلت نفسى بيدك،

- وعلّق يدك فى رقبتى سروراً، وإلا أطحت بها بالخنجر
سريعاً،

٢٤٥٥ - وإذا لم تعلق يدك فى رقبتى، أصبح دمنى معلقاً فى
رقبتك،

- وأغمد خنجرًا شبيهاً بالسوسن فى جسدى، وأخضب
قميصى كالوردة بالدم،

- وأضع جرح الفراق من الروح على جسدى،
وأخلص بذلك من أعدارك،

- وحينما يجدنى العزيز قتيلاً أمامك، فإنه سيقتلك،

- ويعد أن يقتلك ويواريك التراب، تتحدثك هذه الروح
الولهة.

٢٤٦٠ - قالت هذا وسحبت خنجرًا أخضر من تحت السرير،
كانه ورقة الصفصاف،

- بيد أنها كانت فى حمى وحرارة من نار الغم،
فحملت قطرة الماء تلك إلى حلقها الظمآن،

- فلما رأى يوسف ذلك نهض من مكانه وأمسك
بمعصمها كالعقد الذهبى،

- قائلاً: «اهدئى من هذه العجلة، يا زليخا، كفى عن
الخطو فى هذا الطريق،

- فسوف ترين وجه مرادك منى، وتصلين إلى ما تتمنين
بوصالى»

٢٤٦٥ - فلما رأت زليخا - قمر السماء الجذاب - ذلك العطف
من يوسف،

- ظنت أنه سيحقق رغبتها، ويمنحها الراحة بوصاله،
- وفي الحال ألقت الخنجر من يدها، وفكرت في طريقة
أخرى، لوصاله،

- فملأت شفتها بفمه الحلوى، واتخذت من ساعدها
طوقاً، ومن ساقها منطقة له،
- وجعلت من روحها هدفاً لسهمه، ومن جسدها
صدفاً، شوقاً لجوهره،

٢٤٧٠ - إلا أن يوسف لم يصبوب سهمه إليها، ولم يحطم
خدع صدفها طلباً للجواهر،

- وكانت زليخا شديدة الإلحاح في طلبها، ولكن يوسف
كان يضع العراقيل في الطريق^(١)،
- وقد وقع بصره فجأة - وهو وسط هذه الأحداث -
على ستار مزركش في ركن الحجره،

[١] قمت بحذف ترجمة البيت الذي يليه لبعده عن النوق.

- فسألها قائلاً: «لم هذا الستار؟ ومن ذلك المستتر وراءه؟».

- فقالت: «إن ذلك الشخص هو الذى أدين له بالعبودية ما حييت،

٢٤٧٥ - إنه صنم جسمه من الذهب، وعينه من الجواهر، وباطنه صندوق ملئ بالمسك الخالص،

- آخر ساجدة أمامه كل ساعة، فأطأ رأس الطاعة له،

- وقد جعلت من باطن الستار له مقراً، حتى لا ينظر إلى،

- ولا يرى منى صورة الإلحاد، ولا يرانى فى مثل تلك الحالة التى ترانى عليها»

- وحينما سمع يوسف هذا الكلام صاح قائلاً: «إنى لا أملك دانقاً من دينار حياتك!!»

٢٤٨٠ - إن الخجل يصيبك مما لا حياة فيه، ويعترى خاطرك الحياء من هذا الجماد،

- فكيف لا أخاف البصير العليم؟ وأنى لى ألا أهاب القيوم القادر؟» (١)

[١] اقتبس الشاعر مضمون الأبيات السابقة من بعض كتب التفسير التى تناولت بالشرح قوله تعالى: «وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي يَتِيهَا عَنْ نَفْسِهِ رَغَلَتْ الْأَبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». سورة يوسف الآيتان ٢٢ و ٢٤ =

- قال هذا وهباً واقفاً، ونهض عاقلاً من ذلك المضجع
الحلو،

- وأبعد قوامه الباسق - الذى يشبه الألف - عنها،
ونخلص نفسه منها،

- وحينما أسرع هارباً شقّ طريقاً من كل باب،

٢٤٨٥ - وكلما اقترب من باب وجده مغلقاً، فكان القفل فى
مكان والمزلاج فى آخر،

- فأشار إليه بأصابع يده، فكان بقبضته مفتاحاً يفتحه،

- فلما رأت زليخا هذا وثبت خلفه ولحقت به فى
الحجرة الأخيرة،

- وشدت قميصه لإرجاعه، فقدته من دبر، (١)

- وأفلت من قبضة تلك الحزينة، كبرعم ممزق القميص،

٢٤٩٠ - فشقت زليخا ثيابها بسبب تلك الخسارة، وألقت نفسها
على الأرض كالظل،

= يقول البغوى فى تفسير كلمة «البرهان»: «كان فى البيت صنم فقامت المرأة وسترتة
بثوب، فقال لها يوسف: أستحيين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه، فأتانا أحق أن أستحي
من ربي، وهرب...». تفسير البغوى، ص ٤٢٢ (على حاشية تفسير ابن كثير) الجزء
الرابع - القاهرة ١٣٤٦ - أما الفخر الرازى فيقول: (... قالوا إن المرأة قامت إلى
صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترتة بثوب، فقال يوسف لم فعلت ذلك؟
قالت أستحي من إلهى هذا أن يرانى على معصية، فقال يوسف أستحيين من صنم لا
يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهى القائم على كل نفس بما كسبت، فوالله لا أفعل
ذلك أبداً، قالوا فهذا هو البرهان». تفسير الفخر الرازى، ج ٥ - ص ١٢٣-١٢٤.

[١] تأثر الشاعر هنا بقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَقَ الْيَابِ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة يوسف، آية (٢٥)

- وأطلبت صيحة من قلبها الحوين، وولولت من شدة حزنها،
- (قائلة): «ويلاه من تعاسة الحظ، فقد حمل ذلك الحبيب من منزلى رحاله،
- واحسرتاه! على الصيد الذى أفلت من شراكى!
- وأسفاه على ذل الشهد الذى حرم منه فمى!
- فقد عزم عنكبوت، ذات يوم، أن يحصل على قوته،
- ٢٤٩٥ - فرأى صقراً ملكياً جالساً فى أحد الأماكن، وقد أفلت من قيد الملوك،
- فشرع فى النسيج من حوله، كى يشل ريشه وجناحيه عن الطيران،
- وظل يواصل عمله زمناً، حتى أنفد فيه كل لعبه،
- فكلما طار الصقر بعيداً عنه، لم يترك له إلا بضعة خيوط ممزقة،
- فأنا ذلك العنكبوت العاجز المسكين، الذى هوى بعيداً عن مراده،
- ٢٥٠٠ - وقد تمزقت عروق روحى كخيوطه، إذ لم يصبح طائر الأمل له صيداً،
- وتمزقت أوصالى من كل حيلة، ولم يبق فى يدي سوى خيوط ممزقة».

لقاء العزيز يوسف خارج ذلك المنزل، وكتمان

يوسف ما حدث بينه وبين زليخا

وإفشائها ذلك الأمر

- هكذا رسم القلم صور هذه الحكاية: أنه عندما خرج يوسف من المنزل،

- صادفه العزيز خارجه، ومعه حشد من خواص منزله كذلك،

- فلما رأى العزيز اضطراب حاله، استفسر منه عن سرّ اضطرابه،

٢٥٠٥ - فأجابه بمزيد من الأدب، بعيداً عن الاتهام، وإفشاء السرّ،

- فأمسك العزيز بيده بحنان، وأدخله عند ملائكية الوجه تلك،

- فلما رأتها معاً، قالت لنفسها: «لعل يوسف قد أخبره بما بدر مني»

- وبمقتضى ذلك الظن صاحت، وأزاحت النقاب عن وجه ذلك السرّ،

- فقالت: «يا ميزان العدل! ما جزاء من يعيش مع

أهلك على غير دين الوفاء؟

٢٥١٠ - وانساق فى غيّه دون تفكير، وارتكب الخيانة خلف
هذه الأستار؟»

- فأذن لها العزيز بمواصلة الكلام قائلاً: «قولى الحقيقة
يا ملائكية الوجه، من فعل هذه الفعلة الشنعاء؟»

- فأجابته: «هذا العبد العبرانى الذى رفع الرأس منذ
البداية بلطف بنوتك،

- ذلك أنى كنت قد نمت مستريحة فى هذه الخلوة،
ونفضت قلبى من غبار الأحزان،

- فتسلل إلى رأس وسادتى كاللصوص ليطو على كثر
وصالى،

٢٥١٥ - واتخذ طريقه إلى بستانى السعيد، ظناً منه أنى لن
أحسن بوجوده،

- ولم يكن فى حاجة إلى إذن البستانى ليغير على
السبل والورد،

- وحينما مدّ ذلك المتهوّر يده، ليطو على كثر وصالى،

- استيقظت من نومى العميق، وأفقت من كأس
اللاوعى،

- فأصابه الهلع ليقظتى، ولاذ بالفرار من حضرتى،

٢٥٢٠ - وولى وجهه صوب الباب خجلاً، مغلقاً الباب فى

وجه سعادته،

- 'فجريت خلفه مسرعةً، ولحقت به، ولما يضع قدمه

خارج الباب،

- وأمسكت بقميصه، بخفة ومهارة، فتمزق قميصه

تمزق الوردية،

- وقميصه الممزق، فاغرُ فاه، شاهداً على صدق أقوالى،

- فمن الخير أن تسقى به - الآن - فى السجن زمناً

كالمنحرفين،

٢٥٢٥ - أو أن تؤذى جسده وقوامه الرقيق، حتى يتألم،

- وتدخل السرور على نفسه بهذا العبء الثقيل، كي

يكون عبرةً لأمثاله (١)

- فلما سمع العزيز هذا الكلام، لم يتمالك نفسه،

- وأدار قلبه عن طريق الاستقامة، واتخذ من لسانه سيفاً

للوم،

- وقال ليوسف: «إننى حينما أحصيت الجواهر

لابتياحك، أخليت مائتى كنز،

[١] اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات من قول الله تعالى: ﴿وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا

مَبْدَهَا لَهَا الْبَابُ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ سورة يوسف، آية (٢٥)

- ٢٥٣٠ - واتخذتك بعد ذلك ابناً، ورفعت من مكانتك إجلالاً لك،
- وطلبت من زليخا أن تخلص لك الودّ، وأمرت
الجواري أن يخدمنك،
- وصار الغلمان حلقة في أذنك، وباتوا جميعاً
يتسابقون في الوفاء لك،
- ومنحتك حرية التصرف في أموالى، ولم أؤذ قلبك
في أمر من أمور الدين،
- ولم يكن ما صنعتُهُ مما يُجِيزُهُ العقل، سامحك الله،
فما أسوأ ما صنعت!!

- ٢٥٣٥ - فلا يليق - في دنيا الآفات هذه - جزاء أهل الإحسان
إلا بالإحسان،
- ولقد رأيت الإحسان، وأظهرت الكفران، وتمردت
على النعمة،
- وحملت متاعك من حىّ الشكر، وطعمت الملح
وكسرت المملحة»
- فقال له: «أيها العزيز! إلامَ هذه المحاكمة؟ لا تسئ
إلىّ بذلة لا ذنب لى فيها،
- إن كل ما تقوله زليخا محض افتراء، وكذبها سراج
بغير ضياء!

٢٥٤٠ - لقد خلقت المرأة من الكتف الأيسر، ولم ير إنسان من

شماله خيراً،

- ويدرك كل من يعرف الشمال واليمين، أن من

الصعب إيجاد اليمين من الشمال،

- إنها تلاحقني منذ رأيتني، لتحقيق رغبتها مني،

- فتدخل من ورائي تارة، ومن أمامي أخرى، وتدعوني

إلى نفسها بمكرٍ واحتيال،

- بيد أنني لم أفتح عيني إطلاقاً عليها، ولم أضع عيني

على مائدة وصالها،

٢٥٤٥ - فمن أكون أنا حتى أطأ بقدمي في حريمك، مع ما

تتمتع به من خلق كريم؟

- فياله من عبد سيئ ذلك الذي يجلس على عرش

مولاه حينما لا يراه،

- لقد كانت بقلبي جراح الغربة، وكنت في خلوتي

بعيداً عن الخلائق،

- فأرسلت زليخا رسولاً إليّ، وفتحت أمامي مئات

الأبواب للتفكير،

- فأرسلت زليخا رسولاً إلىّ، وفتحت أمامي مئات
الأبواب للتفكير،

- وخدعتني بكلامها المعسول، وحملتني على صحبتها
في تلك الخلوة،

٢٥٥٠ - وطلبت مني قضاء حاجتها، بيد أن الهدوء والطمأنينة
تركاني،

- فجريت صوب الباب هرباً منها، ووصلت إليه
يتملكني الاضطراب،

- فأمسكت بظهر قميصي، فقدته من دبر،

- ولم يحدث بيني وبينها سوى ذلك الأمر، ولا شيء
أكثر من ذلك

- فإذا لم تلق براءتي هذه عندك قبولا، فاصنع -بسم
الله - بي كل ما تريد^(١)

٢٥٥٥ - فلما سمعت زليخا هذا الكلام، أقسمت بالله - بادئ
الأمر - أنها طاهرة،

[١] صور الشاعر هذه الأبيات التي يدافع بها يوسف عن نفسه متأثراً بقول الله تعالى:
﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي...﴾ سورة يوسف. آية (٢٦).

- وأقسمت بعد ذلك أقساماً أخرى، بـمفرق ملك مصر
وعرشه وتاجه،

- ويسعادة العزيز وعزه وجاهه، وحظه الذى قر به من الملك،

- حقاً! حينما تتعقد الدعوى، فلا دليل لمن لا دليل له
سوى القسم،

- فالأيمان الكثيرة تكشف عن الأفكار الكاذبة للحالف،

٢٥٦٠ - وبعد القسم، سكبت من عينيها الدموع (قائلة): إن
يوسف هو الذى أثار هذه الفتنة منذ البداية.

- إن قنديل الكذب الذى تضيئه المرأة لا زيت له سوى
دموع الخداع،

- فلو أضاء مصباحه بهذا الزيت، لأحرق عالماً فى ساعة،

- فلما رأى العزيز ذلك البكاء وتلك الأيمان، طوى
بساط الإنصاف،

- وأشار إلى أحد الحراس أن يعرك بالمضرب - فى
الحال - روح يوسف،

٢٥٦٥ - وأن يؤذى وتر روحه بالحزن، ويمحو سمات الارتياح
من جسمه،

- وأن يلقى به فى السجن زمناً، إلى أن يتضح هذا السرّ
الدفين.

حمل الحراس يوسف إلى السجن، وشهادة طفل رضيع ببراءته وعفو العزيز عنه

- حينما أمسك الحارس يوسف، واتجه به إلى موئل
المحنة،
- ضاق قلب يوسف بذلك الألم، ورفع أكف الدعاء -
خفية - نحو السماء،
- قائلاً: «يا عالم الأسرار الخفية، ومعرفة الغيب من
خصوصياتك!
- ٢٥٧٠ - والكذب ينماز عن الصدق أمامك، ومن يعرف هذه
الأسرار غيرك؟
- كما منحتنى شعاعاً من نور الصدق، لا تضع فوق
كاهلي تهمةً بكاذب الأقوال،
- وأقم شاهداً على صدق دعواي، فإن صدقي بينَ أمام
عظمتك».
- فأصاب سهم دعائه الهدف من بنان همته الفاتح
للكون،

- إذْ كان في ذلك المحفل امرأة من أقارب زليخا، ممن
كن يلازمها ليل نهار

٢٥٧٥ - وكان على كتفها طفل رضيع في شهره الثالث،
أطبقت عليه حضنها كروحها،

- وكأنه السّوسنة، لم تجر كلمة على لسانه، ولم يقرأ
كلمة في كتاب البيان،

- فصاح قائلاً^(١): «تمهل أيا العزيز! وخذ حذرک من
الإسراع في العقوبة!!»

[١] يبدو أن الشاعر تأثر هنا بما أوردته كتب التفسير لقول الله سبحانه وتعالى: «... وشهد شاهد من أهلها ...»: إذ يقول الطبري «فإن أهل العلم اختلفوا في صفة الشاهد، فقال بعضهم كان صبياً في المهد، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن وكيع قال حدثنا العلاء بن عبد الجبار عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «تكلم أربعة في المهد وهم صفار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم....»

تفسير الطبري. ح ١٢ ص ١٠٧- والبيضاوي. ص ٣١٢- البغوي ح ٤ ص ٤٣٣- ٤٣٤ على حاشية تفسير ابن كثير وكذلك: ابن كثير ح ٤ ص ٤٢٤، والفخر الرازي ح ١٢٥. وقد جاء ذكر هذا الشاهد كذلك في فتح الباري. «.....» وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبي هريرة....، ووقع ذكر شاهد يوسف أيضاً في حديث عمران بن حصين لكنه موقوف، وروى ابن أبي شيبة من مرسل هلال بن يساف مثل حديث ابن عباس إلا أنه لم يذكر ابن الماشطة... على أنه اختلف في شاهد يوسف فقيل كان صغيراً، وهذا أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وأخرج عن ابن عباس أيضاً ومجاهد أنه كان ذا لحية، وعن قتادة والحسن أيضاً كان حكيماً من أهلها....».

فتح الباري في شرح صحيح البخاري. ح ٦ المكتبة السلفية بالقاهرة.

- إن يوسف لا يستحق العقاب، بل إنه خالق بالعطف والحنان».

- فتعجب العزيز من كلام الطفل، واستطرد بكلمه متأدباً،

٢٥٨٠ - وقال له: «يا من لم تغسل شفتيك من بقايا اللبن، لقد علّمك ربي حسن البيان،

- فأبّن لي عمن أشعل هذه النار، فأحرق بها حجاب عزّتي وشرفي»

- فأجاب: «إني لست غمازاً، حتى أحكى لشخص أسرار آخر،

- إن مسك الصين قد اسودّ وجهه من الغمز، وذلك لأنه يشي بنفسه من خلف مئات الأستار،

- فتأمل ورود الربيع النضرة، كم هي ضاحكة ولطيفة، لاحتجابها خلف الأوراق،

٢٥٨٥ - ولست مغتاباً، ولكن مادمت تريد أن تعرف، فأليك هذا السرّ الدفين،

- اذهب، وألق نظرةً على حال يوسف، وتبيّن كيف تمزّق قميصه،

- «فإن كان قميصه قدّ من قبل، تكن زليخا طاهرة الذيل

- ولا يكون لدعوى يوسف نصيب من الصحة، ويتعلل
· بالكذب لتبرئة نفسه،

- «وإن كان قميصه قد قدّ من دبر»، فقد برئت ساحته
من الخيانة،

٢٥٩٠ - ويكون قول زليخا كذباً، ولم تسلك معك سبيل
الصدق (١)

- وحينما سمع العزيز كلام الطفل، تفحص في الحال
حالة القميص،

- فلما رآه ممزقا من دبر، صبّ لومه على تلك الماكرة،

- قائلا: «لقد أدركت أن الكيد كيدك، وأن القيد على
هذا البرئ قيدك،

- فأى كيد ذلك الذى قمت به أخيراً، وأى سوء ذلك
الذى صنعت به بنفسك فى النهاية؟

٢٥٩٥ - وتجاوزت طريق شرفك وسمعتك، فصرت راغبة فى
عبد من عبيدك،

- واستساغت نفسك هذا الجرم، ثم ألقيت بوزره بعد
ذلك عليه،

[١] اقتبس الشاعر مضمون هذه الآيات من آراء المفسرين لقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُلٍّ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة يوسف. آية (٢٦، ٢٧).

- إن قلب الأبطال لينفطر من كيد النساء، إن كيدهن عظيم^(١)»

- فكيدهن يذل الأعزة، ويأسر العلماء،

- فلا كان أحد عاجزاً بسبب كيدهن، ولا كانت في العالم امرأة مأكرة،

٢١٠٠ - فاذهبي، واعكفي على الاستغفار، وليلتصق وجهك بالحائط خجلاً،

- واجعلي مجلسك مبللاً بالدموع، واغسلي بها صحيفتك من هذه الكلمة الخبيثة،

- أما أنت، يا يوسف، فأمسك لسانك عن الحديث في هذا الأمر، ولا يسرك قول هذا السر لكل شخص،

- وحسبنا مهارتك في الكلام، فقد ظهرت لنا براءتك،

- وطأ بقدميك بعيداً عن طريق الغمز، فإن لابس الحجاب خير من ممزقه^(٢)»

٢١٠٥ - قال العزيز هذا، وخرج من المنزل، فذاع صيته في الدنيا بحسن طبعه،

[١] تأثر الشاعر هنا بقول الله تعالى: ﴿قَلَمًا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدُّ مِنْ دَمْرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. سورة يوسف. آية (٢٨).

[٢] تأثر الشاعر هنا بقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ سورة يوسف. آية (٢٩).

- فالصبر مرغوب فيه، وحسن الطباع جميل، إلا أن يصل إلى هذا الحد،
- فحينما يتهاون الرجل مع امرأته - بحسن الطبع - فإن الأمر يتحول إلى سوء خلق،
- فلا تصبر للمرأة إلى هذا الحد، وإلا تصدّع جدار الغيرة.

شروع نسوة مصر فى الحديث، وإطلاق ألسنتهن
بالطعن على زليخا، وقطع أيديهن
وألسنتهن بسيف العشق

- إن ركن السلامة لا يلائم العشق، فما أطيب الفضيحة
فى حى الملام!

٢٦١٠ - فتبارىخ العشق يجدّها اللوم، وتزيدها الضوضاء
شهرة،

- فاللوم حارس سوق العشق، وهو الذى يجلو صدأه،
- وألوان اللوم فى العشق من كل جانب، هى سياط
لضعاف الأجسام،

- فحينما يكون الحصان المسافر وثيد الخطى، فإنه يسرع
خطاه بذلك السوط،

- فلما تفتحت زهرة أسرار زليخا هذه، وغردت بطعنها
بلايل الكون بأسره،

٢٦١٥ - وعلمت نساء مصر بذلك، فكن جميعاً لائمات،
- وتعقبن زليخا بكل حسن وقبيح، وسلطن عليها سياط
اللوم،

- وقلن: «لقد تخلت عن كل ألوان الشرف والشهرة،
وَقُتِنَ قلبها بعبد عبرانى،
- وسكن حبه شغاف قلبها، حتى نفضت يدها من
الدين والحكمة،
- وياه من ضلال عجيب، أن تميل إلى عبدها،
- ٢١٢٠ - وأشدَّ عجباً منه، أن ينفر العبد منها، ويتعد عن
مواضعها ومسامرتها،
- ولا ينظر إليها فى وقت من الأوقات، ولا يسير معها
فى طريق،
- فأينما تذهب، فإنه يتوقف، وأينما تتوقف، فإنه
يختار المسير،
- وحيثما تكشف النقاب عن وجهها، فإنه يسمر على
عينيه أهدابه،
- ويضحك من كل حزن ييكها، ويغلق كل باب تفتح
- ٢١٢٥ - فهى بالتاكيد ليست جميلة فى نظره، ومن ثم فإن قلبه
لم يمل إليها،
- فلو أن ذلك الحبيب يجلس معنا بعض الوقت، لما
جلس وحيداً بعيداً عنا،
- ولما سلك طريق التفور منا، ولحق لنا رغبتنا ورغبته،

- فليست لأى إنسان قدرة على القبول، إذ ليس ذلك فى يديه،
- فما أكثر ذوات الوجوه الجميلة والطباع الحسنة، اللاتى لايميل طبع الناس إليهن،
- ٢٦٣٠ - وما أكثر من هن حلوات الدلال مثل ليلى، تتفجر دماء القلوب ينابيع من أجلهن.
- فلما سمعت زليخا هذه الحكاية، أرادت أن تفضح أمر هؤلاء الكاذبات،
- وأمرت فهيأوا فى الحال محفلا، دعت إليه نسوة مصر،
- وأى محفل هذا؟ إنه مجلس ملكى، يحتوى آلاف النعم واللطائف،
- وألوانا من الأشربة الصافية، وكأنها النور الممزق للظلام،
- ٢٦٣٥ - وكثوسا بللورية، مترعة بماء الورد الممزوج بالعطر،
- مهبط الشمس مما به من موائد ذهبية، وكأن الأقداح الفضية برج ملئ بالنجوم،
- فطعامه، بنكهته ورائحته اللذيذة، من تلك الأقداح والموائد، قوت للجسم وقوة للروح،

- ففيه من الأطعمة كل ما يشتهى، فقد كدسوا من
الطيور ما جاوز قمر السماء،

- واقتضت الحسان من شفاهن سكرًا، ومن أسنانهن
لوزًا ليكون حلوى هذا المجلس،

٢٦٤٠ - وكان بناء قصر حفلها لذيذا مما به من ألواح الحلوى
المختلفة الألوان،

- وألقوا آلاف القوالب من الفالوذج السكرى ليفرّش
ساحته،

- ولم تدع الجميلات - بشفاهن الحلوة - مكانًا
للوزينج فى أفواههن،

- ولما أضحى اللوزينج طالبا للذة شفاههن، جرى اسمه
على ألسنتهن بعدم جدواه،

- فمن الفواكه الطازجة ما هو ندى ونادر، لكأن
البستاني قد ملأ السلال ماءً،

٢٦٤٥ - ولم يجل بفكر أى مشاهد للعجائب، أن يرى سلة
تخرج وهى مليئة بالماء على هذا النحو،

- والجوارى والغلمان مسرعون فى كل ناحية، يتبخثون
فى الخدمة كالطواويس،

- وفى حلقات، جلست ملائكيات الوجوه من المصريات
على فرُشٍ ذهبية،

- وأكلن من كل مائدة كل ما طاب لهن، وفعلن كل ما يليق بهن من الأعمال،
- ولما رفعت المائدة، طفقت ألسنهن تشكر زليخاوتنى عليها،
- ٢٦٥٠ - فوضعت زليخا، بطبعها المحتال المتفنن، برتقالة وسكيناً على يد كل منهن،
- بحيث كانت السكين الحادة فى أحد الكفين، والبرتقالة فى الكف الأخرى،
- برتقالة صفراء فاقع لونها، علاج لمرض الصفراء،
- ثم قالت لهن: «أيتها الجميلات! يا من تصدّرتن مجلس الحسن،
- لماذا تنفرن بهذه الصورة من رغبتى، فتلمتنى فى عشقى غلامى العبرانى؟
- ٢٦٥٥ - ولو ملأتن عيونكن بنوره، لعذرتنى برؤيته،
- فلو سمحتن، أخرجته لكن، وصرت أنا مرشدته لهذا الغرض»
- فأجبتها جميعاً: «لا رغبة لنا فى كل ما دار من كلام إلا رؤيته،
- فمريه يخرج متبخترًا، ويجرر أذياله دلالاً فوق رءوسنا،

- فنحن مشتاقات له من صميم قلوبنا، ونحن عشاق
وجهه دون أن نراه،

٢١١٠ - إن البرتقالة التي وضعتها على أكفنا، والتي هي علاج
لمرضى الصفراء،

- ليس مستحباً قطعها في غياب وجهه، ولن نقطعها
واحدة حتى يجيء.

- فأرسلت زليخا المربية إليه قائلة: «طف بنا أيها السرو
الباسق،

- وطأ بقدمك خارجاً، حتى أحرّ على قدمك، وأرتمى
أمام قامتك الفارعة،

- إن منزل أحزان القلب موئل لك، فأقبل كي تصبح
العين بساطاً على طريقك،

٢١١٥ - فلم يخرج يوسف بقول المربية، ولم يزدهر كالوردة
من سحرها،

- فاتجهت زليخا إليه بنفسها، وجثت على ركبتيها
أمامه، في تلك الحجرة،

- وقالت له متضرعة: «يا نور عيني، ويا أمل قلبي الحزين!

- لقد منيتني بالأمل في وصالك في البداية، ثم آل
أمرى إلى يأس في النهاية،

- وقد لحق بى العار بين الناس بسببك، وصرت مضغة
فى أفواه الخلائق من جرّائك،

٢١٧٠ - وقد افترضت أنى ذليلة فى نظرك، وأنه لا وزن لى فى
مجلسك،

- فلا تعرضنى للخجل بالذلة وقلة الاعتبار، أمام
سيدات مصر،

- إن قلبى الجريح قد طعم الملح من شفّتك، وانسكاب
الملح عليه من عمل فمك،

- فلا تسلك سبيل الشك فى وفائى، وصنّ حقّ هذا
الملح،

- فرق قلب يوسف للخروج، بسبب الأنفاس الحارة
لتلك الساحرة،

٢١٧٥ - ونهضت كالريح لتهدّته، فزيتته كالسروة بحلة
خضراء،

- ودلت طرته المعنبرة أمام حلتها، وكأنها العنبر الندى،

- حتى ليخيل إليك أنها حيّة من المسك، قد لفت نفسها
حول أجمة خضراء،

- وزينت خصره النحيل - الذى يشبه الشعرة - بمنطقة
ذهبية،

- وإنى لأعجب كيف تحمل ذلك الخصر كل تلك
الجواهر واليواقيت الثمينة،

٢٦٨٠ - ووضعت على رأسه تاجاً مرصعاً بالجواهر، تتجلى
الرقعة من كل جوهرة فيه،

- ووضعت في قدمه حذاء مليئاً باليسواقيت، وربطت
عليه رباطاً من سلاسل الدرّ،

- وجعلت من عباءته القصبية خمائل، ربط بكل خيط
من خيوطها مائة روح ومائة قلب،

- وأعطته إبريقاً ذهبيةً في يده، وسيرت خلفه جارية
متشحةً بالذهب،

- وفوق راحتها إناء من الفضة الخالصة، تبعته كظله
خطوة خطوة،

٢٦٨٥ - فكل من رآه وهو بتلك الخفة والرشاقة، غسل يده من
روحه الخلوة منذ البداية،

- ولا أستطيع وصفه بعد هذا الكلام، فقد كان فوق كل
وصف يخطر ببال،

- وخرج ذلك الكنز المحتجب من بيت الخلوة، كروضة
مزدهرة،

- وجنت نساء مصر، اللائى رأين تلك الروضة، زهرة
رؤية من وروده،

- وبنظرة واحدة أفلت الأمر من أيديهن، وضاع زمام
الاختيار منهن،

٢٦٩٠ - وبقين في حيرة من جمال صورته، وظللن من الحيرة
أجساداً بلا أرواح،

- وحين تمت كل منهن أن تقطع برتقالتها، وهى على
تلك الحالة من النظر،

- لم يفرقن بين البرتقال وأيديهن، وشرعن فى قطع أيديهن،
- وصنعت إحداهن بالسيف من أصابعها قلماً، وكتبت
على قلبها كلمة الوفاء له،

- فهو قلم، لو أنه يبارز السيف لسال الزنجفر من كل
عقدة فيه،

٢٦٩٥ - وصنعت أخرى من راحتها صفحة فضيَّة، وسحبت
عليها جدولاً أحمر كالتقويم،

- وسيرت فى كل جدول سيلاً من الدماء، وقد تجاوز
هذا السيل حدوده،

- فلما رأين أنه ليس إلا جوهراً عالياً، علت صيحة
منهن: «ما هذا بشراً»^(١)

(١) تأثر الشاعر فى الأبيات السابقة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نَمُوتُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ سورة يوسف. آية (٢٠، ٢١).

- إنه لم يصنع من الماء والطين كآدم، وإنما هو ملاك قدسى أقبل من السماء،
- فقالت زليخا: «هذا هو من لا نظير له؛ ومن صرت بسببه هدفاً للوم،
- ٢٧٠٠ - فالطعن الذى أدمى روحى منكن كان كله بسبب عشق هذا الرقيق البدن،
- وقد دعوته لأمنية روحى وجسمى، وطلبت منه الوصال،
- بيد أنه لم يذعن لأمرى، ولم يحقق رجاء عمرى،
- وإن لم يخط بقدمه لتحقيق رغبتى، فسأجعل من ركن السجن مقاماً له،
- ويصير أمره فى هذا السجن إلى الذلة، ويمضى عمره فى المحنة،
- ٢٧٠٥ - فبالسجن تلين طباع المتمرد، ويعمر قلبه بحسن الطباع،
- فالطائر البرى لا يستأنس إلا بهذا، فيهدأ بعض الوقت فى القفص^(١)»

(١) اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات من قوله تعالى: «قَالَتْ قَدْ لَبِئْتُ الَّذِي لَبِئْتُ فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاعِغِينَ ﴿٢٢﴾ سورة يوسف. آية (٢٢)

- فلما رأت نساء مصر وجهه، قطعن أكفًا كثيرة، شوقا إليه، ١

- وفقدت مجموعة من تلك النساء المقطوعات الأيدي عقولهن وصبرهن وقلوبهن

- ولم يحملن أرواحهن بسبب سيف عشقه، فأسلمن الروح قبل أن يغادرن ذلك المجلس،

٢٧١٠ - وفقدت مجموعة أخرى منهن عقلها، فصرن مجنونات من عشق ذلك الملاك،

- وأسرعن إلى الخارج حافيات الأقدام حاسرات الرؤوس، ولم يعدن إلى وعيهن مرة أخرى،

- وعادت مجموعة ثالثة إلى رشدهن، فتعانقت قلوبهن بالحرقة وألم العشق،

- وثمرن من كأس يوسف مثلها، وسقط طير قلوبهن في شراكه،

- فقد كان جمال يوسف للخمر دنا، يحصل منه كل إنسان نصيبه بقدر طاقته،

٢٧١٥ - فالسكر والنشوة نصيب هذا، والخلاص في التفكير من الوجود نصيب ذاك،

- ونثر الروح على جماله قسط هذا، والبقاء أبكم الخيال
ميراث ذاك،

- فلا ينبغي الترحم إلا على تلك المحروقة، التي
حرمت نصيبتها من تلك الخمر.

التماسي. نسوة مصر العذر لزيخا بعد
مشاهدة جمال يوسف ونصحهن يوسف
بالانقياد لزيخا، وتهديدهن
إياه بإرساله إلى السجن

- حينما يكون هناك طلاب كثيرون للمتاع، فإن رغبة المشتري تزداد به تعلقاً،
- وحينما يفتن عاشق بأحد الأحبة، فإنه يجد هدوءه في العشق،
- ٢٧٢٠ - بيد أن النار المحرقة تضطرم في قلبه، حينما يجد له منافساً،
- فلما صارت حال من أخرسهن جمال يوسف شاهد حال على هذا الجمال،
- زادت لوعة زليخا، واشتد ميلها نحو يوسف،
- فقالت لهن: «حينما رأيته، قطعتن أيديكن بسيف حبه،
- فلتعذرني في عشقه، واكففن عن لومي،
- ٢٧٢٥ - وادخلن مخلصات من باب صداقتي، وامددن يد العون لي،

- فعزفن جميعاً على رباب المحبة، وشرعن فى التغنى
بالمعاذير،

- (قائلات): "إن يوسف سلطان مملكة الروح، وحكمه
نافذ فى تلك المملكة،

- فمن ذا الذى يعزم على رؤيته دون أن يعشقه، ولا
يمنحه قلبه حتى لو كان حجراً،

- ومع أن حبه سبب الملك، فإن جماله مسوغ عذرك،

٢٧٣٠ - إنه لم يظهر تحت قبة السماء إنسان يرى وجهه فلا
يعشقه،

- فإن كنت عاشقة، فلا لوم عليك، ولا غرم فى هذه
الصفقة،

- إن الكواكب تدور كثيراً حول العالم، بيد أنها لم تر
معشوقاً بهذا الجمال،

- فليرق قلبه الحجرى لحبك، وليستح من هذه القسوة.

- وولين بعد ذلك وجوههن شطر يوسف، فأعطين
للنصح فى الكلام حقه،

٢٧٣٥ - وقلن له: «أيها العمر العزيز! يا من ذاع صيته بحسن
السيرة!

- إنه نادراً ما تزدهر - فى بستانٍ يقترن الورد فيه
بالشوك - زهرة بلا أشواك مثلك!

- وفي هذا البحر، الذي تعدّ الأفلاك التسعة صدقاً له،
تشرف بك عناصر الكائنات الأربعة،
- لا تتشبث بعلوّ منزلتك، وتنازل عن كبريائك بعض
الشيء،
- فقد صارت زليخا تراباً في طريقك، أيها الطاهر،
فجرّ أذيالك من حين لآخر على هذا التراب،
- ٢٧٤٠ - فماذا ينقص من قدرك، يا طاهر الذيل، لو أنك فعلت
ذلك؟
- وتخلّ عن علل قضاء حاجاتها، وأدّ لها ما تريد حينما
تطلب منك،
- فمادامت لك حاجة عند من لا حاجة له، فلا تسحب
يدك بالحاجة عن المحتاجين،
- ومادامت تنفّذ - مطيعةً - حقوق خدمتك، فلا تنس
حقوق خدمتها،
- وانظر إلى عجزها، ولا تتدّل عليها أكثر من اللازم،
فإنني أخشى عليها أيها السّرو الشامخ،
- ٢٧٤٥ - أنه حينما لا يكون من أمرك إلا العصيان، فإن
العصيان لا يثمر إلا خيث الثمار،

- فتغسل حب جمالك من قلبها، وتبطش بك بيد
جبروتها،

- وخذ حذرک من الصديق، فإنه -حينما يضطر - يتزع
جلد رأس صديقه بذلة،

- وحينما يتجاوز السيل المدمر الحدّ، فإن الأم تضع
وليدها تحت قدمها،

- وهى تهدّدك كل لحظة بالسجن، فإنه مستراح
الأشرار،

٢٧٥٠ - أسود ضيق كقبر الظالمين، يجدّ الأحياء فى الهرب
منه،

- يضيق كل حى بالتنفس فيه، فهو موضع كل من
يستحق الموت،

- ولم تفتح فيه يد الصانع سبيلاً للضوء، ولا منفذاً
للهواء،

- غلق بابه بقفل اليأس، ولم تر غرة صباحه الضياء،

- هواؤه منبع كل وباء، وأرضه مزرعة كل بلاء،

٢٧٥٥ - أسود ضيق كقارورة القار، متاع سكانه الأغلال والسلاسل،

- وقد جلسوا جميعاً على مائدة بغير ماء ولا طعام، بيد
أنهم قد شتموا الحياة،

- فيه بضع حراس قبيحو الوجوه، وبعض المجاورين
حديثهم مرّ،
- في جبينهم طبّات لإيذاء من بداخله، في كل طية مائة
عقدة لأموهم،
- أضربت طبائعهم النار في العالم، فاسودّت وجوههم
بدخانها،
- ٢٧٦٠ - فأنّى يليق موضع المحنة هذا ليكون مقراً لمحسوب
مثلك؟!
- فاشفق على نفسك - بحق الله - وافتح أمام وجهها
باب الأمل،
- وطأطئي رأسك على خطّ التسليم كالعلم، وامح نقطة
الخوف من خاطرها،
- ولو يعتريك الملل منها، فلم ترها جميلة كما يجب،
- كن لنا صديقاً - حينما تأمن شرّها - وكن خليلاً لنا،
ونجياً من الخفاء،
- ٢٧٦٥ - فكل منا فريدة في جمالها، ونحن الأقمار المنيرة لفلك
الحسن،
- فحينما تفتح شفاهنا الماضغة للسكر، تضمّ زليخا
شفتيها خجلاً،

- فشفاها حلوة، ماضغة للسكر، بحيث يتلاشى قدر
زليخا أينما تكون،

- ولما سمع يوسف سحر كلامهن، ورأى عونهن لتحقيق
رغبة زليخا،

- وتخليهن عن طريق الدين والعقل معاً، لا من أجلها
فحسب، بل من أجلهن كذلك،

٢٧٧٠ - ارتعدت فرائضه من كلامهن، وأشاح بوجهه عنهن،

- ورفع أكف الدعاء قائلاً: «يا قاضي حاجة المحتاجين،

- وملاذ المعتصمين بجنابه، وأنيس خلوة المعتزلين،

- ومصباح أفق كل مخلص، وحِصْن من يلوذ بك ضد
كل ظالم،

- إني متعجب من أمرهن، والسجن أحب إلى من
رؤيتهن،

٢٧٧٥ - فالملك في السجن مائة عام، خير من رؤيتي طلعتهن
لحظة واحدة،

- فالنظر إلى المحارم يعمى القلب، ويبعد المرء عن
سعادة القرب،

- وإلا تصرف عني كيد هؤلاء الماكرات، الضالات عن
حمى العقل والدين،

- اللآئى تضيق الأرض على بسببهن، فى الضيقتى، يا
لضيقتى!!» (١)

- ولما طلب يوسف السجن من ربه، أودعه الله السجن
كما أراد،

٢٧٨٠ - فلو طلب العافية من فضل الله، لما ساقه القدر إلى
السجن،

- ولنجا من آفة أولئك الأشرار، وتحرر قلبه من ألم
القيود» (٢).

[١] صور الشاعر هذه الأحداث متأثراً بما ذكره المفسرون لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾، سورة يوسف، آية (٢٣)، حيث يقول الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية: «واعلم أن المرأة لما قالت ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين، وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن أجمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك فى مخالفة أمرها وإلا وقعت فى السجن وفى الصغار....».

تفسير الفخر الرازى ج٥، ص ١٢٩، ويقول البيضاوى: «... وإستناد الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوفته من مخالفتها رزقن له مطاوعتها أو دعونه إلى أنفسهن...»، تفسير البيضاوى، ص ٣١٤، ويقول الخازن: «... قيل إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعاً خروجاً من التصريح إلى التعريض وقيل إنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن، وقيل إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إضافة الدعاء إليهن جميعاً أو لأنه كان بحضرتهم...».

[٢] تأثر هنا بما ذكره المفسرون لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، سورة يوسف، آية (٢٤)، حيث يقول البيضاوى: «... وقيل إنما ابتلى (يوسف) بالسجن لقوله هذا وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية...»، تفسير البيضاوى، ص ٣١٤، كما يقول الخازن: «... قال بعضهم: لو لم يقل السجن أحب لى لم يُبتل بالسجن، والأولى بالعبد أن يسأل الله العافية»، تفسير الخازن، ج٢، ص ٢٣٠.

**حضّ نسوة مصر زليخا على إرسال
يوسف عليه السلام إلى السجن
وندمها على ما فعلت**

- حينما لم يتحول قلب يوسف عن عصمته إزاء مكر
هؤلاء المقطوعات الأيدي،

- اللاتي صرن عابدات للأوثان، بعبادتهن لأنفسهن،
وازدادت عصمته عما كانت عليه،

- صرن جميعاً خفافيش أمام تلك الشمس، ويشن من
نور قربه،

٢٧٨٥ - وأثرن غبار الانتقام لدى زليخا، وحشثنها على إلقائه
في السجن،

- وقلن لها: «أيتها المسكينة المظلومة! إن إنسانة مثلك
ليست جديرة بالحرمان،

- فرغم أن أبناء الحور ليسوا مثل يوسف، فإنك لن
تحققى مآربك بوصاله إطلاقاً،

- ولقد جاهدنا معه كثيراً بالنصائح، وجعلنا ألسنتنا
كالبارد خشونة،

- بيد أن المبرد لم يؤثر فى حديدته، وعلاجه لا يكون إلا
بالشدّة،

٢٧٩٠ - فاجعلى السجن عليه تنوراً، عسى أن يلين حديدته
بذلك المصهر،

- وحينما يلين طبعه الفولاذى بالنار، فإن المعلم يستطيع
أن يصنع منه شيئاً،

- فإذا لم يمكن تليينه بالحرارة، فما جدوى طرق الحديد
البارد؟

- فلما بينت ساحرات اللسان لزيخا أن أمل وصال
الحبيب مرتبط بالسجن،

- طلبت إيذاءه من أجل راحتها، وأرادت أن تضع كتفه
فى تلك الخرائب،

٢٧٩٥ - فحينما لا يصل عشق العاشق إلى درجة الكمال، فإنه
لا يعلق خاطره إلا بمراده،

- ويريد من حبيبه أن يكون تابعاً له، وأن يقوم بعمله
كما يشتهى،

- ويخز روحه بمائة طعنة من شوك الأحزان، بغية
تضويعة وردة من بستان المعشوق.

- وذات ليلة، اجتمعت زليخا مع العزيز، وأفاضت
قصتها عليه من قلبها،

- قائلة: «لقد أصبحت سيئة السمعة في مصر بسبب هذا الغلام، ولحقت بى الفضيحة فيها بين الخاصة والعامة،
- ٢٨٠٠ - واتفق الجميع، رجالاً ونساءً، على أنى عاشقة له من أعماقى،
- وأننى صيد سهامه فى هذا الوادى، ذلك -الصيد- الذى يرتجف فى التراب والدم،
- وأن سهمه قد استقر هكذا فى روحى، حتى أن طعناته قد توالى واحدة فوق الأخرى،
- وأن طرف شعرة منى لا يخلو من عشقه، وأننى غبت عن وجودى بسبب عشقه،
- وأعتقد أنه لدفع هذا الظن، يجب أن أرسله إلى السجن،
- ٢٨٠٥ - وأسير منادياً إثر منادٍ فى كل حى، ليعلن عن عجزه وخيبة أمله،
- قائلاً: «إن هذا جزاء ذلك الأثيم الذى يشارك سيده،
- ودون أن يفكر فى قهر روحه، يضع قدم الرغبة على فراشه،
- وحينما يرى الناس قهرى له، فإنهم يتخلّون عن ذلك الظن السيئ».

- فسرّ العزيز بفكرتها، واستبشرت روحه باستصوابها،
- ٢٨١٠ - وقال لها: «لقد داومت على التفكير، وتأملت في هذا المجال كثيراً،
- فلم أنتخب جوهرةً أفضل مما ثقت، ولم يرد بخاطري خيراً مما قلت،
- وأمره الآن في يدك، فأخمدى غباره عن طريقك» (١)،
- فلما سمعت زليخا منه ذلك التصريح، لوت عنان الكيد صوب يوسف،
- قائلة: «يا أمل قلبي، وأمنية روحي! إتنى لا أعرف في العالم رغبةً غيرك،
- ٢٨١٥ - إن العزيز قد أعلى عليك قبضتي، وأدنى رأسك تحت حكمي،
- فلو شئت ألقيت بك في السجن، ولو أردت لطاولت بقدمك السماء،

[١] يقول الخازن في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُزْءٌ حَتَّىٰ يَجِئَ﴾، سورة يوسف- آية (٢٥): «ثم بدا لهم: يعني للعزيز وأصحابه في الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الإعراض وكنتم الحال وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبراني قد فضحتني عند الناس يخبرهم أنني قد راودته عن نفسي، فإما أن تآذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فرأى حبسه...».

تفسير الخازن، ج٢ - ص٢٣٠، أما البيضاوي فيقول: «وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تبصر ما يكون منه أو يحسب الناس أنه أجرم...».

تفسير البيضاوي، ص٢١٤.

- فنكس الرأس، فالام العناد معى، وأقبل على مبتهجا،
فحتام الاكتاب؟!
 - وطأ بقدميك فى مجال المسالة، وخلصنى من الغم،
وخلص نفسك من المذلة،
 - فلو حققت لى رغبتى، حققت لك رغبتك، ورفعت
اسمك إلى أوج الكبرياء،
- ٢٨٢٠ - وإلا، فإن هناك مائة باب مفتوحة للمحنة، والسجن
مهيأ لزعرك،
 - وخير لك أن تجلس أمامى سعيداً ضاحكاً، من أن
تجلس فى السجن».
 - فانبرى يوسف لإجابتها بالحدة التى تعرفها،
 - فارتعدت لإجابته، وأمرت حراسها الغلاظ
 - فأطاحوا بالتاج الذهبى عن رأسه، وألبسوه خرقة
صوفية بالية،
- ٢٨٢٥ - ووضعوا على رجليه الفضيتين قيوداً حديدية، وألبسوا
رقبته طوق الاستسلام،
 - وأجلسوه مثل عيسى على حمار، وطاقوا به كل أحياء
مصر،
 - وصاح المنادى قائلاً: «إن كل عبد متمرّد، ذى عين
جسورة،

- يمتحن الحرّمات، ويطأ بقدمه فراش سيده،
- خليف أن يحمل إلى السجن، بهذه المذلة كالأشرار،
- ٢٨٣٠ - بيد أن خلقاً كانوا يقولون -أثناء فرجتهم- من كل صوب: «حاشا ثم حاشا»،
- أن يصدر من هذا الوجه الحسن فعل قبيح، وأن يتأتى من هذا المحبوب ما يؤذى القلب،
- إن هذا ملاك عجن بمائة لون من الطهارة، ولا تصدر الأفعال الشيطانية عن ملاك!
- وحسن الوجه يبعد أقدامه عن سيئ الطباع، وما أطيب ما قاله حسن الوجه، صائب الرأي:
- أن: «كل ذى وجه حسن فى الدنيا، يكون طبعه أجمل بكثير من وجهه»،
- ٢٨٣٥ - وكل من جاء قالبه سيئ الصورة، تكون طباعه أقبح من وجهه،
- فكما أن الحسن لا يتأتى من القُبْح، فإن سيئ الطباع لا يتأتى بدوره من جميل،
- وحملوه إلى السجن بهذه الصورة، إلى أن أسلموه إلى السَّجان،

- ولما دخل صاحب القلب الحى إلى السّجن، سرت
الروح فى أجساد المسجونين،

- وعلت ضوضاء فى مكان المحنة هذا، وعلا صياح من
هؤلاء الأسرى،

٢٨٤٠ - ورقص كل الأسرى لمقدم ملك الحسان هذا،

- وصارت قيود أقدامهن أربطة للمحبة، وأغلال أعناقهم
أطواقًا للسعادة،

- واستبدلوا بأحزانهم فرحًا، وخفّ جبل حزنهم حتى
صار كالقشة،

- حقًا! أينما تنزل الحوراء، تصبح الجحيم جنة،

- وأينما يكن أصحاب الوجنات الوردية، يصر الموقد
روضة،

٢٨٤٥ - ولما هدأ من حركته فى السجن، وجهت زليخا رسالة
للسّجان،

- قائلة: «كفّ عن إيذائه بعد ذلك، وفكّ من رقبتـه
الأغلال، ومن قدميه القيود،

- ولا تؤذ جسده الفضى بالصوف، وزين سروه بحلة
مزرکشة،

- واغسل عن مفرقه غبار الحزن، وامنحه الرفعة بتاج العزة،

- وأفرد له حجرة، واجعله فيها بعيداً عن الآخرين،

٢٨٥٠ - وعطر حائطها وبابها، وأنر سقفها ونافذتها،

- وافرش أرضها بالسندس، واجعل لها من الاستبرق بساطاً جذاباً،

- وحين أقام يوسف في تلك الحجرة، ألقى بساط الطاعة،

- وولّى وجهه، وهو في ذلك المنزل، إلى محراب العبادة كعادته،

- وجلس في مجال الصبر، لشكر من نجّاه من كيد النساء،

٢٨٥٥ - فما من بلاء يقع بأحد في الدنيا، إلا وتفوح من هذا البلاء رائحة يسر،

- فالأسير الذي يرتعد من البلاء، تُهَوّن عليه رائحة الأمل صعباًه.

ندم زليخا على إرسال يوسف عليه السلام
إلى السجن، وبكاؤها وعويلها
على فراقه عليه السلام

- ما أعجب آدمى، ذلك الكائن الغافل، فى هذا
القصر الفيروزجى العتيق البنيان،
- فليس من دأبه عرفان النعم، ولا يعرف طبعه إلا
الجحود،
- ولو أمضى دهرًا فى النعمة، لما عرف قدرها حتى
يفقدها،
- ٢٨٦٠ - فكم من عاشق جرأ على الهجر، ظانًا أنه قد شبع من
المعشوق،
- وحينما يشعل الفلك نار الهجران، فإنه يصهر جسده،
ويحرق روحه كالشمعة،
- ولما أضحى السجن روضة على الأسرى، بتلك الوردة
الباسمة،
- وقد كان المنزل بالنسبة لزليخا أفضل من الروضة
السعيدة، بسبب تلك السروة الفريدة،

- فلما خرجت تلك السروة من بستانها، أصبح بستانها
أشدّ ظلماً من السجن،
- ٢٨٦٥ - وتضايق قلبها في هذا السجن، وتضاعفت مشاكلها
بسبب الهجر،
- وليس أشد مرارة على العاشق المسكين من أن يرى
مكان حبيبته خالياً منه،
- وأى راحة تبقى في روضة يرحل منها الورد ويبقى
الشوك؟
- إن وجود حراب الشوك في حديقة بلا ورد إنما هو
لإيذاء الليل،
- فلما رأت روضتها وقد خلت من تلك الوردة، شقت
قميصها كالبرعم،
- ٢٨٧٠ - فحينما تصل الروح إلى الحلقوم من الحزن، فأى
خوف يعتري العاشق لو شق قميصه؟
- فكانت تفتح باباً على صدرها، ليخرج منه الحزن ويدخل الفرح،
- وكانت تمزق وجنتها الوردية بأظافرهما، وتمزق شعرها
المحمل بالعنبر،
- ولما كان وجهها وشعرها علامة على وجود الروح
بها، فإنها كانت تتزع الروح لفراق الحبيب،

- وكانت تدق الحجر على صدرها بيد القلب، وتدق
طبول الحرب لمنازلة الهجر،

٢٨٧٥ - ورغم أنها كانت ملكة من تفوقن فى الجمال، فقد
لحقت بها الهزيمة من دق تلك الطبول،

- وكانت تهيل التراب على رأسها يديها، وتسكب
الدموع من عينها المبتلة،

- وتصنع من الماء والتراب مثل هذا الطين، لتطلى بها
تصدعات الهجر على القلب،

- بيد أن التصدع الذى يحدثه الهجر فى القلب يعسر
طلاؤه بهذه الحفنة من الطين،

- وكانت تجرح شفيتها العنابتين بأسنانها، فكانت تؤذى
العقيق الخالص بعقد الدر،

٢٨٨٠ - ولعلها كانت تريد أن توقف ذلك الدم الذى يصبه
غليان قلبها خارجه،

- وكانت تجعل وجنتيها الورديتين زرقاوين، وكأنهما
النيلوفر من تلاطم الضربات،

- ذلك أن الخضاب يلائم الأفراح، أما المآتم فلا يليق بها
إلا الزُرقة،

- وكانت تخطّ على وجهها من دم قلبها، بينما كانت
تضع يديها على ركبتيها من الحسرة،

- وهى تقول: «من الذى فعل ما فعلت؟ ومن شرب
مثل ذلك السم الذى شربت؟

٢٨٨٥ - فليس فى دار الأحزان هذه عاشق دقت قدمه الفأس
مثلى،

- وقد اقتلعت عينى يدي، وألقيت بنفسى فى البئر
عمياء،

- وربطت على ظهري جبلاً من الأحزان، فقصمته
تحتي،

- ولقد دعى قلبى زمناً طويلاً، إلى أن وجدت حياً جميلاً،
- واضطرب حظى من مكر الفلك، فتخلت عن أذياله
من يدي، دونما مقابل،

٢٨٩٠ - ولقد ضقت ذرعاً من قلبى الهائم، ولم أعد أعرف
علاجاً لأمرى».

- وكانت تنوح نواحاً يحرق الروح، حتى أنها كانت تحيل
ليل أحزانها نهاراً،

- فكلما شمت رائحته فى شيء من الأشياء، تأوّهت من
أعماقها،

- فكانت تمسك بقميصه بين الفينة والفينة، لأنه لاس
جسده يوماً،

- فتعطر به أنفها كالوردة، وتسكن به جراحها،
- ٢٨٩٥ - وتارة كانت تضع وجهها على طوقه، وتقبل أهدابه بكل تحسّر،
- وكانت تقول: «هذا طوق عزة ذلك العظيم، ماذا قلت؟ كلا، إنه رباط روحي!».
- وتارة كانت تضع يدها في كفه، وتعد ذلك انتصاراً لحظّها،
- وكانت تضعه على عينيها بإكبار، وتملؤه فضة على ذكرى ساعده،
- وتارة كانت تضع ذيل قميصه في عينيها، فقد لامس ظهر قدمه يوماً ما،
- ٢٩٠٠ - وإذا أبدت اليأس من تقبيل قدمه، احتالت بتقبيل أذنيه،
- وكلما رأت تاجه بعيداً عن رأسه، نظفت الغبار عن ياقوته وجوهره،
- وكانت تقول: «لقد كان ذلك التاج قريباً لذلك المفرق، وكان عالم بأسره يطأطيء جبينه أمامه».
- وكلما رأت حزامه أدت للعبودية حقها، إذ كان يذكرها بخصره،

- وكانت تتخذ منه أنشودة في رقبتها، على ذكرى صيادها،
- ٢٩٠٥ - ولما كانت تفك حلتها المزركشة، كانت تفتح عينها المليئة بالدموع،
- وكانت تغسل ذيل حلتها بدموع تضرعها، فتطرزه بدموعها الياقوتية،
- وإذا رأت نعليه متجاورين، كانت إفاضة الروح شيئاً هيناً بجوار تقبيلهما،
- فكان يجول بخاطرهما -بوجودهما معاً- أنها سلبت القدرة بعدم رفقته،
- وكانت تضع على القلب ضمادة من رباطها، وتخضبهما بدم العين،
- ٢٩١٠ - وبذا كان يظهر كل لحظة حزن جديد، ويقام كل آن ماتم لرؤية كل شيء على حدة،
- ولما أدركت قيمة المشاهدة، انصهرت من ألم البعد عنها،
- وندمت حيث لا ينفع الندم، فما كان يجدى غير الصبر،
- ولكن كيف يمكن الصبر عن مثل يوسف؟ ومتى تستطيع إخراج حبه من قلبها؟

- فهلاك العاشق مصدره فراق الأحبة، وخاصة بعد التعرف عليهم،

٢٩١٥ - فإذا انفرط عقد الصحبة، فإن الفراق يكون بمثابة العذاب الخالد،

- وإذا لم يكن هناك رباط للصحبة بين الجميع، فإن الفراق يكون غير مستحب، غير أنه لا يكون بمثل هذه الصورة،

- وضايقتها نفسها فتخلت عنها، ولما لم تصل إلى الجمال توجهت إلى القُبْح،

- فكانت تضرب برأسها الباب والحائط، وتغرس الخنجر القاتل في صدرها،

- وكانت تصعد إلى سقف القصر كالحارس، لتلقى بنفسها من فوقه،

٢٩٢٠ - وكانت تتخذ من طرتها الحالكة حبلاً، تخنق به أنفاسها،

- وكانت تبحث عن خلاص من جفاء الدهر، وتطلب كأس السّم من الساقى،

- فكانت تلتمس كل أسباب موتها من أى شىء تريده، قلّ أو أكثر،

- وكانت مربيتهـا تقبل يدها ورجلها، وتدعو لها من أعماق قلبها،

- قائلة: «فلتـحقق رغبتك من الحبيب، وليملا كأسك من ياقوته حتى تطفح حافته،

٢٩٢٥ - وليخلصك الله من الهجر، حتى لا يمرّ الفراق بخلدك أبداً،

- عودى إلى نفسك لحظة، فحتّامَ هذا الدهول؟ واسلكى طريق الحكمة، فحتّامَ هذا الجنون؟

- إنك تدمين قلوبنا من الأحزان، ومن ذا الذى فعل ما تفعلينه الآن؟

- فاسمعى منى، فإنى محنكة فى هذا المجال، إن تدبير هذا الأمر يكون بالصبر،

- وبدون صبر تقعين فى الحمى واللهيب، فأمطرنى على هذه النار من سحاب الصبر ماءً،

٢٩٣٠ - فحينما تشرع صرصر البلاء فى الهبوب، فمن العبث أن نكون قشّة فى مهبّها،

- ومن الخير أن تشبّثى بالصبر، وأن ترسخى بقدميك على الأرض كالجبل،

- فالصبر سبب النصر، وهو أرقى منازل السعادة،

- والصبر يثمر فاكهة أملك، ويحقق سعادتك الخالدة،
- وبالصبر تصبح الأمطار دُررًا فى الصدف، وبالصبر
يمتلئ المنجم بالياقوت والجواهر،
- ٢٩٣٥ -** وبالصبر تخرج السنابل من الحب، ويخرج زاد المسافر
من السنابل،
- وبالصبر تصبح قطرة ماء قمرًا منيرًا بعد تسعة أشهر،
- فهدأت زليخا بقلبها وروحها المضطربين، من قول
المربية،
- وكان ثوبها ممزقًا حتى الذيل، فمدت قدميها بمسعى
الصبر من ذيله،
- غير أن الصبر الذى سلكه العاشق، طبقًا لقول
الناصحين المصلحين،
- ٢٩٤٠ -** سرعان ما ينساه حينما يكف الناصح عن قوله.

عجز زليخا عن تحمل فراق يوسف عليه السلام
وذهابها إلى السجن ليلاً بصحبة مربيتها
ومشاهدتها جمال يوسف عليه السلام

- حينما احتجبت شمس يوسف في سجن الغروب عن
زليخا، من سماء زليخا،

- واختفى وجهها بالسماء في نجوم الدموع، من حب
يوسف،

- وأصابته أحزان يوسف زليخا، حتى إنها كانت تثر
دموعها الشفقية،

- ودمى كبده الشفق من دموعها، وأضحى ذيل الفلك
بلون الكبد تبعاً لذلك،

٢٩٤٥ - شرعت في البكاء بنواح محرق للروح، وهما الآهة
والعويل نفسيهما اللتان شرعت فيهما نهاراً،

- فحينما يولّى يوم العاشق وجهه صوب الليل، فإن
حرقة العاشق تزداد فيه أكثر،

- ذلك أن الهجر يظلم أيامه، ويزيد حلقة لياليه،

- فيومه يسود من الحزن، ويزداد ليله ظلمة فوق ظلمة،

- ففى تلك اللحظة التى يحمل فيها الليل ، ينجب الحزن
للعاشقين ،

٢٩٥٠ - وحينما يخرج الطفل من المشيمة ، فلانه يرضع دم
القلوب بدلاً من اللبن ،

- فمن ذا الذى يكون أسعد من تلك الأم التى يشرب
طفلها الدم بتلك الصورة؟

- فلما أقبلت زليخا ، لنفاد صبرها ، ليلة بشرب الدماء هذا ،
بعيداً عن المعشوق ، مهجورة من المحبوب ، ظلّ ليلها
بغير قمر ، وبيتها بلا ضياء ،

- فحينما لا يكون هناك وجه الحبيب المتألى ، فإن المنزل
لا يضيئه مائة مشعل ،

٢٩٥٥ - ولم تنم عينها من شدة حزن قلبها ، فكانت تذرف دم
القلب من عينها ، وكانت تقول :

- «أنا لا أعرف كيف حال يوسف الليلة ، ومن هو
الموكل بخدمته ،

- ومن الذى بسط سريره تحت قدمه ، ومن هيا رأسه
على الوسادة؟

- ومن الذى كان مصباح وسادته المضىء؟ ومن مسح
كف الراحة عليها؟

- ومن فك منطقته من خصره؟ ومن قصّ عليه الحكايات
عند النوم؟

٢٩٦٠ - وهل يناسبه هواء ذلك المقام أو لا؟ وهل أعدّ عشه
كالطيور الأليفة أو لا؟

- وهل ورد وجناته على ما هو عليه من نضرة،
وسلاسل سنبله على ما هي عليه من ثنايا؟

- أما حمل الهواء نضرة ورده؟ أما جعل سنبله ذابلاً؟

- وهل قلبه مطبق كالبرعمة، أو أنه فاتح شفته بالسرور
كالوردة؟

- كانت تبث حزنها بمثل هذا الكلام في كل عبارة،
حتى انقضى قسط كبير من الليل،

٢٩٦٥ - ولم تبق لها قدرة ولا طاقة بعد ذلك، ولم يبق في
قلبها قطرة من نهر الصبر،

- واضطربت نار ملتبهة في قلبها شوقاً إليه، فقالت
لمريتها، وعينها دامية: «انهضى،

- حتى نتجه بعض الوقت صوب السجن، وندخل بيت
المحنة هذا في الخفاء،

- ونجلس سرّاً في ركن السجن، ونرى قمره،

- فحينما يكون السجن مكاناً لوردي الوجنات، فإنه
يكون ربيعاً بهيجاً جديداً، وليس سجنًا،

٢٩٧٠ - فقلب كل عاشق يتفتح فى البستان، أما قلبى فيتفتح
فى السجن» .

- ثم مضت كالسروة المدللة، والمريية تتبعها متعثرة
كظلها،

- فلما وصل ذلك البدر السارى إلى السجن، طلبت
حارس السجن خفية،

- وأشارت، ففتح لها الطريق، وبدا ذلك القمر المنير من
بعيد،

- فرأته على طرف سجاده من بعيد، وهو غارق فى
النور كالشمس المتلألئة،

٢٩٧٥ - تارة يقف على قدميه كالشمعة، فيفيض وجهه نوراً
على السجانين،

- وأخرى يحنى قامته كالهلال، فيلقى بالنور من وجهه
على البساط،

- وثالثة يضع رأسه على الأرض معتذراً عن التقصير،
كغصن الورد النضر من ريح السحر،

- وتارة يمارس التواضع، فيجلس منكس الرأس
كالبنفسجة،

- فهو بعيد عنها، بينما جلست قريبة منه، بيد أنها
جلست فى ركن مظلم،

٢٩٨٠ - وكانت تتألم من روحها، وتتوح من قلبها وتجعل

الياسمين كالشقائق من نرجسها،

- وكانت تؤذى ياقوت شفتيها بلاكى أسنانها، فكانت

تقطع الرطب من النخل الندى،

- وكانت تخرج من قلبها هذا السرّ دمّا ينسكب من
عينها،

- قائلة: «يا عين المحبوبين ومصباحهم! وأمل خاطر
المحزونين!

- إن عشقك أضرم ناراً فى روحى، وأحرق وجودى من
الرأس إلى القدم،

٢٩٨٥ - ولم يلق وصالك قطرةً على نارى، ولم تخمد حرقه
فى قلبى بقطرة واحدة،

- ومزقت صدرى بسيف الظلم، وإنّى أراك غير مكترث به،

- ألا تملك الشفقة على ظلمى، فوا أسفا على شفقتك
وعلى حرمانى!

- لقد تولد بسبك كل لحظة حزن جديد لى، فليت أمى
لم تلدنى!!

- وليت أن المرية لم تلق بظلّها على رأسى حين ولدتنى
أمى،

٢٩٩٠ - أو أنها حرمتنى اللبن الصافى، وخلطت السم باللبن
بفسوة».

- كانت زليخا فى كلامها بهذه الصورة، ويوسف غارق
فى حاله،

- ولم يكن ليكثرث بوجودها، ولو اكترث ما أظهر
أثرًا،

- وكلما مضى الليل، وكأنه الصباح الطالع، أمطرت
سماء زليخا نجوم الدموع،

- وعلا ضوضاء الطبول الملكية وارتفع صوت المؤذن فى
السحر،

٢٩٩٥ - واتخذ الكلب من ذيله حلقة على حلقومه، وحبس
أنفاسه عن نباح الليل،

- واستيقظ الديك من نوم الليل على الرأس، وعزف
أنغامًا عالية من نايه،

- فأمسكت زليخا بذيلها، وقبلت أعتاب الخدمة ثم
مضت،

- وهكذا أخذت تتردد على السجن مادام قمرها مُختليًا به،

- وأضحى ذلك التردد غذاء روحها، ولم يعد لها مقصد
غير ذلك الذهاب والإياب،

٣٠٠٠ - فإن إنسانًا لا يقصد بستانًا بمثل هذا الشعور الذي كان
يتملكها وهي تقصد السجن،
- حقا! إن من يكون حبيبته حبيب السجن، فأنى تكون
راحته إلا فى سجن حبيبته؟

**صعود زليخا إلى سطح قصرها بالنهار
ومشاهدتها سطح السجن، وبكاؤها
وعويلها لفراق يوسف**

- أقبل الليل حجاباً لأسرار العاشقين، ومزيلاً لغصة المحين،
- فبالإمكان عمل أشياء كثيرة في الليل، ليس من اليسير تدبير أمرها بالنهار،
- فلما أمضت زليخا ليل الحزن، لا، ليس حزناً، بل إنها أمضت مآثم الليل،
- ٣٠٠٥ - أقبل عليها بلاء النهار ومحتته، فأقبل عليها مائة حزن يحرق الكبد،
- فهي لا تملك الإرادة كي تقصد السجن، ولا تعرف الصبر كي لا تذهب إليه،
- فكانت تضع كل لحظة شيئاً من أنواع النعم الطيبة، على كفّ جارية أمينة،
- وترسلها إليه في السجن، فترى وجهه بدلاً منها،
- ولما كانت تلك الجارية تعود من السجن، كانت تشرع هي في مغازلتها،

٣٠١٠ - فتارة تضع وجهها على وجه قدمها، وأخرى تطبع
مائة قبلة على عينها،

- وكانت تقول: «هذه هي العين التي رأت وجه
الحبيب، وهذا هو القدم الذي وصل إليه،

- فلو لم أستطع تقبيل عينه، أو وضع وجهي على كف
قدمه،

- فلا أقل من أن أقبل تلك العين، فإنها تنظر أحياناً إلى
وجهه الجميل،

- وأن أضع وجهي على كف تلك القدم، فإنها تمضي
نحوه أحياناً».

٣٠١٥ - وكانت تسألها بعد ذلك عن حاله، وعن جمال وجهه
السعيد الحظ،

- قائلة: «أما أصاب وجهه ضرر؟ أما تعقدت أحواله؟

- ألم يعتر وجهه ذبول من ذلك الهواء؟ ألم تؤذ جسده
تلك الأرض؟

- وهل يأكل من ألوان النعم التي حملتها أو لا؟ وهل
يذكر تلك العاشقة أو لا؟».

- وكانت تنهض من مكانها بعين دامية، بعد
الاستفسارات والإجابات الكثيرة،

٣٠٢٠ - وكان لها على سطح القصر حجرة، يبدو أمامها سطح
السجن،

- فكانت تصعد إليها وتجلس وحيدة، وتغلق بابها في
وجه الناس،

- وتثقب الدرّ في عينها بأهدابها، وتنظر صوب السجن
قائله:

- «من أنا حتى أشاهد وجهه الوردى؟ يكفينى رؤية
سطحه من فوق سطحي!

- ومادمت غير جديرة برؤيته، فلانى سعيدة بالنظر إلى
بابه وحائطه،

٣٠٢٥ - فحيثما يقيم قمرى، فإن ذلك لا يكون سجنًا، بل هى
الجنة العليا،

- ولسقف منزله نصيب من السعادة، حتى أن شمس
الدنيا تستظل بظله،

- وقد حطم جداره ظهري حزنًا، وقد وضع ذلك القمر
ظهره عليه وأتكأ،

- وتزهو السعادة أمام ذلك الباب، حتى إن سروى
يطأطئ رأسه أمامه،

- ويالها من عتبة سعيدة، تلك التى تقبل أقدام مثل
ذلك المحبوب،

٣٠٣٠ - وما أطيب أن يتناثر جسدى ذرات للعيان لشمس حبه،
- وأسقط مقلوبة من نافذته، أمام شمسهِ المتوهجة،
- وإننى لأحمل آلاف الأحقاد على الأرض التى يتبختر
عليها برقّة،

- فإنها تتعطر بذيل قميصه، وتتعبّر من شعره".
- وباختصار فقد كان هذا شاغلها حتى الليل، إذ كان
همها هو الحديث عنه،

٣٠٣٥ - وقاضت روحها على شفتها فى هذا الكلام، وتحول
نهارها ليلاً وهى فى هذا الحزن،
- فإذا أقبل الليل، فكرت فى حيلة أخرى، كى تسلك
سلوك الليلة السابقة،

- كان هذا ليلاً ونهارها، طالما كان السجن مقراً لذلك
الحبيب،

- فكانت تحتال فى المساء للذهاب إلى السجن، وكانت
تنظر إليها من غرفتها بالنهار،

- وما كانت تخلو وقتاً من هذا العمل، فتارة كانت ترى
الحائط، وأخرى ترى المحبوب،

٣٠٤٠ - وهكذا سكن يوسف فى خاطرها، حتى أنساها النفس
والدنيا،

- ولشدة تذكره فقدت نفسها، ومحت الحسن والقيح
من لوح خاطرها،

- فما كانت تعود لنفسها مرة أخرى، رغم أن الجوارى
كن ينادينها،

- فكانت تقول لجواريتها دائماً: «إننى لن أعود لنفسى
على الإطلاق

- فلا تشرن انتباهى بالنداء، بل حركتنى أولاً، ثم
خاطبتنى،

٣٠٤٥ - فإنى أعود لنفسى فى البداية بالتحريك، ثم أفتح أذنى
بعد ذلك بالسماع،

- فإن قلبى مع سجينى، وذلك مرجع كل حيرتى هذه،
- فكل من يجول ذلك البدر بخاطره، لا يفيق لآخر
غيره».

- وذات يوم تغير مزاجها عن حاله، فاحتاجت إلى
جرح المقصد،

- فما كان يأتى فى عين إنسان من دمها على الأرض
غير يوسف، ويوسف فحسب!!

٣٠٥٠ - فكتب الأستاذ الماهر بقلم مقصده صورة هذه الكلمة
على لوح الأرض

- وهكذا امتلأت عروقها وجلدها بالحبيب، حتى أن شيئاً لم يكن يخرج من جلدها إلا الحبيب،

- فما أسعد من يجد الخلاص من نفسه، ويجد نسيم المعرفة من حبيبه،

- ويسكن مثل هذا الحبيب فى قلبه، حتى لا يتسع لغيره،

- فيرى فى عروقه وأعصابه روحاً، ولا يبقى قدر شعرة من كيانه خالياً منه،

٣٠٥٥ - فلا يكون له رائحة أو لون من نفسه، ولا يكون له سلام ولا حرب مع أحد،

- ولا يتعلق قلبه بتاج أو عرش، بل يحزم أمتعة الرغبة من حى قلبه،

- ولا يضع نفسه فى الحسابان، ولا يسلك غير أمر العشق،

- ولو تناجى فمع الحبيب، ولو رغب فمن الحبيب،

- ويولى وجهه صوب الناضج بدلاً من الفج، ويخرج من وجوده كلية،

٣٠٦٠ - فاخرج أنت يا جامى أيضاً من نفسك بالكلية، وادخل قصر السعادة السرمدى،

- ومادمت تعلم أن طريق السعادة أبدى، وأنه لا تحدث
مثل تلك الصعوبات من نيل السعادة،
- فتحرك بخطاك من هذه الأرض الكئيبة، وطأ بقدمك
فى قصر الفناء العامر،
- فإنك تفنى ولا يصيبك ضرر من جرأ ذلك، فلا كان
لك وجود اليوم، فهذا أجدى لك،
- ولا تطلب السلامة فى البقاء، فلا تجد من تلك الرغبة
ما يشفى غلَّتكَ.

فى شرح إحسان يوسف إلى أهل
السجن، وتأويله رؤيا مقري
ملك مصر، ووصيته لواحد
منهما

- ٣٠٦٥ - إن كل من يولد محظوظًا، يجلُ ضياء سعادته حلقة
الظلام،
- ويذهب إلى منبت الأشواك فيضحى روضة، ويتحول
الورد نوافج تترية،
- فهو كالسحاب، لو مرّ بأرض جافة، لأصبحت بمقدمه
جنة بهيجة،
- وهو كالنسيم، لو هب على حديقة نضرة، لأضاء
مصباحًا فى وجنة كل وردة،
- ولو دخل السجن راضيًا سعيدًا، لحرّر المساجين من
الحزن،
٣٠٧٠ - فلما أصبح السجن حديقة ضاحكة لنزلائه برويتهم
يوسف،
- وسرّوا جميعا بمقدمه، وتحرروا من قيد الألم والحزن،

- وأضحت الأغلال فى أعناقهم أطواقاً للسعادة،
وسلاسل أقدامهم خلاخيل بهيجة،
- فلو مرض سجين وبات أسير المحنة والألم،
- فإنه كان يسعى جاهداً لعلاج، ويخلصه من ألمه،
- ٣٠٧٥ - ولو ضاق المكان على أسير، فقد كان يسعى لتدبير
أمره،
- وكان يسعى لرضائه بوجه طلق، ويسعى به من الضيق
إلى الاتساع،
- ولو شق السرور على مفلس، ودخل قمره المحاق
بسبب الإفلاس،
- فإنه كان يأخذ مفتاح الذهب، ويحطم قفل الضيق
بالسرور^(١)
- ولو رأى سعيد مناماً، وتاهت أمتعته فى دوامة
الفكر،

[١] يقول القرطبي فى تفسير قوله تعالى: «إنا نراك من المحسنين»: «فإحسانه ما كان يعود المرضى ويدأويهم، ويعزى الحزانى، قال الضحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له...»، تفسير القرطبي ص ٢٤١٩ طبع دار الشعب.

ويقول الطبري: «اختلف أهل التوفيل فى معنى الإحسان الذى وصف به الفتيان يوسف فقال بعضهم هو أنه كان يعود مريضهم ويعزى حزينهم، وإذا احتاج منهم إنسان جمع له...».

٣٠٨٠ - فمن شفّيته كان يسمع تأويل رؤياه، وترسو أمتعته على شاطئ الأمان،

- وقد حُرّم اثنان من مقرّبي ملك ذلك الإقليم من شرف قربه،

- وكانا رفيقين له في السجن، ونجّيين له، وشركاءه في محنته،

- وذات ليلة رأى كل منهما رؤيا، أشعلت نار الألم في روحه،

- فرؤيا أحدهما تبشّر بنجاته، ورؤيا الآخر تنذر بانتهاه حياته،

٣٠٨٥ - غير أن تأويلهما كان محتجبا عليهما، ولذا كان هذا الأمر عبثا ثقيلا على نفسيهما،

- فقصا على يوسف رؤياهما، وسمعا منه التأويل،

- وعوقب أحدهما بالإعدام، وقُرب الآخر في حضرة الملك^(١)،

[١] تأثر الشاعر بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة يوسف، آية (٢٦)، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، يوسف، آية «٤١».

- فكان ذلك الشاب الذي يتقرب إلى الملك، يدنو بذلك
من عرش العزّ والجاه،

- وحينما ولى وجهه صوب الملك الجالس على العرش،
أشار عليه يوسف قائلاً:

٣٠٩٠ - «حينما يؤذن لك بمجالسة الملك، وتجد فرصة الحديث
في حضرته،

- اذكرني في الحال عنده، فإنك تحظى بخير عظيم
بذكرك إياي

- وقل له: إن في السجن غريباً، حُرّم من عدل ملك الزمان،
ولا يرضيه عذاب برىء مثلى، فهذا أبعد ما يكون عن
سبيل العدالة».

- وحين شرب ذلك الممتع بالسعادة والجاه من كأس قرب
الملك،

٣٠٩٥ - تلاشت تلك الوصية من فكره، فلم يذكرها إلا بعد
بضع سنين،

- وأثمرت شجرة وعده اليأس، فتركه أسير سجن
البلاء^(١)،

[١] تأثر هنا بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ
فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ يوسف، آية (٤٢)

- حقاً! إن من يصطفيه الله، ويجلسه فوق عرش المحبة معزّزاً،

- يقطع طريق الأسباب أمامه، ولا يرضيه أن يكون مدينًا لهذا أو ذاك،

- فلا يتوجه إلا إليه، ولا تتعلق طباعه بمخلوق،

٣١٠٠ - ولا يرضى عن إيدائه بيد الآخرين، ولا يجعله يحتاج لسواه،

- فهو يأبى أن تتعلق يده بأذيال أحد، بل يريده أسير شراكه فحسب.

طلب ملك مصر يوسف عليه السلام لتأويل رؤياه ورفضه الخروج من السجن

- ما أكثر الأقفال التى مفاتيحها غير ظاهرة، وطريق فتحها غير معلوم،
- فإنها تكون مثل أمر الحكيم، شديدة التداخل، اجتهاد الفكر والنظر أمامها هباء،
- وفجأة، وليست هناك يد الصنع، وليس بخاطر الصانع أى ظن لفتحها،
- ٣١٠٥ - يظهر فتح له من الغيب، وبظهور الوديعه يتحقق كل أمل،
- إذ أنه لما قطع يوسف رجاءه من حيله، وقطع صلته بحبل التدبير،
- لم يبق له ملاذ إلا الله، فهو مأوى المرء فى النوائب،
- وتحرّر من التفكير فى وجوده وحكمته، فأسأله الله بفيض من فضله،
- وذات ليلة رأى سلطان مصر - ذلك الملك السعيد - سبع بقرات فى رؤياه،
- ٣١١٠ - جميعها قمة فى الحسن شديدة السمنة، وكل منها .

- تفوق الأخرى حسناً وجمالاً،
- ثم بدت له بعد ذلك سبع أخرى، فى مقابلها،
جميعها هزال عجاف،
- ولت وجوهها صوب السبع الأولى، وطعمنها
كالخضرة عن آخرها،
- وبنفس الصورة، رأى سبع سنابل خضراء ممتلئة، يقات
منها القلب وتشبع العين،
- ثم تلتها سبع أخرى يابسات، أحاطت بها وأفتتها
جميعاً،
- ٣١١٥ - وحينما استيقظ السلطان من نومه، طلب تأويل رؤياه
من كل عارف^(١)،
- فقالوا جميعاً: «إن تأويل هذه الرؤيا محال، إن هى
إلا أضغاث أحلام،
- فلا تأويل لها فى نظر العقل، ولا علاج منها إلا عدم
التفكير فيها^(٢)»،
- فأزال الشاب الذى كان يعرف يوسف الستار عن

[١] تأثر الجامى فى نظم هذه الأبيات بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، سورة يوسف، آية ٤٣

[٢] ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾، يوسف، آية ٤٤

أمره،

- قائلاً: «إن في السجن شاباً تكسوه هبة الملوك، خير
بحل العضلات،

٣١٢٠ - وهو حاذق في تأويل كل رؤيا، وقلبه غوّاص هذا
البحر، وصياد جواهره،

- فلو أنك تأمرني، فإنني أكشف له هذا السرّ، وأعرف
منه تأويل رؤياك^(١)،

- فقال له: «أى إذن تريد مني؟ وهل يطلب الأعمى
أفضل من عين مضيئة؟!

- لقد أصيبت عين حكمتي منذئذ بالعمى، منذ ابتعدت
عن معرفة هذا السرّ،

- فأسرع الشاب صوب السجن، مبيّناً ليوسف رؤيا
الملك،

٣١٢٥ - فقال له: «إن البقر والسنابل كليهما تشير إلى السنين،
وتصفها بأوصافها،

- فحينما تكون السنبلة ممتلئة، والبقرة سميئة، فإنهما
تنبتان عن عام رخى،

- وحينما تكون السنبلة يابسة، والبقرة هزيلة، فإنهما

[١] ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ يوسف، آية ٤٥

ينذران بعام قحط،

- فالسبع السنوات الأولى يكون فيها المطر والحقول
والحبوب وفيرة

- مويعم الخير العالم بأسره، ثم تأتي بعد ذلك السبع
الأخرى،

٣١٣٠ - فتأتي على كل الخيرات السابقة، حتى تضيق أرواح
الخلائق من القحط،

- فلا تمطر السماء سحاب العطاء، ولا تنبت الأرض
بأدرة عشب،

- وينسى الأغنياء سرورهم، وتفيض أرواح المعدمين
قحطاً،

- وهكذا يختفى الخبز من مائدة الزمان، حتى ليقول
الآدمي: «الخبز» ثم يسلم الروح^(١).

- سمع الشاب هذا الكلام وعاد، وصار نديماً بمجلس

[١] ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يوسف، آية «٤٦»، ويلاحظ أن الشاعر جعل
يوسف يكتفى بتفويل رؤيا الملك في هذه الأبيات، ولا يقوم بعرض رأيه في مواجهة هذا
الموقف إلا بعد خروجه من السجن ولقائه مع الملك، حيث اقتبس الشاعر مضمون أبياته
من قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ
(١٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، يوسف، آية «٤٧، ٤٨، ٤٩».

الملك العادل،

٣١٣٥ - وقص حديث يوسف وتأويله، فتفتح برعم قلب الملك
لحديثه،

- وقال له: «انهض، وأحضر يوسف، حتى يزيد يقينى
من هذا الكلام،

- فمادام بالإمكان سماع الكلام من المحبوب، فلا ينبغي
سماعه من كل فم،

- إنك تحكى الكلام عن الحبيب سكرًا، فلو أنه يقوله
بنفسه فإنه يكون أكثر حلاوة،

- فأسرع إلى السجن مرة أخرى، وحمل تلك البشرى
إلى فريد عصره،

٣١٤٠ - قائلاً: «تبخر يا سرو رياض القدس، وطأ بقدمك فى
حديقة قصر الملك،

- واختل بهذا الوجه الجذاب، وزين حديقة ذلك القصر
ببهاء وجهك».

- فقال له: «لماذا أذهب إلى حضرة الملك الذى ألقى
بىء مثلى

- فى السجن سنوات، ودفع بى إلى اليأس من سحائب
الكرم،

- فلو أنه يريد منى الخروج من بيت الأحزان هذا،

فليأمر في البداية،

٣١٤٥ - أولئك اللاتي قطعن أيديهن حسرةً على وجهي حينما رأينه،

- أن يتجمعن في مكان واحد كالشريا، ويزلن النقاب عن أمرنا،

- ويذكرون ماذا كان ذنبي، وماذا رأين مني، ولماذا حملوا متاعى إلى السجن؟

- فعسى أن ينجلي سرى للملك - ويتأكد - أن ذيلى طاهر من الخيانة،

- وليس من شيمى ارتكاب الجرائم، ولا يدور بخلدى أن أرتكب خيانة،

٣١٥٠ - فلم تصدر منى خيانة فى ذلك المنزل، ولم ييدر منى غير الصدق والوفاء،

- إنه خير لى أن أسرق الخزائن، من أن أكون متهاكاً لفراش سيدى^(١)

- فلما قال الشاب هذا الكلام للملك، أمر قنادوا فى نساء مصر،

- فتجمعن جميعاً أمام الملك، وصرن كلهن فراشاً حول

[١] «وَقَالَ الْمَلِكُ اشْرَبِي بِهِ قَلَمًا جَاءَهُ الرُّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَوَدِيهِنَّ عَلِيمٌ» يوسف، آية (٥٠)

تلك الشمعة،

- وحينما احتشد ذلك الجمع أمام الملك، سلّ لساناً
ناريّاً، كلسان الشمعة،

٣١٥٥ - قائلاً: «ماذا رأيتم من شمع الروح المقدّس هذا؟
فسلّتم عليه سيف الفضيحة؟

- لقد كنتم في الربيع والبستان بوجود وجهه، فلماذا
أرسلتم به إلى السجن؟

- وأى عاقل يضع غُلاً حول رقبة دمية يدمى الورد
بنانها؟!

- وتلك الوردة التي لا تتحمل نسيم السحر، أنى
تستبدل الماء بالسلاسل في أقدامها؟.

- فقالت النسوة: «أيها الملك السعيد، يا من تبارك التاج
والعرش بعظمته!

٣١٦٠ - إننا لم نر من يوسف إلا الطهارة، وإلا العزّة
والشرف،

- والجوهر في صدقه لا يكون طاهراً طهر يوسف من
الاتهام.

- وكانت زليخا جالسةً هي الأخرى هناك، وقد حرّرت
لسانها من الكذب، وروحها من الكيد،

- وقد نظفت رياضات عشقها ألوان مكرها المحتجبة وراء

الستار،

- وأطلّ نور الصدق من روحها، فتتفّست كالصباح
الصادق بالحق،

٣١٦٥ - وأقرّت صراحةً بجرمها، وارتفع في الأفق قولها «الآن
حصحص الحق»

- وقالت: «ليس ليوسف ذنب، ولكنى ضللت الطريق
في عشقه،

- فلقد دعوته لوصالى أولاً، فلم يحقق لى رغبتى (١)
فطرده من أمامى،

- ووقع فى السجن قسوةً منى، واعتورته تلك المصائب
مما لحق بى من الأحزان،

- ولما تجاوزت أحزاني الحدّ، رثى حالى لحاله،

٣١٧٠ - فلو أن ظلمًا كان قد لحق به من ظالم، فمن الواجب
تلافيه الآن،

- فيوسف خليك بأضعاف أضعاف كل إحسان يصدر من
الملك الخير».

- فلما سمع الملك هذا الكلام الموزون، تفتّح كالبرعم

[١] ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾، سورة يوسف، آية «٥١»

وازدھر كالوردة،

٠ وأمر أن يحضروه من السجن إلى بستان ذلك القصر
البهيج،

- فهو ورقة ورد باسمة من حديقة الرقة، وخير للوردة
الباسمة أن تكون في البستان لا في السجن،

٣١٧٥ - وهو ملك سعيد الحظ في مملكة الروح، ومقام الملك
لا يكون إلا في أعلى العرش.

خروج يوسف من السجن، وإعزاز ملك مصر له، ووفاء عزيز مصر

- هناك قانون عتيق فى هذا الكون، أنه لا حلاوة للحياة
بغير مرارة،
- فالطفل يقتات الدماء فى الرحم تسعة أشهر، حتى
يخرج إلى الحياة بوجه كالقمر،
- وما أكثر الصعوبات التى يلقاها الياقوت فى الصخر،
حتى تمنحه الشمس المتوهجة لونه،
- وحينما أمعن ليل يوسف فى الطول، كان طلوع
الصباح هو الوسيلة لعلاجه،
- ٣١٨٠ - وحينما ثقلت وطأة الحزن على قلبه كالجبل، ارتفعت
شمسه من وراء هذا الجبل،
- وصدر أمر الملك إلى المقربين فى بلاطه أن يعظموه
ويكرموا،
- فخرجوا من إيوان الملك، المتبوء عرش الشمس، إلى
ميدان قطره فرسخان،
- وعلى كلا الجانبين حتى السجن اصطفت الخلائق،
مظهرةً زيتتها،

- ما بين غلمان متمنطقين بأحزمة ذهبية، مسختالين فى
'ملايس مزركشة،

٣١٨٥ - وبين مطربين فى صورة الشموس، يغنون بالعبرانية
والسريانية،

- وحشود من الفرسان المهرة، يتباهون مع بعضهم
بخيولهم العربية،

- أما عظماء مصر، الذين لا حصر لهم، فأخذوا يثرون
العطايا من كل جانب،

- وشق الفقراء فى كل صوب ملايسهم، وأذبالهم أملا
فى العطاء،

- وحينما اتجه يوسف إلى الملك بملايسه الملكية الخاصة،

٣١٩٠ - على صهوة جوادٍ أغرق من قدمه حتى مفرقه،
بالذهب والجواهر،

- فقد كانوا يثرون فى طريق حصانه أطباق المسك
والعنبر من كل جانب،

- ويلقون بأكياس الدرّ والجواهر، فيخلصون بذلك
الفقراء من فقرهم،

- وحينما ظهر موكب الملك، ترجّل عن حصانه السريع،

- فآلقوا بالأطلس والحرير تحت أقدامه، فعلا حتى
صارت قدماه يازاء رؤوسهم،

٣١٩٥ - فكان يمشى فوق الخبز والحريير، ويتجول على الأطلس
كقمر السماء،

- ولما علم الملك بقرب قدومه، أسرع كالحظ لا استقباله،
- فضمه في حضنه بشدة، كالسروة الوردية الوجنات،
وشجرة الشمشاد الملوثة،
- وأجلسه على العرش بجواره، واستطرد في الحديث
معه بأسئلة لطيفة،
- وفي البداية، سأله تأويل رؤياه، فسالت شفته الحلوة
بالحقائق،

٣٢٠٠ - ثم سأله بعد ذلك أسئلة متفرقة عن كل أمر، وفي كل
مجال،

- فأجابه إجابة جذابة حلوة، تملكته النشوة من جرائها،
- وفي النهاية قال له: «هذه الرؤيا التي رأيتها، وسمعت
منك بوضوح تأويلها،
- كيف لي أن أتصرف بشأنها، فأجنب الخلائق
أحزانها؟»

- فقال: «ينبغي في أيام الرخاء، حين لا يبطئ السحاب
ولا الأنهار،

٣٢٠٥ - أن ينادى في كل بلد، بأن على الشعب ألا يحترف إلا
الزراعة،

- وأن يحفروا الصخر الصلد بأظافرهم، ويسقروا

المحاصيل بعرق جيئهم،

- ٣ - فإذا ملئت السنابل بالحب، فليخزنوها للزاد كما هي،
- فقد نبتت الأسنة من جسدها، لتكون ضارية بالرماح
- في وجه أعداء السنابل،
- وحينما تظل السنابل في مخازنها، فإن يوم القحط لن
- يأتي،

- ٣٢١٠ - فيحمل كل شخص - حلقة حياته - قدر حاجته من
- تلك المثونة،
- بيد أنه لا بد لكل عمل من كفيل يكون له من الحكمة
- خير دليل،

- ويعرف غاية هذا الأمر بالمعرفة، ولذا يتمكن من
- تنفيذه،

- وقلما يوجد كفيل مثلي، خير بكل شيء في الدنيا،
- ففوض إلى تدبير هذا الأمر، فإنه لن يظهر شخص
- جدير به مثلي^(١)

- ٣٢١٥ - فلما رأى الملك منه هذه الحنكة، رفع من شأنه في

[١] سبق أن أشرت أن الجامي قد اقتبس مضمون هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾. سورة يوسف. آية (٤٧)

أما الآيات التالية فمضمونها مقتبس من قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يوسف. آية (٥٥).

- مملكة مصر،
- وجعل الجيش تحت إمرته، والأرض له ميداناً،
- وأجلسه على العرش الذهبى مكانه، ونادى به عزيزاً لمصر معزراً،
- فكما كان يضع قدمه فوق العرش، كانت دنيا بأسرها تطأطئ رأسها تحته،
- وكلما كان يذهب من الإيوان إلى الميدان، كانت أصوات الحراس تشق عنان السماء،
- ٣٢٢٠ - وكان أمامه آلاف من ساحبى الركائب فى كل ناحية يطوف بها،
- وفى كل إقليم كان يمر به راكباً، كان جيشه يفوق الحصر، وكما وهب الله يوسف هذه الرفعة، منحه عزّة بقدرها^(١)،
- وتلاشت عن عزيز مصر سعادته، ونكست أعلام عزته،
- ولم يتحمل قلبه وقع هذا الضرر، فسرعان ما أضحى هدفاً لسهم الأجل،
- وأدارت زليخا وجهها إلى حائط الحزن، وانحنى

[١] ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَجِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُفِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف. آية (٥٦)

- ظهرها من عبء هجر يوسف،
- ٣٢٢٥ - فلا بيتها عامر بجاه عزيزها، ولا قلبها متحرر من
حزن يوسف (١)
- فالقدر الذى يهل فى أمر الحب، ويتعجل أمور
الكراهية، عمله فى دار الحرمان هذه هو:
- أن يرفع واحداً إلى السماء كالشمس، وي طرح الآخر
أرضاً كالظلال،
- فما أسعد ذلك الحكيم الذى لا يلقى بالاً لصنعه فى
كل شأن وأى أمر،
- فلا هو يفرح بإقباله، ولا تذوب روحه كمداً حين
يدبر عنه .

[١] يقول الطبرى فى تفسيره الآية السابقة: «لما قال يوسف للملك ﴿اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم﴾ قال الملك فولاه فيما يذكرون عمل أطفير - عزيز مصر - وعزل أطفير عما كان عليه...» تفسير الطبرى: ج ١٢ ص ٥٠.

فى شرح حال زليخا بعد وفاة عزيز مصر
واستيلاء محبة يوسف عليها، وابتلائها
بالمحنة وألم فراق الهجر

٣٢٣٠ - إن القلب الذى يحزنه العشق، لا يتسع لأى حزن آخر
أو فرح،

- فلا يقوى على تحمل حزن آخر، ولا تسره أفراح
المحيطين به،

- فلو أصبحت الدنيا بحرًا للأحزان، وبرزت أمواج
الأسى كالجبال،

- فإن ذيل قميصه لا يتل من الماء، ولا يتأثر بما به من
أحزان،

- ولو هيا الزمان حفلاً للطرب، لولى هو وجهه صوب
السعادة الخالدة،

٣٢٣٥ - وأعرض عن حفل السعادة هذا، غير مرید أن يقلّ
حزنه قدر شعرة،

- فقد كانت زليخا طائرًا حزين الأنغام، ضاقت بها الدنيا
فصارت كقفض الطيور،

- وفى ذلك اليوم الذى حالفتها فيه السعادة، وكانت
'حرمة المنزل روضة فى أحاسيسها،
- وكان العزيز يبسط على رأسها الظل، وكان غصناً
بهيجاً يظلها بظله،
- وتجمعت لديها كل أسباب السعادة، وكانت لها وجنة
متوقدة كالشمعة،
- ٣٢٤٠ - ولكن أحزان يوسف ما كانت لتفارقها، وما كان
لسانها يسلو الحديث عنه،
- ولما ذهب العزيز عنها، ولم يبق لها شيء من أسباب
السعادة،
- كان طيف وجه يوسف حليفاً لها، فكان أنيس قلبها
الجريح،
- فكانت تولى وجهها صوب أطلال ذكراه، وتتخذ لها
مسكناً فى زوايا الغم،
- وما كانت تأكل أو تنام لفراقه، وكانت تهطل من
عينها الدم وهى تقول:
- ٣٢٤٥ - «ما أطيبه زمناً ذلك الذى أسعدنى فيه الحظ، فكنت
مع الحبيب فى قصر واحد،
- والقلب نحال من الأعباء برؤيته، فقد كان يتمتع
بجماله كل يوم مائة مرة،

- ولما حرمني الحظ تلك السعادة، ألقيت به فى السجن
محروماً ومظلوماً،
- وكنت أشق طريقى فى الخفاء ليلاً إلى السجن، لأتملاً
ذلك الوجه القمرى،
- وكان باب ذلك المنزل الذى يقيم فيه وحائطه يزيلان
صدأ الحزن عن قلبى نهارة،
- ٣٢٥٠ - وقد بعدت اليوم عن كل ذلك، وبقيت متألّة القلب
مهجورة الجسد،
- لا أملك منه إلا ذكرى فى الفؤاد، ولا أحرّر منه وقتاً
من الأوقات،
- وكيف أبقي حياة لو فارقنى طيفه؟ إن ذكراه هى روح
جسمى،
- وكانت تقول هذا الكلام متأومة، فتضرم آهتها النار
فى الشمس والقمر،
- وكامتداد مدة الألف فى كلمة (آه) كان دخان آهتها
ينعقد مظلة سوداء فوق رأسها،
- ٣٢٥٥ - وما كان لها ملاذ من شمس الحادثات فى وقت من
الأوقات إلا تلك المظلة،
- وما كانت تلك المظلة وقاية لها، بل كانت جنة للسماء
من سهامها،

- فلو لم تصبح حائلاً بين سهامها وبين السماء،
لاخرقت صندوق السماء،

- وكانت تصب دموعها قانية من عينها على الدوام، لا
ليست دموعاً بل دم خالص،

- ولما اعتسرتها الحمى من حرقة قلبها، سكبت أهدابها
الماء على شفتيها،

٣٢٦٠ - ولم تكن تزيل تلك الدموع القانية من وجنتها، وكأنها
تريد وجهها أحمر كلونها،

- ولما كانت تطلّي وجهها بحمرة تلك الدموع، فإن
رباط المحبة كان يتجدد في قلبها،

- فهي لم تحضر مالا في ظاهر الأمر، وإنما أعدت دم
الكبد صداقاً لتلك الرابطة،

- فتارة تمزّق وجهها الوردى بأظافرهما، وكانت ينابيع
الدم تنساب حينما تفتح عينيها،

- فكانت عيناها مثل محبرتين، تكتب بهما سطور النجاة
من أحزانه،

٣٢٦٥ - وتارة أخرى تمزّق صدرها وقلبيها، وتمحو كل شيء من
روحها غير صورة الحبيب،

- وثالثة تمرغ وجهها البائس في التراب، صائحة من
أعماقها الجريحة،

- وكانت تدق يديها على ركبتيها، فتُحِيلُ الياسمين
بلون النيلوفر،

- وكأنما كانت تقول: «حتى أكون جديرة بحبه، فإنني
نيلوفر لو أنه صار شمسًا،

- ومادام الحبيب شمس المشرق، فلا عمل لى سوى أن
أكون «نيلوفر»،

٣٢٧٠ - وكانت تدق قُبْضَةً يدها على قلبها كشجرة الصنوبر،
وتعض أصابعها كقصب السكر،

- فكانت أصابعها الجريحة تنقش كفها الخالية من كل
نقش،

- وكانت تتخذ من أصابعها الدامية أقلاما، ومن راحتها
الكافورية أوراقا،

- وكانت تكتب فيها كلمة الحب دون أن تكتب كلمة
غيرها،

- بيد أن حبيبها الذى يسخرق ما وراء المكتوب، ما كان
يقرأ شيئًا من قصتها فى تلك الورقة،

٣٢٧٥ - كان هذا شأنها سنوات عديدة، وكان هذا ألمها وتعبها
من جرّاء هجره،

- وأظلم شبابها بسبب الفلك العجوز، وصار شعرها
الحالك فى لون اللبن،

- وعلا مفرقها صباح الشيب، وفضّ الليل مجلسه،
وضبّ الكافور مسكه فى مزرعة،
- وولى الغراب من سهم القدر، واتخذ مكانه اليوم
عشه،
- ولا يخطر ببال عجوز فى بستان الكون، أن يتخذ
اليوم مكان الغراب مسكنه،
- ٣٢٨٠ - وغسلت الدموع سواد برجسها، وسرى البياض فى
سواد عينها،
- فقد كانت عينها متشحة بالسّواد فى المسرات، تحت
هذا السقف ذى القاعدة المعوجة،
- فلماذا تحولت إلى البياض حين صارت مكلومة من
اليأس؟
- ربما سلكت هذا الأمر تقليدًا لبلاد الهند، فالأمر
معكوس عند الهنود،
- وسرى الذبول إلى ورد وجهها، وتصدعت صفحة
نسرینها،
- ٣٢٨٥ - وتلك الشية التى كانت تضى على حاجبها ضربًا من
الدلال، أدلتها الشیخوخة على وجهها،
- إن أحدًا لا يذكر فى بناء الكون الغتيق أن الماء يتموج
دون أن يحركه النسيم،

- بيد أنه هبّ النسيم أم لم يهب، قد ملت الأمواج
صفحة وجهها المشبه صفحة الماء،
- وانحنى سروها الباسق من عبء العشق، وياتت رأسها
نجية قدميها كالحلقة،
- فكانت من رأسها إلى قدميها خارج مجلس الوصال
كحلقة الباب من حظها المعكوس،
- ٣٢٩٠ - ولما ضاعت قوة إبصارها في هذه الأرض المشبعة بدماء
الخلائق،
- كانت رأسها قد تدلّت بسبب انحناء ظهرها، وكأنما
كانت تبحث عن بصرها الضائع^(١)،
- وكانت تقضى الشهور والسنوات في تلك الأطلال،
ورأسها خالٍ من التاج، وقدمها عارية عن الخلخال،
- وكفها خالية من الملابس الحريرية، وأذنها مجردة من
فصوص الجواهر،
- ورقبتها عطل من الطوق المرصع، وفارق وجهها القناع
الذهبي،

[١] واضح تأثر الشاعر بالإسرائيليات في هذا المجال، ذلك أنه تأثر بما ذكره وهب بن منبه في تصوير حال زليخا بعد موت زوجها، حيث يقول: «... ذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن وذهب مالها وعمى بصرها بكاءً على يوسف...» تفسير القرطبي، ص ٢٤٤٢ طبع دار الشعب.

- ٣٢٩٥ - وتحت جبينها بساط من التراب، ولِبْنَةٌ في نظرها أفضل
من مهد الحرير تبسطه الحور،
- واللينة تحت وجهها مع ذكرها هي وسادة مربعة من
الجنة،
- وفي هذه المحنة، التي تحدثت عن طرف منها، وثقبت
جوهر مائة حكمة لشرحها،
- ما كان يجرى على لسانها غير يوسف، وما كان
لروحها راحة غيره،
- وفي ذلك الوقت الذي كانت تملك فيه كنوز الفضة
والذهب وآلاف الصناديق المليئة بالدرر والجواهر،
- ٣٣٠٠ - كانت تلقى بكنوز الذهب والفضة تحت قدمي كل
شخص يُسمعها قصة يوسف،
- وكانت تملأ فمه حتى حافته بالجواهر والدرر،
كالصندوق المليء بالمجوهرات،
- وداومت على هذا العطاء الذي كانت تتصف به، حتى
خلت يدها من كل ما تملك،
- وقنعت المسكينة بملابس صوفية، وتمنطقت فوقها
بمنطقة من ليف النخيل،
- وأغلق المحدثون عن يوسف شفاهم، وجلسوا قانعين
بالصمت،

٣٣٠٥ - ومضى ذلك الزمان الذى كانت تجد فيه غذاءها

بسماعها قصته من شفتى كل ذى عقل،

- واستقر رأيها على التحرر بالصوم، وتشيد منزل على طريق يوسف،

- حتى تستقبل غذاءها من صوت جيشه، حينما يمر على طريقها،

- فياله من مسكين ذلك الذى خارت قواه، وأفلت زمام الاختيار من يده،

- وحرَم من وصال أحبته، وأمسى لحن سروره غير متوافق النغمات،

٣٣١٠ - فليست له طاقة كي يصل إلى حبيبته، وليس لديه قوت من قاصد دياره،

- فتارة تناجى الريح عنه، وأخرى تبحث عن شبيه له فى الطيور،

- وحينما ترى عابر سبيل على الطريق، على وجهه غبار السفر،

- تقبل قدميه لأنه من مدينة الحبيب، وتغسل غباره لأنه من تلك الديار،

- وما كانت لها قدرة على النظر لو مرّ سلطانها ممتطيًا جواده،

٣٣١٥ - ولكنها كانت تقنع بغبار الطريق، وتسرّ بصوت جيشه.

مجيء زليخا على قارعة طريق يوسف، وإعداد كوخ من الغاب وسرورها لمروء جيشه

- حينما ملّت روح زليخا من الوحدة، أقامت كوخًا من الغاب على طريق يوسف،
- وأحاطوه بسياج من الغاب، يملؤه الصياح كطائر "الموسيقار" (١)،
- فحينما كانت تشرع فى النواح من الفراق، كانت ترتفع من كل ناي نغمة منفصلة،
- وحينما كانت تشتعل فيها نار الهجر، كان لهيبها يضطرم بسبب آهتها فى كل غابة - فيه -
- ٣٣٢٠ - وكانت قد ارتمت متعبة داخل ذلك السياج، وكأنها صيد استقرت فى جبينه السهام،
- ولكن تأثرها بمذاق عشقه، جعل كل سهم فى مذاقها عودًا من قصب السكر،
- وكان فى حظيرة يوسف جواد من سلالة الشياطين، قاهر للفلك، محطم للسماء،

[١] اسم طائر منقاره ملهى بالثقوب، يصدر منها كثير من الأصوات الموسيقية.

- فهو حصان مسريع كأنه الفلك الفيروزي، وهو أبلق
كما لو كانت به آلاف الوصلات من الليل بالنهار،
- وبه علامتان من النور والظلام، متساويتان كأنهما ليل
الزمان ونهاره،
- ٣٣٢٥ - غارت من ذيله ثريا السماء، وتحطمت احشاء البدر
غيرة من حوافره،
- ففي كل حافر من حوافره هلال من الذهب، سمر
بنجوم فضية متألقة،
- وحينما كانت تجرح الحجر الصلد طعنة حافره، كانت
النجوم تتطاير من أهله،
- ولو طار منه حافره وهو يجرى، لا ستقر في السماء
كالقمر الوليد،
- وكان يسبق الصيد في ميدان القنص طائر من جانبه
كالسهم،
- ٣٣٣٠ - ولو اتسع ميدانه بين المشرق والمغرب لعبه كالبرق في
وثبة واحدة،
- ولو أثارت أقدامه الغبار، فأننى للريح الصرصر أن
تلحق به،
- ولم يكن أحد ليرى منه قطرة، رغم أنه كان يمتلئ في
الطريق بقطرات العرق،

- وكان يميل إلى الانسياب وسط ذلك العرق كسيل تجمع
من القطرات،

- وكأنه كثر ينساب بالجواهر، مبرأ من ضرر ثعبان
السياط،

٣٣٣٥ - ولو هداً وقع في الاسطبل، لخدمته الأفلاك برقبتها،
- ولو مدّ نحوها رأسه، لمنحته الماء من عين الشمس
فوق راحة القمر،

- ولأعدت له قمحه كل مساءً من برج السنبلة، وعلفه
من درب المجرة،

- وكانت قد هيأت لقمحه غربالاً من خيمة الأبدية ذات
العيون،

- كما اختارت الطيور المسبحة من السدرة لتجمع
الحجارة من قمحه كالحبوب،

٣٣٤٠ - وكان سرجة يشبه الجوزاء، بينما ركابه هلال مضيء
من كل جانب،

- فحينما كان يوسف يضع قدمه في هلاله، كأن القمر
قد استقرّ في الجوزاء حيثّذ،

- فكان يصهل تحت فخذه صهيلاً يمتدّ أميالاً عديدة في
كل اتجاه،

- فما كانت هنا حاجة إلى طبول الرحيل عند من يسمع
صهيله في كل صوب،
- فكانوا يأتون سراعاً نحو ذلك الملك، كما تقبل النجوم
على القمر،
- ٣٣٤٥ - وكانت زليخا تخرج من سور غابها بدورها حينما
تسمع ذلك،
- وتجلس بحسرتها على رأس طريقه، صائحة حيث يمر،
- وحينما كان يصل حشد على الطريق وليس فيه
يوسف، كان الأطفال يخبرونها مازحين:
- «هاهو يوسف قد أقبل على الطريق، بوجه يشير غيرة
الشمس والقمر»،
- فكانت زليخا تقول: «إننى لا أجد - أيها اللطفاء -
فيهم علامة من يوسف،
- ٣٣٥٠ - لا تجرحوا قلبي بهذه السخرية، فإن رائحة يوسف لا
تصل إلى أنفى،
- ففي كل محفل يستقر فيه، تذكو رائحته في أنف
الروح،
- وفي كل منزل يذهب إليه الحبيب، تمتلئ الدنيا بمسك
«ختن».

- وكلما كان يوسف يقبل فى جماعة، وتؤثر هيبتهم فى القلوب،
- كانوا يقولون لها: «إننا لا ندرى شيئاً عنه، ولا علم لنا بمقدمه فى هؤلاء القوم»
- ٣٣٥٥ - فكانت تقول: «لا تخدعونى! ولا تحجبوا عني مقدم الحبيب!
- فالمعبود الذى له السيطرة على ملك الروح وحدها، كيف يمكن إخفاء مقدمه (عليها)؟
- ونسيمه ينعش حديقته، لا، ليست الروح وحدها، بل الدنيا بأسرها
- وحينما يصبح الانتعاش قريباً للروح، تصبح على علم بروح العالم هذا»
- وحينما كانت تسمع تلك الحائرة المهجورة من الجنود صوت: ابتعد، ابتعد
- ٣٣٦٠ - كانت تصيح قائلة: «لقد طال بى العهد بالبعد، وأنا صبور فى البعد بمحنة الكثيرة،
- فحتام أظل مفارقة للحبيب؟ إنه لخير لى أن أفارق روحى،
- فلم تعد عندى طاقة على تحمل الفراق، ولا أبحث عنه إلا مكرهة»

- كانت تقول هذا وتفقد وعيها، وتسقط وقد نسيت نفسها،

- وكانت تضطرب من كأس فقدان الوعي، وتذهب إلى كوخها وهي غائبة عن الكون،

٣٣٦٥ - وكلما كانت تتنفس في ذلك الكوخ من أعماقها، كانت تصيح وتولول،

- وكان ذلك نظامها زمنًا، وما كان لها عمل أو شأن غير ذلك.

تشبث زليخا بقارعة طريق يوسف، وعدم
التفاتة إليها وذهابها بعد ذلك إلى
بيتها، وخطيمها الصنم، وإيمانها
بالله تعالى

- إن العاشق والولهان لا يعرف القناعة، بل إن حرصه
يزداد ساعة بعد ساعة،
- لا يهدأ بأمنية واحدة لدقيقتين، بل يسعى لتحصيل ما
هو أعلى،
- فلو شم رائحة وردة لأراد رؤيتها، وحينما يراها يريد
أن يقطفها،
- ٣٣٧٠ - فبعد جلوس زليخا في الطريق، تطلعت لسعادة
الرؤية،
- وذات ليلة، سجدت أمام ذلك الصنم الذي شغلت
نفسها زمناً بعبادته،
- وقالت: «يا من جمالك كعبة روحى! ورأسى موطئ
الأقدام فى عبادتك!
- إتنى أعبدك دهرأ من روحى، وقد ذهب جوهر
الإبصار منى،

- فانظر إلى فضيحتى بعينك، وأعد نور الإبصار إلى
عينى،

٣٣٧٥ - فإلام أبقى مهجورة من يوسف؟ فهبنى النظر حتى أرى
وجهه،

- فليست لى أمنية فى أى وقت أو مكان إلا رؤيته،

- فما دمت قادرا، فحقق لى رغبتى، فإذا حققتها،
فإنك تعرف الأشياء الأخرى،

- ولا تسرّ كثيرا بهذه الروح المعذبة، ولا تسعد بطالعى
السيئ،

- فأى حياة هذه التى يعدّ الفناء خيرا منها، والسير فى
طريقه أهون منها؟.

٣٣٨٠ - كانت تقول هذا وتحشو التراب على رأسها، وتبلله
بدموعها البكاء،

- وحينما علت ملكة الشرق عرش المشرق، وارتفع
صهيل أبلق يوسف،

- خرجت زليخا كالشحاذاة، واتخذت لها ركنا فى
طريقه،

- واستغاثت على عادة المظلومين، وتأوّهت من
أعماقها، وناحت من قلبها،

- فمن كثرة ما كان يعلو من كل صوب صوت الجند
قائلين: «أفسحوا الطريق»

٣٣٨٥ - ومن شدة ما كان صهيل الخيل يملأ الأسماع من كل
مكان،

- لم يكثر أحد بأمرها من الضوضاء، صارت في
حالة لا أراها الله لسواها،

- وأمسى قلبها ممزقاً من اليأس، وهامت بعيداً عن حى
السعادة،

- فكانت تنوح من ألم قلبها، وتمضى وهى تثر النار من
آهتها،

- ولما عادت إلى منزل أحزانها، أضرمت ناراً كثيرة فى
حفنة من الغاب،

٣٣٩٠ - وأحضرت ذلك الصنم الحجرى أمامها، وأطلقت
لسانها لتسكين ألمها،

- قائلة: «يا محطم عزى وجاهى، أينما ذهبت فأنت
حجر عثرة فى طريقى!

- لقد صار طريق الحظ ضيقاً أمامى بسببك، فجدير أن
أدقّ الحجر على قلبى،

- إبنى حينما سجدت أمامك، أودعت نفسى فى طريق
الوبال إلى متنها،

- إن كل أمر طلبته منك باكية، غسلت يدي - بسببه -
من رغبة كلا الدارين،

٣٣٩٥ - إنك حجر، وسوف أحرّر من عارك بأن أحطمك
بحجر»

- قالت هذا، ثم حطمته بحجر صلد، كما فعل الخليل،
- وحينما حطمته بعصية، عاودتها السكينة بعد ذلك،
- وحينما فرغت من أمر تحطيمه، توضأت بدموع عينيها
ودم قلبها،

- وتضرعت وهي تمرغ وجهها على الثرى، وتوسلت
بأعتاب الله،

٣٤٠٠ - قائلة: «يا من استولى عشقك على الضعفاء من
الأصنام وصانعيها وعابديها،

- فإذا كنت - يا رياه - قد وجهت وجهي للصنم، فإنني
قد ظلمت نفسي بذلك،

- فتجاوز عن ظلمي برحمتك، وإنني أخطأت، فاغفر
لي خطيئتي،

- ولشدة ما سلكت درب المعاصي، فقد أخذت مني
جوهر الإبصار،

- وبما أنك قد نفضت عني غبار الخطيئة، فردّ عليّ ما
أخذته مني،

٣٤٠٥ - فيصبح قلبى خالياً من سمة الندم، وأقطف جنياً من
بستان يوسف»

- وحينما عاد ملك مصر من الطريق، قطعت عليه
الطريق من جديد نائحة،

- وكانت تقول: «تعالى الذى جعل الملك عبداً، يطأطئ
رأسه ذلاً وعجزاً،

- ووضع على مفرق غلام مسكين محتاج تاجاً من العزّ
والجاء الملكيين»^(١)

- وحينما استقر ذلك الكلام فى أذن يوسف، ذهب
عقله هيبهً منه،

٣٤١٠ - وقال لحاجبه: «أحضر هذه المُسَبِّحة، التى سلبت
روحى القوة والقدرة،

- إلى خلوتى الخاصة، وأحضروها إلى مكان عبادتى،

- حتى أستفسر عن شىء من أحوالها، وأعرف هذا
الإدبار والإقبال،

[١] تأثر الجامى هنا بما ذكره وهب بن منبه فى هذا المجال، حيث يقول:

«..... وكان يوسف يركب فى كل سبوع مرة فى موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه،
ف قيل لها: لو تعرضت له لعله يسعفك بشىء، ثم قيل لها: لا تفعل، فربما ذكر بعض ما
كان منك من المراودة والسجن فيسئ إليك، فقالت: أنا أعلم بخلق حبيبى منكم، ثم
تركته حتى إذا ركب فى موكبه فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً
بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم...» تفسير القرطبي. ص ٢٢٢ طبع دار
الشعب، القاهرة.

- فإنها منذ أثارت ضجيجًا وثورة بذلك التسييح، بقيت متعجبًا لما أحدثه من تأثيرٍ عجيب،
- ومالم يكن فى أعماقها ألم، فكيف يكون لكلامها مثل هذا التأثير؟
- ٣٤١٥ - فلتكن مائتا روح ترابًا لذلك الملك الثاقب النظر، الذى يميّز بأهة أو نظرة،
- نور الصباح الصادق للمستغيثين، وأحاديث الضالين الكاذبة،
- ويكون بعدله طلائع الصباح الصادق لهؤلاء، وبعقابه جزاءً للكاذبين على خداعهم،
- وليس مثل ملوك هذا الزمان، الذين يتذرّعون بالحيل للحصول على الذهب،
- عن طريق كل ظالم متورّد الوجنات فى لون الدينار، ولو لقى مائة شخص الظلم على يديه
- ٣٤٢٠ - فبديناره الذهبى يحظى بمائة لون من الشرف، والتظلم منه لغوًا لا طائل من ورائه.

مجيء زليخا إلى بيت يوسف، وعودة بصرها وجمالها وشبابها بدعائه

- ليس هناك أطيب للعاشق من أن يصبح عاشقًا لرفيق
طيب الفكر،

- يستقبله في خلوة أسراره، ويزيل أعباء الحزن عن
صدره،

- ويجلس أمامه ويناجيه، ويحكي له الحكايات السابقة،

- فحينما تخلص يوسف من ضوضاء الجيش، وجلس
في خلوته،

٣٤٢٥ - دخل الحاجب من الباب قائلاً: «يا من لا مثيل له!
ومن هو حديث الدنيا بطباعه الحسنة!!

- هاهي المرأة التي أمسكت بعنان جوادك في الطريق،
واقفة بالباب،

- قد أمرتني أن أصحبها، وأظل برفقتها حتى أوصلها
إلى البلاط».

- فقال له: «اقض حاجتها، وداو قلبها إن كان
جريحاً».

- فقال له: «إنها ليست من قصيرات النظر هؤلاء، حتى
تحكى عن حاجتها».

٣٤٣٠ - فقال له: «إيذن لها بالدخول، فتكشف عن وجهها
النقاب».

- وحينما أذن لها دخلت خلوته الخاصة مسرورة كالزهرة
فى رقصها،

- وأصبحت كالوردة المبتسمة، وسرت كالبرعمة،
وأخذت تدعو ليوسف وفمها مليء بالضحك،

- فتعجب يوسف من كثرة ضحكها، واستفسر منها عن
اسمها وحالتها،

- فقالت له: «أنا التى اختارتك دون العالم، منذ رأتك،
٣٤٣٥ - وأنفقت الكنوز والجواهر ثمنًا لك، وكسرت قلبها

وروحها لعشقك،

- وأنت شابها حزناً عليك، وهوت فى تلك الشيخوخة
التي تراها،

- واحتضنت أنت حسناء الملك، ونسيبتها هى مرة
واحدة».

- فلما أدرك يوسف من هذا الكلام من تكون، ترحم
عليها، وبكى بمرارة،

- وقال لها: «أية حال تلك يا زليخا؟ وكيف بلغ بك
الوبال إلى هذا الحد؟»

٣٤٤٠ - وحينما خاطبها يوسف «يا زليخا» هوت فاقدة الوعي،
- وغلى شراب الإغماء فى قلبها، وولّى عقلها من لذة
صوته،

- وحينما عادت إلى رشدها، شرع يوسف فى الحكاية
معه،

- وقال لها: «أين شبابك وجمالك؟»، فأجابته قائلة:
«لقد ولّيا بسبب بعدك».

- فقال لها: «لماذا انحنى سروك المدلل؟» فقالت:
«انصهر فى بوتقة هجرك».

٣٤٤٥ - فقال لها: «ولماذا فقدت عيناك نورهما؟» فقالت: «من
كثرة ما غرقنا فى دم فراقك».

- فقال لها: «أين الذهب والفضة التى كانت لك؟ وأين
تاجك وإكليلك؟»

- فقالت: «كل من تحدث عن حسنك، ونشر جواهر
وصفك على رأسى،

- نشرت الرأس والذهب تحت قدميه، وكافأته بنشر
الجواهر،

- وألبسته تاج العظمة، واتخذت من تراب قدميه
إكليلا،

٣٤٥٠ - ولم يبق بيدي شيء من العظمة أو الذهب، وها أنذا
في ركن الأحران حيث تراني.

- فقال لها: «وما حاجتك اليوم؟ ومن هو ضامن
حاجتك اليوم؟»

- فقالت: «لقد مللت من حاجتي، ولا أريد ضامناً لها
سواك

- فلو أصبحت ضامناً، فاحلف لي على ذلك، وأنا
أفك الرباط عن اللسان لشرح ذلك،

- وإلا فإنني أمسك عن شرحه، وأقنع بحزن وألم آخرين»

٣٤٥٥ - فأقسم لها بمنجم الفتوة، وبمشيد أركان النبوة^(١)،

- الذي تفتحت له الشقائق والرياحين من النار، ووصلته
أردية الخلعة من الله،

- أن: «أحقق لك اليوم، في الحال، كل حاجة أعرفها
منك، إن استطعت»

- فقالت له: «أولها: الجمال والشباب، بتلك الصورة
التي رأيته وتعرفها،

[١] يشير إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام.

- وثانيها: البصر، لأرى طلعتك، وأجنى من روضة
وجتتك وردة.

٣٤٦٠ - فحرك يوسف شفّتيه بالدعاء وصب ماء الحياة من بين
شفّتيه،

- فمنح الحياة لجمالها الميت، وخلع خلعة الإقبال على
وجهها،

- وأعاد الماء إلى نهرها الجاف، فانتعشت به روضة
شبابها،

- وعلا الشعر الأسود شعرها الأبيض، وبدا ليلها
الحالك من صباحها،

- وقلا البياض طررها المسكية، وحلّ النور محلّ ظلام
عينها،

٣٤٦٥ - واختفى الانحناء من قوام سروها الوردى، واختفت
التجاعيد من فضتها الخالصة،

- وأضحى الشباب هالة حول شيخوختها، وعادت إلى
الثامنة عشرة بعد سنّ الأربعين،

- وصار لجمالها رونق آخر، بل إنه زاد عما كان عليه قديماً،

- فقال لها يوسف مرة أخرى: «يا طيبة الفكر! إذا كانت
عندك أمنية أخرى، فاكشفي لنا عنها».

- فأجابته قائلة: «ليس عندي أمنية أكثر من أن أجلس
في خلوة وصالك،

٣٤٧٠ - فأشاهد طلعتك نهاراً، وأضع وجهي على وجه قدميك
ليلاً،

- وأقع في ظل سرورك الباسق، وأمضغ السكر من
ياقوت ضحكتك السكرية،

- فأضع المرهم على قلبي الجريح، وأرى عملي كما أشتهى،
- وأمنح مزرعتي - التي ذبلت واضمحلت - قطرة من
ينبوع صحبتك».

- وحينما طرقت هذه الأمنية مسمع يوسف، أطرق صامتاً
بعض الوقت،

٣٤٧٥ - وتركز نظره على الغيب، وأخذ في الانتظار، ولم
يجب بالنفي ولا بالإيجاب،

- وكان حائراً بين الإيجاب والنفي، حتى علا صوت
جناح جبريل،

- وقد هبط بالوحي يقول: «أيها الملك الشريف، إن الله
سبحانه يقرئك السلام،

- ويخبرك - أننا حينما رأينا عجز زليخا، وسمعنا
عرضاً توسلها عليك،

- دخل بحر العطاء فى الغليان من الأمواج التى أثارها
كفاح عجزها،

٣٤٨٠ - فلم أجرح قلبها بسيف اليأس، وعقدت لك عليها
بأعلى العرش،

- فاعقد عليها أنت أيضاً بالرباط الخالد، فتفكّ بذلك
العمل عقدة الحزن من أمرها،

- فتجد من عين عاطفتنا أظافاً، ويولد لك من العقد
جواهر^(١).

[١] تأثر الجاسمى فى هذه الأبيات والأبيات التى تلتها - وهى التى تصوّر زواج يوسف -
بما ذكره وهب بن منبه، حيث يقول: «ثم زفت إليه فقام يوسف يصلى ويدعو الله،
وقامت وراءه فسأل الله أن يعيد إليها شبابها وجمالها ويصرها حتى عادت أحسن ما
كانت يوم راوبته، إكراماً ليوسف عليه السلام لما عفّ عن محارم الله...». تفسير
القرطبي، ص ٢٤٤٢.

عقد يوسف على زليخا بأمر الله تعالى وزواجه منها

- وحينما صدر أمر الله ليوسف Lie عقد العقد الدائم على زليخا،
- فإنه وضع الأساس للمحفل الملكي، ووفر فيه وسائل الطرب،
- ٣٤٨٥ - ودعا ملك مصر وعظماء المملكة، وأجلسهم على عرش العز وصدارة الجاه،
- وبقانون الخليل، وعلى دين يعقوب، وبالقانون الجميل، وبالصورة اللائقة
- عقد لنفسه على زليخا، فأدخل الجوهرة الفريدة في عقده،
- وكان ناثر الهدايا عليه من الأرض حتى السماء، وهنأه الملك وجيشه،
- ونهض يوسف معترداً، آسفاً لمن في مجلسه - على تجشمهم عناء الحضور،
- ٣٤٩٠ - وقنع بسؤال زليخا، وأرسلها إلى خلوته الخاصة،

- وأسرعت أمامها الجوارى فطأطأن الرءوس أمامها،
ووضعن فى طريقها الأكاليل إعزازاً لها،
- ومنحنها الزينة بالملابس المزركشة، متهللات لجمالها
الجذاب،
- وحينما هدأت ضوضاء الناس، واتجه كل إلى منزله،
- وتقنع عروس القمر بنقاب الليل، ونشر ستائره الذهبية
على وجه الأرض،
- ٣٤٩٥ -** وأضاءت مصابيح نجوم الدنيا تحت سقف السماء
الفيروزجى معلنة الانتصار،
- وعلق الفلك عقد الثريا، ومزج الشفق الياقوت الندى
بالجواهر،
- وأمست خيمة الليل حجاباً لأسرار الدنيا، فخلفه
يتناجى عالم بأسره،
- وجلس المحارم فى الخلوة معاً، وربطوا القناع المسكى
على وجه الآخرين،
- وكانت زليخا تنظر فى حرمها الخاص، وقلبها يرتجف
فى صدرها قلقاً،
- ٣٥٠٠ -** وكانت تقول: «هذا الظمآن الذى تهطل عينه على
شفتيه، هل هو يقظ أو نائم؟

- وسيروى من هذا الظماً أم لا؟ وستخمد هذه الحرقه
فى قلبه أم لا؟»

- وكانت تملأ عينها تارة بدموع الفرح، وأخرى بالدم
خوفاً من اليأس،

- وتارة كانت تقول: «إننى لا أصدق أن يطيب يومى
بهذه الصورة».

- وتارة أخرى تقول: «إن رحمة الحبيب واسعة، واليأس
من ألطافه حرام».

٣٥٠٥ - وكان قلبها فى صراع بين هذه الأفكار، فكانت تبدو
مسرورة تارة، حزينة أخرى،

- حتى ارتفع الستار عن الباب فجأة، فشاهدت قمراً بلا
قناع قد زين المنزل،

- وحينما وقع بصرها عليه، داومت النظر إلى طلعتة،
- وأفقدتها إشراق ذلك النور وعيها، وابتعدت ظلمة
الظل من نور الشمس،

- وعندما رأى يوسف رسوخ مذهبها فى العشق،
وفقدان وعيها بسبب مشاهدتها له،

٣٥١٠ - أجلسها على السرير رحمةً منه وحناناً، وجعل من
أحضانها وسادةً لرأسه،

- فأعادت رائحته الوعى إليها، وأيقظتها من نوم دلالها،
- ولما ألقى ببصره إلى ذلك الوجه الذى كان يغض الطرف عنه، وكان قلبه فى نفرة منه زمناً،
- شاهد وجهها جميلاً، أشبه بالصورة الصينية على صفحة الديباج،
- جميل مستحب كطلعة الحور، بمنأى عن زينة الماشطة... (١)

- ٣٥١٥ - وعندما رأى يوسف جواهرها غير مشقوب، جنى من بستانها برعمة لم تتفتح،
- وقال لها: «كيف ظل هذا الدر غير مشقوب؟ وكيف بقيت الوردة دون تفتح بريح السحر؟»
- فقالت له: «إنى ما شاهدت أحداً سوى العزيز، إلا أنه لم يقطف برعمًا من بستانى،
- فمع أنه كان سريع الخطى فى طريق الجاه، فإنه كان يتعثر فى ساحة السرور!
- وكنت قد شاهدتك فى النوم، أثناء طفولتى، وسألتك عن اسمك وعنوانك،

[١] أفرط الشاعر فى الأبيات التالية فى الوصف الحسى، ويعدّ هذا الأمر من المأخذ التى تؤخذ على الجامى فى مثل هذه القصة. ومن هنا فقد آثرت حذف ترجمة هذه الأبيات. (المترجم)

- ٣٥٢ - فنشرت بساط الرحمة، وأسلمت لى هذا النقد،
- فصنتُ هذا النقد - بعيداً - عن كل شخص، فلم يقرب جوهرى سنُّ ماس إنسان،
- فحمدًا لله، أن نقد الأمانة هذا، الذى قصرت عن الوصول إليه يد الخيانة،
- قد أسلمته لك سالمًا، مع أنى ضربت بسيف الخوف مائى مرة.
- وعندما سمع يوسف هذا الكلام من ملائكية الوجه تلك، تضاعف حبه لها بسببه،
- ٣٥٢٥ - فقال لها: «يا من تتفوقين على الحور فى الجمال، أليس هذا خيرا مما كنت تريدينه قبل هذا؟»
- فقالت: «بلى! ولكن اعذرني، فقد كنت مولهاة من ألم العشق!
- وكان بقلبي شوق لا نهاية له، وبروحى ألم لا دواء له،
- ذلك أن لك صورة، بما أنت عليه من حسن، يزداد بها كل لحظة شوقى وسكرى،

- فما كان في طاقتي صبر على بعادك، فاعفُ عن
إساءتي^(١)،

٣٥٣٠ - وأتني للمعشوق أن ينازع العاشق في خطأ يصدر عن
كمال العشق؟!..

[١] يقول الخازن: «... فزوّج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه؛ فلما دخل يوسف عليها
قال لها: «أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قالت له: أيها الصديق لا تلمني فإنني كنت
امرأة حسنة ناعمة كما ترى، في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما
جعلك الله في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي وعصمك الله....» تفسير الخازن، ج٢
ص ٢٣٩.

تغلب محبة زليخا على يوسف وبنائه معبدًا لها

- إن من يخطو بالصدق في طريق العشق، يتحول إلى معشوق في نهاية المطاف،
- ومن ذا الذي جاء إلى طريق العشق الصادق، ولم يصير المعشوق عاشقًا له؟
- وكان الصدق حظ زليخا في طريق العشق، حتى إنها سحقت عمرها كله فيه،
- ففي طفولتها، حينما كانت تلعب، كانت متيمة بعشق لعبها،
- ٣٥٣٥ - وحينما كانت تشغل نفسها باللعب، ما كان لها لعبة غير ممارسة العشق،
- وكانت تسمى إحدى اللعبتين اللتين كانت تضعهما أمامها عاشقًا، والأخرى معشوقًا،
- فلما ميزت بين يمينها وشمالها، وتمكنت من الجلوس والنهوض،
- ووقعت أسيرة في شباك عشق يوسف، من حظها اليقظ، في تلك الرؤيا التي رأتها،

- فإنها نفضت من قلبها عشق مُلكها، وقصدت مسافرة
إلى مملكة مصر،

٣٥٤٠ - وأقبلت من مدينتها إلى مدينة يوسف، لا من أجلها،
بل من أجل يوسف،

- وقضت شبابها في التفكير فيه، وأنفقت عمرها على
أمل وصاله،

- حتى وقعت في الشيوخوخة رغبة فيه، وعميت أملاً
في رؤيته،

- وحينما أصبحت مبصرةً وشابة بعد الكهولة، زاد حبها
لوجه روح العالم هذا،

- وبعد ذلك قضت عمرها كله في عشقه، وجعلت
بقلبها رباط وفائه طول الدهر،

٣٥٤٥ - ولما تجاوز صدقها كل حدٍّ، فإن العشق سرى في
النهاية إلى يوسف،

- وهكذا أضحى قلب يوسف ملتهباً بحبها، حتى إن
الحجل كان يعتريه من ذلك اللهب

- وهكذا طرقت تلك الفاتنة طريق قلبه، حتى إن صبره
ما كان يبقى معه ساعة بسببها. (١)

[١] وصف حسى غير لائق في البيتين الآتين، وقام المترجم بحذفهما.

- وحينما تمزق الحجاب على زليخا بسببه، أضاءه شعاع
من شمس الحقيقة،

- وغلبت عليها شمس الحقيقة، حتى تلاشى يوسف
فيها كالذرة،

٣٥٥٠ - حقاً!! لقد انصهر عمرها بالمحنة، في بوتقة العشق
المجازي،

- فلما طلعت شمس الحقيقة، لم يعد أمام عينها أى
حائل،

- وتعلقت بها جذبات الحقيقة، وفرت من كل ما كان
غير مجد^(١)

- وذات ليلة، فرت من قبضة يوسف، وكانت تبحث
عن الخلاص منه متعثرة،

- وحينما أطبق يده على قميصها من الخلف، تمزق
قميصها فى يده،

٣٥٥٥ - فقالت زليخا: «إن كنت قد مزقت قميصك على
جسدك قبل ذلك،

[١] يقول وهب بن منبه: «وفيما روى أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما
كان فى قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينى كما كنت أول مرة؟ فقالت: لما نقت محبة
الله شغلنى ذلك عن كل شئ».

تفسير القرطبي. ص ٢٤٤٤ طبع دار الشعب .

- فإنك قد مزقت قميصي الآن بدورك، ولحق بي جزاء ذنبي،

- وإني غير خائفة من الفرق في هذا الأمر، فنحن متساويان في تمزيق القميص».

- وحينما رأى يوسف توجهها إلى العبودية، وأن لقلبها نصيباً من الحياة في تلك النية،

- شيد لها قصرًا من الذهب، لا ليس قصرًا، بل إنه مسجد،

٣٥٦٠ - لبناته من الفيروز، كأنه قبة السماء، أضحت الأرض جنة من رقة صنعه،

- ملئ من أرضه حتى سمائه بالنقوش والرسوم، فقد أوقف عليه المهندس فكره ونظره،

- فنور الحظ متلألئ من نوافذه، ورسول السعادة مسرعٌ من أبوابه،

- ولقد كانت عين السوء بعيدة عن غرفه العالية، وأسطحه مقوسة كحاجب الحور،

- وتستمد الشمس منبعها من نور نقوشه، فمحال أن يوجد بسببها ظل داخل المنزل،

٣٥٦٥ - ومن بستان نخيل حائطه، نمت الأشجار من رشح قلم السعداء،

- وقد استقر على كل غصن طائر، بيد أن منقاره أغلق
دون التغريد،
- وقد أقيم عرش مبارك داخل القصر، بعضه من
الذهب والآخر من الياقوت الخالص،
- وبه مائتا صورة نادرة علقت به كما علقت به آلاف
الدرر الغالية،
- وأخذ بكل الحب يد زليخا، وأجلسها على العرش
وجلس،
- ٣٥٧٠ - وقال لها: «يا من أخرجتني بأنواع العطف حتى يوم
القيامة،
- في ذلك الوقت الذي كنت تسميني فيه عبداً، شيدت
قصرًا للكرامة باسمي،
- وزينته بكل زينة ممكنة من الياقوت والذهب، مما هو
أحمر وأصفر،
- وقد شيدت الآن أنا أيضا منزلاً للعبادة من أجلك
للشكر على عطائك،
- فاجلسي فيه لشكر الله، الذي أنعم عليك نعمًا بعدد
شعر رأسك،
- ٣٥٧٥ - فقد منحك الغنى بعد الفقر، والشباب بعد الضعف
والشيخوخة،

- ووهبك النور فى العين التى ذهب نورها، وفتح بعد ذلك باب الرحمة أمام وجهك،
- وبعد عمرٍ تجرعت فيه كل ألوان الحزن، أوصلك الله إلى ترياق وصالى.
- وكانت زليخا هى الأخرى قد جلست على العرش الملكى، بتوفيق من الله،
- وكانت قاعة فى تلك الخلوة بوصال يوسف وفضل الله.

رؤيا يوسف أبويه فى المنام، وطلبه الموت من الله تعالى، واضطراب زليخا

- ٣٥٨٠ - واحسرتاه على ذلك الشخص السعيد، الذى يحمل
متاعه فجأة إلى بلاط الوصال،
- فىأخذ حساء السعادة فى أحضانه، وينسى آلام
الهجر،
- ولا يرى قلبه غباراً للأحزان، ويمضى أيامه فى
سعادة،
- وفجأة، تهب رياح الشؤم، وتروج سموم الفراق،
- وتقتحم رياض الوصال بجراًة، وتستأصل أغصان
شجرة الأمل،
٣٥٨٥ - فحينما وجدت زليخا رغبة قلبها فى يوسف، واستراح
قلبها بوصاله الدائم،
- فإنها كانت تعيش بقلب مبتهج، وخاطر سعيد،
وكانت تحيا متحررة من أحزان الحياة،
- وطالت أيام وصالها، حتى تخطى عمرها الأربعين،
وهى فى بداية تلك السعادة،

- وبالتدريج، أعطت تلك النخلة المثمرة ثمرة الابن، بل
ابن الابن،

- وما كان فى قلبها أمل من الدنيا إلا وتحقق لها على
مائدة الأمل،

٣٥٩٠ - وذات ليلة وضع يوسف رأسه فى المحراب، فاعترض
قاطع النوم طريق يقظته،

- فرأى والده جالساً مع أمه، متشحين بنقاب النور،
ووجههما مضىء كالشمس،

- ونادياه قائلين: «اعلم يا بنى أن أيام الفراق قد انتهت،
فأسرع،

- إن كنت تريدنا فطاً بقدميك على ماء الجسد وطينه،
واتخذ طريقك إلى مقام الروح والقلب».

- وحينما استيقظ يوسف من تلك الرؤيا، اقترب من
زليخا تاركاً المحراب،

٣٥٩٥ - وقص عليها حكاية الرؤيا، وشرح لها تأويله للرؤيا،
- فألقي بها من جرأ ذلك فى آلام الفراق، وأشعل
نار الهجر فى روحها،

- وخرج قلب يوسف عن طوره، وزاد اشتياقه إلى
مملكة البقاء،

- ورفّع قدمه من دار الحرص هذه، وسلك طريق دار
الأسرار الفسيحة،

- وحمل متاع الأنس من دار الفناء، ورفع أكف الدعاء
نحو محراب البقاء،

٣٦٠٠ - قائلًا: «يا قاضى حاجة البائسين، ومتوجّج رءوس
العظماء!!»

- يا من وضعت فوق رأسى تاج السعادة، التى لم
تمنعها لسعيد الحظ قط،

- إن قلبى قد ملّ هذه الدار الفانية، وضاق من تدبير
أمور الحكم،

- فحررنى من نفسى، وأرشدنى إليك، وهبنى ملك
الأبد،

- إن السالكين الذين سلكوا طريق الدين قد نالوا
الدرجة العالية بقربك،

٣٦٠٥ - فأخرجنى من عداد هذا وذاك، وأوصلنى إلى عزة
قربهم» (١).

[١] اعتمد الجامى فى نظم هذه الأبيات - التى جرت على لسان يوسف - على قوله تعالى:
﴿وَرَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَلَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. يوسف. آية «١٠١».

- وحينما سمعت زليخا هذه المناجاة، أصاب قلبها جرح عميق،

- فقد أدركت يقيناً أن دعاءه هذا سيستجاب بسرعة،

- فما ينطلق سهم من قوسه، ويتأخر أبداً في الوصول إلى هدفه،

- فدخلت في حجرة مظلمة ضيقة، وفكت جدرانها الليلية واحدة بعد الأخرى،

٣٦١٠ - وكانت تحثو التراب على رأسها حزناً من الفراق، وتمرغ وجهها الملىء بالدم على الأرض،

- ونأت عن السرور، واقتربت بالحزن، وكانت عيناها تمطران الدموع وهي تقول:

- «يا بلسم آلام المتألمين! وراقى بدوائك الصدور الكليمة،

- وأمل قلب كل يائس، وفاتح الأبواب الستة أمام كل من أغلقت أمامه الأبواب!

- ومحضر مفاتيح الأبواب المغلقة، ورابط جباثر القلوب المحطمة،

٣٦١٥ - ومخلص المهجورين من الحزن، ومخفف الآلام الثقيلة كالجبل،

- إننى أسيرة قلبى الجريح، وأصبحت فى حيرة من أمرى،
- ولا أملك القدرة على فراق، فأنزع روحى من جسدى مع روح يوسف،
- فإننى لا أريد الحياة بغير جماله، ولا أرغب فى البقاء فى مملكة الحياة،
- ذلك أن شجرة العمر بغير أوراق، والحياة الأبدية بغيره موتٌ محض،
- ٣٦٢٠ - وليس مستحبًا فى قانون الوفاء أن أكون فى الدنيا وهو غير موجود،
- ومالم يجعله رفيقًا لى، فأخرجنى فى البداية وهو من ورائى،
- فإننى لا أود أن أجلس وحيدة، بعيدة عنه، وأرى الدنيا بغير جماله.
- وقضت حياتها هكذا فى البكاء والحرقه، دون أن تفرق بين الليل والنهار،
- حقًا إن كل من يضيق قلبه بسبب الحزن، يظهر الليل والنهار أمام سيّان.

وفاة يوسف عليه السلام، وهلاك زليخا حُزنًا على فراقه

- ٣٦٢٥ - وفى اليوم التالى، فإن يوسف - وقت السحر - وقد
سرت القلوب من بركة الصباح،
- لبس الملابس الملكية، وخرج قاصدًا الركوب،
- وحينما وضع قدمه فى الركاب، قال له جبريل: «لا
تتعجل أكثر من ذلك!»
- فليس هناك أمانٌ من الفلك الساحق للعمر، حتى تمسّ
قدمك الركاب الآخر،
- فالو العنان عن الآمال والأمانى، واسحب قدميك من
ركاب الحياة».
- ٣٦٣٠ - وحينما سمع يوسف هذه البشرى، نسي - لسروره -
الدنيا،
- ونشر ذيل الهمة من الفرحة، واستدعى واحدًا من
وارثى الملك،
- وجعله ملكًا لذلك الإقليم خلفًا له، ونصحه بالتّحلى
بالأخلاق الحميدة،

- ثم قال: «استدعوا زليخا، واجعلوها تصل في موعد وداعى».
- فقالوا: «إنها عاجزة في يد الحزن، وقد هوت مستسلمة بين التراب والدم،
- ٣٦٣٥ - وليس لروحها قدرة على تحمل هذا العبء، فدعها وما هى فيه».
- فقال: «أخشى أن يبقى جرح هذه الخسارة فى قلبها حتى يوم الحشر».
- فقالوا: «فليهبها الله الرضا، وليقو رباطها بالقناعة».
- ثم هبطت تفاحة إلى كف جبريل، كانت تتزين بها جنة الخلد،
- وحينما وضع تلك التفاحة فى يد يوسف، شَمَّها وأسلم الروح فى الحال،
- ٣٦٤٠ - فقد وجد قلبه فيها رائحة بستان البقاء، فأسرع إليها طلباً لتلك الرائحة
- وحينما فاضت روح يوسف، علا عويل الحاضرين من أعماقهم،
- وقد مضى من عمره مائة وعشرون عاماً، وبكت جميع الوحوش والطير لموته،

- ولشدة علو صوت العويل ، تردد صدهاء فى السماء ،
- فقالت زليخا: «ما هذه الجلبة؟ وما هذا العويل؟ ولأى سبب امتلأت الأرض والسماء ضوضاء؟»
- ٣٦٤٥ - فقالوا لها: «إن الملك العظيم قد انتقل من فوق العرش إلى النعش،
- وودّع الدنيا الضيقة، واتخذ له مسكنًا فى أوج قصر اللامكان».
- فلما سمعت هذا الكلام فقدت وعيها، وخبأ ضوء عقلها المنير من جسدها،
- وهوت تلك السروة الباسقة على الأرض كالظل ثلاثة أيام من هول هذا النبأ،
- وحينما استيقظت من غفوتها فى اليوم الرابع، أعادها سماع هذا الخبر إلى حالة اللاوعى،
- ٣٦٥٠ - وكانت تفقد الوعى هكذا ثلاث مرات لمدة ثلاثة أيام، بسبب جرح صدرها الحارق،
- وحينما أفاقت فى اليوم الرابع ثانية، استفسرت عن يوسف قبل كل شىء،
- إذ لم تجد له أثر على وسادة السرير، ولم تستشعر وجود تابوته فى هذا العالم،

- ولم يخبروها عنه إلا أنهم أودعوه التراب كالكتز،
- فشقت طوقها فى البداية من ظلم الفلك الطاغى،
وكانها الصباح،
- ٣٦٥٥ - ففتحت - يشقها طوقها - طريقًا لتلك النار التى
كانت مختفية فى قلبها،
- بيد أن النار الحارقة كانت تزيد أعماقها كل لحظة، ولا
تقل عن ذلك الطريق،
- وكانت تحفر بأظافرها ثقبًا فى وجهها، فتشق لينابيع
الدم أنهارًا،
- وجعلت الياسمين مكانًا لجلوة الأرجوان، فى كل نهر
سيرته من ذلك ينبوع،
- وصنعت بأظافرها خطوطًا على وجتها الوردية، كأنها
عروق الظلام فى عين مضيئة،
- ٣٦٦٠ - وكانت تدق بالحجر على صدرها حسرةً، وتصفع
وجهها الوردى،
- فكان ينمو من الفضة عقيق ندى كما كان ينمو
النيلوفر من ذلك الصفع على الشقائق،
- وحملت قبضتها إلى رأسها الرقيقة، وأخذت تدقها.
بقبضتها القوية،

- وجردت سرو بستانها من الريحان، حيث أفرغت
جذائل سنبله بالقطف،
- وأخذت تنوح من قلبها، وتولول من روحها،
وأخذت تصيح من أعماقها الحزينة،
- ٣٦٦٥ - وكانت تقول: «أين يوسف وعرشه المزين؟ وأين عطفه
على المحتاجين؟
- وما دام قد أحكم عزمه على الرحيل من هنا على
حصان محكم، وقصد ملك الخلود،
- وما دام إسراعه في هذا الرحيل كان زائداً حتى أنني
لم أتمكن من تقبيل ركابه،
- فكيف خرج من هذا الكون المضاعف للأحزان، وما
كنت في حضوره حين رحل؟
- وما رأيت رأسه وهي موضوعة على الوسادة، وما
جمعت العرق الندي من صفحة نسرينه؟
- ٣٦٧٠ - فحينما أصاب ذلك الجرح العميق جسده، ما جعلت
صدرى سنداً لظهره،
- وحينما حمل متاعه من مكان العرش صوب النعش،
سعدت تلك الخشبة كالعرش،
- وما طلبت ماء الورد من عيني الساكبة للدم، وما
غسلته بذلك الماء الوردى الصافى،

- وحينما أعدّوا له كفنه، وشغلوا بتكفينه،
- ما علمت نفسى فن تجميع الخيوط، حتى أربط عليه
جسدى الهزيل،
- ٣٦٧٥ -** وحينما حطموا الأشواك من الغم فى قلبى، وربطوا
محملة بعد نهاية رحلته الدنيوية،
- فإنى ما جعلت فمى الملىء بالأصوات غير المرتبة
جرساً لمحملة،
- وحينما شقوا مكان نومه فى التراب، وأودعوه كالدرّ
الطاهر فى الأرض،
- فإنى لم أكنس الأرض تحت صدره وكتفه، ولم أنم
فى حضنه كما يهوى قلبه،
- فواحسرتاه على هذه الخسارة!! واحسرتاه! وواحسرتاه
من هذا العناء!!
- ٣٦٨٠ -** فيا أمنية الروح، أقبل، وتأمل حرمانى! وانظر ظلمى
من حيف السماء!
- لقد رحلت عنى، ولم تذكرنى، ولم تسعدنى بالنظر
إليك،
- وما كان هذا وفاءً منك أيها الوفى، وما كان هذا
طريق الصداقة مع الأصدقاء،

- ولفظتنى من قلبك ورحلت، ومضيت ملقياً بى بين
التراب والدم،

- وكسرت فى قلبى شوكة عجيبة، لن تخرج إلا من
طيتى،

٣٦٨٥ - لقد ذهبت إلى مكان لم يعد منه شخص ثانية فى
وقت من الأوقات،

- فمن الخير أن أنشر جناحى من هذا، وأقبل نحوك
برفرفة جناح واحدة

- قالت هذا وطلبت صاحب الهودج، وأمرته بإعداد
هودج لها،

- فأسرع بها من منزل الأحزان هذا إلى مقر رحلة
يوسف،

- فلم ترهناك أثراً للجوهر الطاهر، سوى كومة من
التراب الرطب،

٣٦٩٠ - وألقت تلك الشمس الرقيقة القدر بنفسها كالظل فوق
الكومة،

- فذهبتها بوجتيها، ونخضبتها من ياقوت دموعها،

- فتارة تقبل رأس القبر، وتارة تقبل القدم، وهى
تصيح: «واويلتاه! واويلتاه!

- تواريت أنت فى التراب كالماء ، وبقيت أنا خارجه
كالأشواك والقش ،

- واحتجبت فى الطين كجذور الورود ، وأنا فوق السطح
كغصن الورد النضر

٣٦٩٥ - وسكنت تحت التراب كالكتز ، وأنا أزن جواهر
السحب من فوقه ،

- لقد أثار طيفك موج الدم على ترابى ، وأضرمت فراقك
اللهب فى هشيمى ،

- وأشعلت النار فى نخالة وجودى ، فأخذ دخانى يتلوى
إلى السماء ،

- وما فتح أحد عينه لدخانى ، حتى لا تنسكب من عينه
الدموع .

- وكانت تنوح وتمزق صدرها كل يوم مائة مرة ، وتتمرغ
بحسراتها على التراب ،

٣٧٠٠ - وحينما تجاوز ألم حسرتها الحد ، نكست رأسها على
عادة التقيل ،

- وأدخلت أصابعها فى عينها ، وأخرجت النرجستين من
مكانهما ،

- وألقتهما من كأس رأسها على تراب الأرض ، ذلك أن
زراعة النرجس فى التراب أفضل ،

- فحينما تبتعد العين عن ورد وجهك، فأى جدوى منها
في ذلك البستان؟

- فقد كان من عادة المحزون الحائر أن يثر اللوز الأسود
على التابوت،

٣٧٠٥ - ولما كانت تلك المسكينة قد ابتعدت عن تابوته، فقد
نثرت لوزتين سوداوين على ترابه،

- ووضعت وجهها الدامى على قبره، وقبلت الأرض
بتواضع، وأسلمت الروح^(١)،

- فما أسعد ذلك العاشق الذى يسعد بوصال أحبته،
حينما تفيض روحه،

- وحينما أبصرت رفيقاتها حالها، صحن وولولن من
أعماقهن،

- فكل نوحه ناحتها على يوسف، نحنها عليها بكل
ألم،

٣٧١٠ - فكن ينحن على النائحة كما ناحت على ذلك الفضى
الصدر،

- ولما انخفضت أصوات نواحينهن، شمرن سواعدهن
لغسلها،

[١] تذكرنا هذه الصورة بموت "شيرين" بعد "خسرو" فى قصة نظامى الكنجوى: «خسرو
وشيرين».

- فغسلنها بدموع عيونهن، كما تغسل أمطار الربيع ورقة
الورد.

- وكفنتها بكفن أخضر، كأنما هي برعمة نبتت من غصن
ياسمين،

- ونظفن وجهها من غبار الفراق، وأودعناها الثرى
بجوار يوسف،

٣٧١٥ - ولم ير أحد قط هذه السعادة من الموت، فينال صحبة
الأحبة بعده.

حكاية

- بيد أن راوى هذه الحكاية الحلوة، التى يحكيها عن قدامى الرواة،

- يروى أنه قد تم دفن جسد يوسف الطاهر على كل من ضفتى النيل،

- فظهر القحط والوباء فى الضفة الأخرى، وعمت أنواع البلايا مكان النعم،

- فاستقر رأيهم، فى نهاية المطاف، أن يضعوه فى تابوت حجري،

٣٧٢٠ - قاموا بطلاء ثقبه بالقار، ثم رموه فى قاع النيل^(١)،

- فتأمل الحيلة التى صنعها الفلك الغادر، ليعبدها عن يوسف حتى بعد موتها،

- ولست أدري أى حقد يكنه الفلك لهما، حتى إنه لم يتركهما هادئين تحت التراب،

[١] يقول البغوي: «.... دفن فى الجانب الأيمن من النيل، فأُخَصِبَ ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر، فنقل إلى الجانب الأيسر فأُخَصِبَ ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر، فدفنوه فى وسطه وقبروا ذلك بسلسلة، فأُخَصِبَ الجانبان جميعاً...»
تفسير البغوي على حاشية الجزء الرابع من تفسير ابن كثير. ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

- فأحدهما غريق في بحر العشق، والآخر يحترق ظمأً
على شاطئ الفراق،
- فما أطيب ما قاله ذلك المحنك في أمور العشق، الذي
استراح خاطره به من كل كسب وخسارة:
- ٣٧٢٥ - «حيثما يروج سوق العشق، لا تقترن الراحة بأمر من
الأمور».
- فالكفن يتمزق على العاشق بسببه، حتى لو كان تحت
الثرى،
- فلا أحد يقول إن شخصاً قد مات، فقد ذهبت تلك
المرأة بكل شجاعة،
- لقد اقتلعت عينيها بادئ الأمر حتى لا ترى غير
المحبيب، ثم ألقت بعد ذلك بنقد الروح،
- فلتهبط الرحمات على روحها وجسدها، ولتضيء عين
قلبها برؤية الأحبة.

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل



نظم الشاعر هذه القصيدة سنة 888 هـ وهو في السبعين من عمره، وقدمها الي «حسين بايقرا» حاكم خراسان . ويصل مجموع أبيات هذه القصيدة أربعة آلاف بيت، نظمها في بحر الهزج المسدس، وهو وزن لم يسبقه أحد إليه ممن نظموا هذه القصيدة قبله .

ويكاد القدماء والمحدثون يجمعون علي أن هذه القصيدة من أفضل ما خلف الشاعر من أعمال، إن لم تكن أفضلها جميعا، حيث يقول «سير دينيسون روس»:

«تعتبر منظومة الجامي خير ما نظم في هذا المجال، وقد نالت شهرة واسعة، ولا شك أنها اكتسبت شعبية كبيرة» أما «براون» فيري أن الجامي قد تبوأ منزلة عالية بنظم هذه القصيدة، وأن «شهرته قد حلت في الافاق بسببها» وقد اهتم عبد الرحمن الجامي بإضفاء عنصر جديد في قصته، ألا وهو جانب التصوف.